سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٦)

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات التراجم

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات التراجم

(٢)

ح عادل محمد مرسي رفاعي ، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل الشيخ ، صالح عبد العزيز محمد

سلسلة المحاضرات العلمية لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
صالح عبد العزيز آل الشيخ ؛ عادل محمد مرسي رفاعي :-
الرياض ، ١٤٣٥هـ
٧ مج.

ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٤٩٢٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١ - الاسلام مقالات ومحاضرات ٢ - الاسلام - مجموعات ا. رفاعي ، عادل محمد مرسي (محقق) ب. العنوان

ديوي ٢٥٢,٥٠٨ ١٤٣٥/٣٧٥٨

رقم الإيداع : ١٤٣٥/٣٧٥٨
ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٤٩٢٣-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

جميع الحقوق محفوظة

طبعة عام ١٤٣٦ هـ

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي سلطانة - شارع حنين - بجوار جامع شيخ الإسلام ابن تيمية
الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ش المدرسة متفرع من ش البطل - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة عهد ابن أم عبد رضي الله عنه الأولى بمسجد شيخ الإسلام بسلطانة بالرياض

الحمد لله الذي أنعم على عباده المتقين بالتوفيق إلى الطاعات، وأنعم عليهم بقبولها منهم بعد التوفيق، وأنعم عليهم بمجازاتهم عليها يوم العرض عليه.

فالحمد لله الذي تفضل، وأنعم، وتكرم، وأعطى بغير حساب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا رب لنا سواه، ولا معبود لنا غيره، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فلا خير إلا دلها عليه، ولا شر إلا حذرها منه، فتركها بعده ﷺ على طريق بين واضح ونهج بيِّن لا يزيغ عنه بعده ﷺ إلا هالك.

اللهم صلِّ على محمد كفاء ما أرشد وعلم، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل نبينا محمد، وعلى زوجاته وعلى صحابة محمد صلى الله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن من القصور الذي يعانيه الناس اليوم أنهم يعلمون كلام أهل

العصر، أو أهل العصور التي يعيشونها، ويقصرون في تتبع ومعرفة وتدبر كلام سلفنا الصالح.

كَلامُ السَّلَفِ وَكَلامُ الخَلَفِ

وكلام السلف قليل كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير قليل الفائدة[(١)]؛ كما قال ذلك ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم: (فضل علم السلف على علم الخلف).

وأساس ذلك أن السلف كانوا إذا تكلموا، اقتفوا في كلامهم أثر النبي ﷺ والنبي ﷺ كان يوجز كلامه، وقد أوتي جوامع الكلم، وهي: الكلمات القليلة التي تحوي المعاني الكثيرة، فتجد صحابة رسول الله ﷺ لهم من الكلمات، ولهم من الوصايا، ولهم من الخطب، ولهم من الرسائل التي يوصي فيها بعضهم بعضًا ما هو قليل الكلمات، قليل الحروف، ولكن من تدبره، وجد تحت كل جملة العجب العجاب: من تفرع المعاني، وكثرتها، وقوتها.

وصحابة رسول الله ﷺ طبقات، منهم المهاجرون الذين أسلموا قديمًا، وصحبوا رسول الله ﷺ في مكة، ومن هؤلاء خاصة رسول الله ﷺ «**صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ، وَالْوِسَادِ، وَالْمِطْهَرَةِ**»[(٢)] عبد الله بن مسعود الهذلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)] المتوفَّى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة.

---

(١) انظر: بيان فضل علم السف على الخلف للحافظ ابن رجب (ص ٦٠-٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٨٧)، والإصابة (٤/ ٢٣٣).

أَقْرَأُ الصَّحَابَةِ

عبد الله بن مسعود أو ابن أم عبد رضي الله عنه كما كان ﷺ يناديه، كان ممن أسلم في مكة، وصحب الرسول ﷺ في مكة، وسمع القرآن أول ما أنزل، وحفظ القرآن، حتى أنه كان يقول: «**وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ**»(١).

وكان يحفظ القرآن، وكان أقرأ الصحابة رضي الله عنهم، وقد قال فيه ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»(٢) يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال له ﷺ مرة: «**اقْرَأْ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ نَعَمْ فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ﷺ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٨)، وأحمد (١/ ٧)، من حديث أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٤٩)، ومسلم (٨٠٠).

وَصِيَّةُ الرَّسُول ﷺ بِابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه

ابن مسعود رضي الله عنه وصى النبي ﷺ الأمة أن تأخذ بعهده، وأن تقتفي أثره؛ فقد صح عن النبي ﷺ - فيما رواه عنه الإمام أحمد والحاكم وغيرهما - أن النبي ﷺ قال: «**تَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ**»(١)، يعني: إذا عهد إليكم عهدًا، فتمسكوا به، وصح -أيضًا- عنه ﷺ أنه قال: «**رَضِيتُ لأُمَّتِي مَا رَضِيَ لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ**»(٢)، وصح - أيضًا - عنه ﷺ أنه قال: «**قد رضيت لكم ما رضي لكم ابن أم عبد**»(٣)، ولهذا كان ابن مسعود صاحب وصايا، يوصي، ووصاياه - كما أسلفتُ - جمعت بين الكلام القليل والمعاني الكثيرة، وسيأتينا ما يدل على ذلك، وقد كان ورعًا خاشعًا، كان تلاءً للقرآن، عاملًا به، آمرًا به وناهيًا، فهو الذي يقول: «**إذا سمعت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك، فإنها خير تؤمر به أو شر تنهى عنه**»(٤).

وهو الذي يقول في أهل القرآن: «**يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نَائِمُونَ، وَنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبُكَائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُونَ**»(٥)، وهو الذي أوصى في القرآن بقوله: «**لا تَنْثُرُوهُ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٥)، والحاكم (٤٤٥٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٣٨٧)، والبزار (٥/ ٣٥٤)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم (٥٣٩٤).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٣٦١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٣١)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٩٠).

نَثْرَ الدَّقْلِ، ولا تَهُذُوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ»[(١)]، فكان رضي الله عنه له أصحاب، وكان يوصيهم بوصايا حفظت لنا، وكان أصحابه على هيئته يترسمون خطاه، ويهتدون بهديه.

وكان رضي الله عنه أشبه الناس هديًا وسمتًا بالنبي صلى الله عليه وسلم[(٢)]، فقد كان حريصًا على السنة؛ ولهذا كان أشبه الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم.

فَاتِحَةُ الكَلِمَاتِ: لَوْ تَعْلَمُونَ ذُنُوبِي

كان له أصحاب، وهكذا العالم والداعي لا بد أن يتأثر به الناس، ومع ذلك كان مربيًا، حتى في إمامته وصحبته؛ رآهم مرة يتبعونه، ورأى العدد كثُر رضي الله عنه، فقال لهم كلمته التي هي فاتحة الكلمات التي سنتدبر فيها من كلمات ابن مسعود، قال رضي الله عنه لهم: **(لو تعلمون ذنوبي، ما وطئ عقبي اثنان، ولحثيتم التراب على رأسي، ولوددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي، وأني دعيت عبد الله بن روثة)**. أخرجه الحاكم وغيره[(٣)].

يقول لأصحابه: **(لو تعلمون ذنوبي، ما وطئ عقبي اثنان)**، وفي رواية أخرى يقسم، ويقول: **(والله الذي لا إله غيره لو تعلمون عملي، لحثيتم التراب على رأسي)**، وهذه الكلمات مدرسة ولا شك؛ لأن البروز في الناس

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٥٦)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم واللفظ له (٥٣٨٢)، والدارمي (٥٣٢).

متوقع، إذا تميز أحد في الناس بشيء، ربما عظموه، وربما مدحوه، وربما تتابعوا خلفه يمشون.

والمرء كلما ازداد علمه بالله ﷻ، علم أن ذنوبه كثيرة، كثيرة كثيرة، ولا عجب أن أوصى النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه، وهو أفضل هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ، الصديق الذي قال فيه النبي ﷺ: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر**»(١)، علمه النبي ﷺ أن يدعوَ آخر صلاته بدعاء، فيقول فيه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(٢).

القائل الموصِي: النبي ﷺ، **والموصَى**: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

والوصية: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك.

كلما ازداد علم المرء بربه، خشي الله ﷻ، وخشي أن يطأ عقبه اثنان، خشي أن يُعظم في الخلق، خشي أن يرفع في الناس؛ لأنه يعلم من الله ﷻ وما يستحقه الله ﷻ ما يوقن بأنه لن يبلغ أن يكون موفيًا لله ﷻ حقه، فيكون مقصرًا في الشكر، وذلك ذنب من الذنوب؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: (**لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان**).

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٥٣)، والبيهقي في الشعب (٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

قد يشتهر الناس؛ فمنهم القارئ للقرآن، الذي يشتهر بحسن قراءته وبحسن صوته، فيجتمع عليه الناس، ومنهم العالم يشتهر بعلمه، وبفتواه، وبصلاحه، وبورعه، فيجتمع عليه الناس، ومنهم الداعية الذي يشتهر ببذله للناس، فيجتمعون حوله بما هداهم الله ﷻ به إلى الحق، ويشتهر من يؤدي الأمانة، ويشتهر من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهكذا . . .

ومقام الشهرة مقام مزلة عظيمة؛ لهذا ابن مسعود أوصى وصية على نفسه يبين فيها حاله، ويبين فيها ما يجب أن يكون عليه كل من كان له تبع، فيقول: **(لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان ولحثيتم التراب على رأسي)**.

لا بد فيمن كان على شهرة أو كان ممن ينظر إليه الناس أن يحتقر نفسه دائمًا بينهم؛ ويظهر ذلك، لا ليرتفع بينهم، لكن ليرتفع عند الله ﷻ، ومدار ذلك الإخلاص؛ فإن من الناس من ربما يزدري نفسه أمام الناس؛ ليظهر بينهم - وهذا من الشيطان -، ومنهم من يزدري نفسه بين الناس، والله ﷻ مطلع على قلبه أنه صادق في ذلك، يخشى لقاء الله ﷻ، يخشى يوم يوفَّى ما في الصدور، يوم يطلِع على ما القلوب، ولا تخفى على الله خافية، ولا يكتمون الله حديثًا، هذه عبرة من العبر التي يتنبه لها كل تابع وكل متبوع: أما التابع، فينتبه إلى أن هذا المتبوع يجب أن لا يعظم، وإنما يستفاد منه بما يبلغ عن الله ﷻ، أو بما ينفع به الخلق، وأما التعظيم، فإنما هو لله ﷻ، ثم لرسوله ﷺ، وأما باقي الخلق، فلهم - إذا صلحوا - المحبة في النفس، وينبغي على من اشتهر أن يكون دائمًا خاشعًا، ذليلًا، ذاكرًا ذنوبه، ذاكرًا مقامه بين يدي الله، ذاكرًا أنه ليس بأهل أن يطأ عقبه اثنان، وأن يتبعه اثنان.

لما مُدح أبو بكر الصديق رضي الله عنه بين الناس، وخطب بعد ذلك صح عنه - فيما رواه أحمد وغيره - أنه قال رضي الله عنه علنًا: (**اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون**)(١) ينبه الناس أن عنده ذنوبًا؛ حتى لا يغلو الناس فيه، فهل يستقيم هذا مع ما نرى من أحوال يزيد فيها المعظم تعظيمًا لنفسه، ويزيد فيها المعظِم تعظيمًا لمن عظمه واتبعه؟ ليس هذا من هدي الصحابة رضي الله عنهم.

عمر رضي الله عنه ربما أعجبته نفسه، وهو خليفة، وهو الذي بعد أبي بكر رضي الله عنه في التبشير بالجنة، فأخذ يحمل الشيء في السوق على رأسه؛ ليزدري نفسه؛ حتى لا تتعاظم نفسه.

ومن أبواب الخطايا: العجب والتعاظم، وهو: أن يرى المرء نفسه معظمًا، وكان من السلف الصالح من إذا أتى ليلقي شيئًا، فرأى الناس اجتمعوا تركهم، لم؟ لأن صلاح نفسه ألزم عليه من صلاح الناس، لما رأى هذا الجمع اجتمعوا، ورأى أن نفسه بدأت تعالجه في أن هؤلاء حضروا، وهؤلاء أنصتوا، وهؤلاء فعلوا، وأقبلوا علي، عالج نفسه بتركهم، سيقولون عنه ما يقولون، لكن الأهم أن يكون صالحًا قلبه فيما بينه وبين ربه، وصلاح

---

(١) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٦٤٦)، والعسكري كما في كنز العمال (١٢/ ٧٦٥)
وأخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧٦١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٤٢) عن عدي بن أرطأة رضي الله عنه: (**كان الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا زكي قال: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون**).
وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٧)، والفريابي في صفة النفاق (٩٤) عن عمر مولى عفرة رضي الله عنه.

قلبك أهم من صلاح قلب غيرك، فينبغي عند ذاك مجاهدة النفس في هذا المقام.

إذًا فهذه الوصية من ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: (**والله الذي لا إله إلا هو لو تعلمون عملي لحثيتم التراب على رأسي**)، نرجو أن يتذكرها كل من كان له بعض شهرة بين الخلق، سواء أكان معلمًا، أو عالمًا، أو قارئًا، أو آمرًا، أو ناهيًا، أو مسؤولًا في جهة، أو أميرًا، أو ملكًا . . . ، إلى آخره من أصناف الناس، ينبغي أن يكون مزدريًا لنفسه؛ حتى لا يتعاظم قلبه عليه، فيخسر الدنيا والآخرة.

هذه وصية، وهي وصية بليغة، تحتها معانٍ كثيرة، وفيما ذكرنا إشارات، وتحت الإشارات عباراتٌ، وتدبر، تجد ذلك.

تَحْتَ جَبَلٍ أَمْ عَلَى أَنْفِكَ ذُبَابٌ؟

والكلمة الثانية عن ابن مسعود رضي الله عنه: ما رواه البخاري في صحيحه[(١)] عنه رضي الله عنه، ورواه مسلم - أيضًا -[(٢)]، ولم يخرج لفظ كلام ابن مسعود، قال رضي الله عنه: (**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا، فذبه عنه**).

فمقام الناس في الذنوب مقامان: مقام المؤمن يذنب، ومقام الفاجر يذنب، المؤمن يعمل الطاعات، وهو وجِلٌ؛ قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا

(١) برقم (٦٣٠٨).

(٢) برقم (٢٧٤٤).

﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ما معناها؟ يعني: الذين يصلُّون، ويتصدقون، ويزكون، ويصومون، ويخافون ألا يتقبل منهم هذا في الطاعات، فكيف إذا أذنب ذنبًا؟! ماذا يكون حاله؟

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه**)، وهذه الحال التي ينبغي أن نكون عليها: أن نتعاظم أن نذنب في حق الله عز وجل، نذنب في التفريط في الفرائض، التفريط في الصلوات، التفريط فيما يجب في الصيام، التفريط في أداء الزكاة، التفريط في أداء حقوق الخلق، في المعاملات، في الكسب، في الغش، في أداء الأمانة، في معاملة الأهل، في معاملة الوالدين، في العقوق، في عدم الإتيان بالخيرات.

إذا ازداد علمك، فسترى أن لله عز وجل عليك في كل لحظة تتحركها أمرًا ونهيًا، إما أن يكون في عمل الجوارح، وإما أن يكون في عمل اللسان، وإما أن يكون في عمل القلب، في كل لحظة من حياتك لله عز وجل عليك أمر ونهي، حتى لو جلست ساكنًا، فالقلب إما أن يتحرك في معاصي القلوب من الكبر، ظن السوء، وأن يدبر مثلًا، أو أن يعمل عملًا يرتب له مما لا يجوز، أو يفكر كيف يأخذ ما ليس له بحق...، وإلى آخره، فهذه ذنوب تأتي بعد خاطر القلب، ومنها ذنوب قلبية لو لم يعمل مثل: ترك التوكل، مثل: ترك الصبر، مثل: العجب، مثل: الرياء، ...إلى آخره.

فلله عز وجل عليك في كل تحريكة لك وتسكينة له عليك أمر ونهي، ولا بد أن يقع منك الغفلة، والغفلة، والغفلة، فالمؤمن يكون خائفًا وجلًا، يرى ذنوبه

كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه؛ ولهذا يحذر الناس من ذنوبه، ومن أن يغتروا به، وأيضًا يحذر هو أن يختم له قبل أن يستغفر، يحذر أن يكون من الموسدين في الثرى قبل أن يحدث توبة واستغفارًا؛ فلهذا يكون المؤمن مع هذا الخوف على حذر شديد، يتبع ذلك الحذر كثرة الاستغفار؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**(١)، وفي المجلس الواحد: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»**(٢) ﷺ.

وهكذا كان حال الصحابة ﵃، هذا حال المؤمن حال الخوف، وهو يخاف الذنوب، ويرجو رحمة الله ﷻ.

أما الفاجر الذي يعمل بالمعاصي بلا حساب، فيقع في كبائر الذنوب، وفي الموبقات، وفي البدع، وفي ترك السنن، وفي الأخذ بالرأي وترك الأثر، وغير ذلك من الذنوب، وهو لا يشعر بها، بل كأنها ذباب مر على أنفه، فقال به هكذا.

المؤمن رحمه الله بأن الصلاة إلى الصلاة مكفرات لما بينهما، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما؛ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﵁: **«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»**(٣)، والعمرة إلى العمرة مكفرات لما

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني ﵁.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

بينهما؛ كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**»[١]، لكن بشرط أن تجتنب الكبائر؛ كما قال عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فشرط لتكفير السيئات أن تجتنب الكبائر، والصلاة إلى الصلاة مكفرات، لكن هل كل صلاة مكفرة؟ ليس كذلك، بل من الصلاة ما يفعلها العبد، ولا تكفر ذنوبه، كذلك من الصيام ما يصومه العبد - يعني: رمضان -، ولا يكفر ذنوبه، ومن العمرة ما لا يكفر به الذنوب؛ فلكل عبادة من هذه العبادات شرط في أن تكفر السيئات، فمثلًا في الصلاة ثبت عنه؛ كما أخرج أحمد من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «**مَنْ تَوَضَّأَ هَذَا الْوُضُوءَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا كَفَّرَتْ عَنْهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الْأُخْرَى مَا لَمْ يُصِبْ مَقْتَلَةً يَعْنِي كَبِيرَةً**»، وأصل الحديث في مسلم بلفظ: «**مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[٢].

كذلك الوضوء: تتقاطر مع الماء الذنوب؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٦٧) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأصله في مسلم (٢٢٨).

مِنَ الذُّنُوبِ»(١)، لكن كما قال ﷺ فيما صح عنه: «**مَنْ أَتَمَّ الْوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ**»(٢)؛ ولهذا من رحمة الله أن جعل الصلاة إلى الصلاة مكفرات، من الناس من يبقى عليه شيء، فلا تكفره صلاته، فيكفره رمضان، من الناس من لا يقوم له رمضان بتكفير ذنوبه، فتكفرها الجمعة إلى الجمعة، منهم من لا تقوم له الجمعة، فتأتي العمرة، فتكفر ما بينهما من الكبائر، فيكون المرء على وجل من فعل المعاصي، فكيف إذا كان يفعل الكبيرة؟! من الكبائر: الزنا، وشرب الخمر، والربا، والسحر، وهذه يتنكب عنها الصالحون، لكن ثم كبيرة يغشاها الصالحون، ومنهم من لا يشعر بها، أو يكون - كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في خصلة الفاجر: كذباب مر على أنفه فقال به هكذا -، وهذه الخصلة وقع فيها الأكثرون في هذا الزمن ألا وهي: الغيبة، والغيبة من الكبائر؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال العلماء: جعل الغيبة كأكل الميتة، وأكل الميتة كبيرة، فدل على أن الغيبة من الكبائر، كذلك النميمة والبهتان من الكبائر.

فالغيبة: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»(٣)، الصلاة إلى الصلاة مكفرات ما اجتنبت الكبائر، فهل نخاف أو نطمئن؟! الله المستعان، إذا لم تجتنب هذه الكبيرة، فالصلاة إلى الصلاة ليست بمكفرات، فكيف إذا ازداد على الغيبة أن تكون بهتانًا؟! والغيبة: ذكرك أخاك بما يكره، «**قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (١٤٤)، وابن ماجه (٤٥٩)، وأحمد (١/ ٥٧) من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَّهُ».

والبهتان أعظم إثمًا من الغيبة، فمن الناس من يغتاب، ويتكلم بلسانه، ولا يخاف، كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا، وهي أكثر ما تكون في الصالحين؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الصالحين يجتنبون كبائر الذنوب، مثل: الزنا، وشرب الخمر، والسرقة، ولكنهم يقعون في ذنوب اللسان والقلب)، فهو يتعاظم بقلبه، يتجبر، يتكبر، يمر به أحد، فيستصغر ذاك، ويعظم نفسه، ولو علم الحقيقة، لربما كان ذلك الذي ازدراه أعظم عند الله ﷻ منه.

فالمرء ينبغي أن يكون حسيبًا على نفسه، قد يجلس الناس مجالس طويلة يغتابون فيها، والغيبة درجات، وأعظمها: أن يغتاب من له الحق عليه من أهل العلم، ومن الوالدين، . . . ونحو ذلك: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَّهُ**»، والله المستعان، هذه ذنوب.

فتأمل هذه الكلمة، ولا تغتر بأنك صاحب طاعة، وتنظر إلى نفسك، وأنك. . .، ولا تحس بالذنوب التي تغشاها، وأنت لا تشعر لقصور علمك، أما المسلم أو المسلمة إذا علم أمر الله، فإنه سيكون في القلب الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا أذنب ذنبًا، كان القلب وجلًا خائفًا، لا يدري ما الله ﷻ يصنع فيما فعل من الذنب الذي قد يكون ذنبًا لسانيًا، وقد يكون ذنبًا قلبيًا، وقد يكون ذنبًا من ذنوب الجوارح.

إذًا هذه الوصية مدارها على أن تعظم أمر ذنبك، ولا تخفف أمر الذنب، فإذا عظمته، وكأنك قاعد تحت جبل تخشى أن يقع عليك، فإنك ستسعى إلى طلب المغفرة، ستسعى إلى التوبة، ستسعى إلى مفارقة الذنوب، وتلح على الله ﷻ أن يعفو عنك ويتسامح، وهذه عبادات تلو العبادات.

الصَّدِيقُ مِرْآةُ صَدِيقِهِ

الكلمة الثالثة من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: **(اعتبروا الناس بأخدانهم؛ فإن المرء لا يخادن إلا من يعجبه)**[١]، وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح المروي في السنن: **«الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»**[٢]، فقال ابن مسعود: **(المرء لا يخادن إلا من يعجبه)** يعجبه في تصرفاته، يعجبه في عقله، يعجبه في تفكيره، فإذا رأيت أحدًا يخادن أحدًا صديقًا له، ملازمًا له، محبًا له، فاعتبر هذا بذاك، فـ **«الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»**[٣]، فاعتبروا الناس بأخدانهم، وهذا يدل على ذاك.

فمن جهة الأعمال: إذا رأيت من يغشى المعاصي والكبائر، ورأيت من يصاحبه ويلازمه، فاعتبره بذاك، واخش عليه أن يكون مثل صاحبه؛ لأنه إما

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩١٩)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٣٨)، ورواه ابن بطة في الإبانة (٣٨١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنه لم يعلم بفعل صاحبه، وإما أنه علم، فرضي، ومن علم بالمعصية، فرضيها كان شريكًا لصاحبها في الإثم، إذا وجدت أن فلانًا سبابًا، شتامًا، كثير الغيبة، كثير الوقيعة، وتجد أن فلانًا كثير الصحبة له، لا يخالفه، ولا ينهاه، ولا يفارقه، فاعلم أنه شبيه به؛ لأنه رضيَ صنيعه.

الناس يتقاربون في العقول وفي التفكير، فإذا وجدت في عقل أحدهم محبة للعلم، ووجدت من يصاحبه، فتعلم أن من يصاحبه محبٌ للعلم، وإن لم يكن من أهل العلم، وإذا وجدت من يصاحب صاحب السنة، فتعلم أنه صاحب سنة؛ لأنه كما قال ابن مسعود ﷺ: (اعتبروا الناس بأخدانهم)، وإذا وجدت من يصاحب أهل الأثر، فهو محب للأثر ولأهله، وإذا وجدت من يصاحب أهل الرأي، ويلزمهم، فتعلم أنه محبٌ لهم، وأن له حكمهم، من أحب السنة، صحب أهلها، ومن أحب المحدثات، صحب أهلها و«**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**» كما قال رسول الله ﷺ.

فهذه وصية، وما وراء هذه الوصية بعد الاعتبار أن تعتبر نفسك، ليس المقصود أن تحكم على الناس، ولكن هذه عبارة لطيفة من ابن مسعود ﷺ حيث قال: (**اعتبروا الناس بأخدانهم**)، لكن إذا أردت أن تعتبر الناس، فلا بد أن تعتبر نفسك قبل أن تعتبر الناس، ولكن من الناس من لا يحب أن يواجه بالنصيحة والوصية، ولكن ابن مسعود ﷺ جعل هذا الموصى حكمًا على غيره، وإذا تأمل، وجد أن في العبارة أن يحكم على نفسه، فاعتبر نفسك بأخدانك؛ فإن المرء لا يخادن إلا من يعجبه.

إذا كان كذلك، فتأمل نفسك ومن تصاحب، هل تصاحب أهل الطاعة أم أهل المعصية؟ إذا وجدت من يأنس لأهل العصيان، ولو كان ظاهره

الطاعة، ففي الغالب أن نفسه من داخلها تنازعه إلى العصيان، ولو من طرف خفي، وإذا وجدت من يصاحب أهل العلم، وجدت أن نفسه تنازعه إلى العلم، ولو لم يكن من طلبته، وإذا وجدت نفسك تصاحب أهل السنة، فمعنى ذلك أن قلبك محب لها، وإذا وجدت نفسك تصاحب أهل المحدثات، وأهل الغيبة، وأهل النميمة، وأهل الوقيعة، فتعلم أن المرء على دين خليله.

فإذًا تبدأ مع نفسك بالإصلاح، فكلمة ابن مسعود هذه لنفسك ولغيرك، وهذه وصية تربوية جامعة دعوية، وكلٌّ حسيب نفسه، والله ﷻ يقول مخبرًا عن قول بعضهم يوم القيامة: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨].

اتهم الرأي وعليك السلامة، اطلب السلامة، لا تأخذ نفسك بالأماني، بل كن على حذر، وكن طالبًا للسلامة، لا طالبًا للهو واللعب؛ فإن الحياة ليست مدتها كافية للهو واللعب، وإن غشي اللهو واللعب الأكثرون، وإنما هي لمن عقل، ودان فقط لطاعة الله ﷻ، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

قِلَّةُ العُلَمَاءِ وكَثْرَةُ الخُطَبَاءِ

الكلمة الرابعة من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه التي أوصى بها الناس، وقد قال ﷺ: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**»(١)، وقال: «**رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد**»(٢)، قال ابن أم عبد - عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه -

(١) سبق (ص ٨).

(٢) سبق (ص ٨).

لأصحابه: (**إنكم في زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليلٌ علماؤه، كثيرٌ خطباؤه**)[١]، في زمن الصحابة ابن مسعود تُوفِّي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، قال لأصحابه ينبه ويربي: (**إنكم في زمان كثير علماؤه**)؛ لأن الصحابة متوافرون، (**قليل خطباؤه**) في كل بلد فيه مسجد واحد يخطب فيه العالم في البلد، قال: (**وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه**) العلماء قليل، تبحث عنهم، وهم قليل، ولكن الخطباء هم الذين يخطبون الناس، ويتكلمون فيهم، فيدخل فيه خطيب الجمعة، يدخل فيه المحاضر، يدخل فيه المدرسون، كل من يخطب، ويلقى كلامًا علنيًا على مجموعة من الناس، هؤلاء الخطباء، وفي هذا الزمن الخطباء على هذا المعنى كثير، ولكن العلماء - كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قليل، هل يقصد ابن مسعود بهذا الكلام أن يثقف أصحابه ثقافة مجردة عن العمل؟ يعني: الآن أنتم في زمن العلماء كثير والخطباء قليل، وسيأتي زمن الخطباء كثير والعلماء قليل، هكذا معلومة ليس وراءها عهد، ولا وراءها علم، ولا وراءها وصية؟ حاشا وكلا، فابن مسعود هو العالم الداعي المربي، قال هذه الكلمة؛ ليحذر الناس من الابتعاد عن طريق أهل العلم، وإتيان طريق الخطباء؛ لأن في زمنه العلماء كثير، ولكن الخطباء قليل، وأما في الزمن الذي يكون بعد زمنه سيأتيكم زمان قليل علماؤه، كثير خطباؤه.

وقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[٢]، فذكر ثلاثة قرون، وقال: «**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا**

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤٩٦)، وعبد الرزاق في المصنف (٣٧٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبَّكُمْ»[١]، وثبت عنه ﷺ أنه ليلة عرج به إلى السماء رأى أقوامًا من أمته تقرض شفاههم، ويعذبون، ففزع ﷺ وقال لجبريل عليه السلام: «**مَا هَؤُلَاءِ؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**»[٢]؛ ولهذا تجد أن أثر الكلام اليوم في النفوس قليل، لم؟ لأنه - كما قيل - إذا صدر الكلام من موفق مخلص، دخل القلوب بإذن الله، وأما إذا صار رياءً وسمعة، فإنه للذة، ولا يجاوز الآذان، يستلذ، كلام طيب جميل - ما شاء الله - وعجيب، ولكن هل أثر في حياة الناس؟ هل دخل في القلوب؟ ما دخل، ولا أثر، واليوم نحضر في خطب الجمعة، فيأتي أمر ونهي، وتذكر عظيم، لكن هل فزع الناس من هذا التذكير؟ هل قبلوا؟ القليل من يقبل، والأكثرون لا يقبلون، ومن أسباب ذلك المستمع، فما المخرج؟

وصية ابن مسعود رضي الله عنه وعهده أن تهتم بالعلماء، وأن تذر الخطباء، يعني أن التوجيه والعهد والوصية والعلم تأخذها من أهل العلم، أما الخطباء، فهم كثير، ولكنهم غير العلماء، فالعالم موصوف بالعلم، والخطيب موصوف بالخطابة، ولما غاير بين الخطباء والعلماء دلنا على أنه يريد العلماء غير الخطباء.

وإذا نظرنا إلى هذا الكلام، وتأملنا الواقع اليوم، وجدنا أن سماع الناس لكلام الخطباء أكثر من سماعهم لكلام العلماء، ولهذا قد يغفل الناس عن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٣)، وأحمد (٣/ ١٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٧٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

السنة من جراء ذلك؛ فإن اهتمام العالم في البيان غير اهتمام الخطيب، وأثر العالم في النفس غير أثر الخطيب؛ لأن هذا وريث النبي ﷺ، أعني العالم؛ كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١)، وأما الخطيب، فهو وريث الخطباء.

إذًا كلمة ابن مسعود رضي الله عنه هذه توجيه إلى أن يكون اهتمام العبد الذي يطلب نجاته بأهل العلم، لا بالخطباء الذين يحاضرون، ويلقون، أو يعلمون، أو يخطبون الجمع، أو...، إلى آخره، فإن هؤلاء إن كانوا علماء، فعليك بهم، وإن كانوا ليسوا بعلماء، فاحذر، واعرض كلامهم على أهل العلم، فما كان من حق فيه، فيقبل، وما كان من باطل فيه، فيرد؛ لأن الذين ورثوا النبوة إنما هم العلماء، وليسوا الخطباء.

لا تَكُنْ رَأْسًا فِي الضَّلالَةِ

الكلمة الخامسة من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه: قال لأصحابه محذرًا، وموصيًا، وعاهدًا إليهم، بل وإلى أمة محمد ﷺ، قال: (**إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة، فإن الرجل ليكون تابعًا في الخير خير من أن يكون رأسًا في الضلالة**)(٢).

ابن مسعود رضي الله عنه توفي سنة اثنتين وثلاثين، قبل فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٣٧١)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٧٧).

وقبل أن تبدأ الخلافات بعد مقتله، وما حصل لعلي ﷺ، وما بينه وبين معاوية ﷺ، إلى آخر ما حدث، وبداية الفرقة في الأمة، وبداية الأقوال، وبداية الأخذ والرد، وتنوع الأفكار والأفهام، قال لأصحابه وللأمة من بعدهم قال: (**إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة، فإن الرجل يكون تابعا في الخير خير من أن يكون رأسًا في الضلالة**)، ستكون أمور مشتبهات . . .، ما معنى المشتبهات؟

العلم نوعان:

١ - محكم. ٢ - ومتشابه أو مشتبه.

المحكم: ما تعلمه حقًا بدليله، أو تعلمه حقًا من كلام أهل العلم الراسخين المؤتمنين على كلام الله ﷻ وعلى كلام رسوله ﷺ، هذا نوع من العلم محكم، وهو الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، هذه المحكمات الواضحة البينة التي علمتها، وعلمت ما فيها من المعنى، وأخذتها، لكن هناك أمور مشتبهات تحدث في الناس، ولا يجوز لك أن تنساق في المشتبهات والمتشابهات وفق رأيك وهواك، بل لا بد أن ترد المشتبهات إلى الشرع وإلى الدين: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فلا خير إلا دلّنا عليه رسول الله ﷺ، ولا شر إلا حذرنا منه.

فماذا تفعل إذا أقبلت المتشابهات؟ قال ﷺ مبينًا كيف تكون عند ورود المتشابهات: (**إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة**)، هذه الوصية: (**عليكم بالتؤدة**)، يعني: الزموا التؤدة، الزموا الرفق، والتؤدة هي الأناة.

والنبي ﷺ أثنى على أشج عبد القيس، فقال: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»(١)، يحبهما الله ورسوله، التؤدة والأناة والرفق محبوبة لله ﷻ ولرسوله ﷺ؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(٢).

وقد دخل رجل يهودي إلى بيت النبي ﷺ، فقال للنبي ﷺ: (السام عليك) والسام يعني: الموت، فقال النبي ﷺ: «**وعليك**»، سمعت عائشة رضي الله عنها هذا الكلام فغضبت لرسول الله ﷺ، فقالت لليهودي: وعليك السام واللعنة، فقال لها ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ**»، فقالت: يا رسول الله ألم تسمع إلى ما قال؟ قال: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**».

وقد ثبت - أيضًا - في صحيح مسلم وفي غيره أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(٣)، وثبت عنه - أيضًا - ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ**»(٤).

هذه وصية ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (**إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة**) أمور مشتبهات في الأقوال، أمور مشتبهات في الواقع، في أحوال

---

(١) أخرجه مسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم، واللفظ له (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٠٧)، والدارمي (٢٧٩٣)، وأحمد (٤/ ٧٨) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

الناس، فماذا ينبغي؟ ما الوصية؟ الرفق، وهذه وصية ابن مسعود الذي قال فيه ﷺ: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**»، قال: (**فعليكم بالتؤدة**)، إذا ابتدأت المشتبهات التي لا تدري كيف ترجعها، ولا تدري هل تفعل فيها كذا؟ أو تفعل فيها كذا؟ لا تدري ماذا تقول فيها، فماذا تعمل؟ عليك بالتؤدة؛ لأنه لا يجوز لك أن تتصرف تصرفًا إلا عن علم، إذا تصرفت على جهل، فأنت حسيب نفسك، وتصرفك عليك، لكن لا يجوز أن تتصرف إلا بعلم؛ لأن العلم به النجاة، والجهل أودى الناس بالهلاك، فعليك بالتؤدة، يعني: تأنَّ، فلا تتكلم إلا بكلام تعلم حسنه في الشرع، وإصابته في الشرع، فإن كنت عاميًا أو طالب علم، فاسأل أهل العلم الراسخين فيه، يبصرونك فيما ترى، فإذا ساقوا الأدلة على قولهم، فإنك تعتقد الحق بدليله، فإذا أتى من يقول لك فكرة غريبة، أو من يقول كلامًا جديدًا على سمعك، لم تسمعه من قبل، فماذا تتصرف؟ هل تقبله هكذا، أو تتئد، وتترفق حتى تسأل أهل العلم، وحتى تكون فيما تقبل، وما لا تقبل سائرًا على وفق العلم؟

وصية ابن مسعود رضي الله عنه: (**عليكم بالتؤدة**)، فإذا قيل لك كلام غريب تتئد، وتتأنى، وتترفق، فلا تقدم على شيء من تصديق قول أو من تكذيبه، أو من اعتقاد شيء أو نفي اعتقاده، أو من عمل ومسارعة في شيء أو بعد عنه إلا بعد الترفق، والتأني، والتأمل، والفتن إذا أقبلت، تشابهت، وإذا أدبرت، عرفها كل أحد؛ كما قال السلف: إذا أقبلت تشابهت، ما تدري هذه تشبه هذه، وتشبه هذه، وتشبه المشروع، وهذه لا تشبه، تشتبه على الناس؛ لأنها مقبلة، ولكن إذا أدبرت، وانتهت، عرفها كل أحد، لكن من يعرفها حين تقع؟

إنما يعرفها أهل العلم الراسخون، الذين هم ليسوا بأهل الزيغ، قال الله ﷻ في كتابه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، الذي في قلبه زيغ يتبع المتشابه، وأما الراسخ في العلم، هو الذي يعلم تأويله؛ قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] على أحد الوجهين في الوقف أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل ما اشتبه على أكثر الناس؛ لأنهم راسخون في العلم، فإذا أتت الأمور المشتبهات، فوصية ابن مسعود ﵁ أن يكون المرء متئدًا مترفقًا، وقد قال معللاً لماذا؟ قال: **(فإن الرجل يكون تابعًا في الخير، خير من أن يكون رأسًا في الضلالة)**، إذا أقبلت الأمور المتشابهة: إما أحوال في المجتمع، وإما في بيت، وإما في مجلس، أو في عمل، يأتي من الناس من يغلي قلبه، يريد أن يكون رأسًا فيها ومتقدمًا فيها، وآخر يتأنى، أيهما يحكم لفعله بالحسن؟ قال ابن مسعود ﵁ **(فإن الرجل يكون تابعًا في الخير)**، تكون تابعًا، ليس المقصود أن تكون متبوعًا، أن تكون رئيسًا، أن تكون رأسًا، لا، المقصود أن تكون محصلًا للخير؛ فإن الرجل يكون تابعًا في الخير خير من أن يكون رأسًا في الضلالة؛ لأن الأمور المتشابهة إذا أقبلت، فإنك إذا أتيتها ربما كانت عاقبتها إلى ضلالة؛ لأنك دخلت فيها دون معرفة شرعية صحيحة.

والعلة أن تكون تابعًا في الخير خير من أن تكون رأسًا في الضلالة؛ لأن المحاسبة يوم القيامة على ما عملت، لا على هل كنت رأسًا أم كنت تابعًا؟ ومن عباد الله من يحتقر، فلا يشفع، ولا يؤبه له، ولكن لو أقسم على الله لأبره.

نسأل الله الكريم من فضله، لعل هناك بقية وصايا، لكن نكتفي بهذا القدر ساعة من الزمان، ووصيتي لنفسي، ولست بخيركم، ولكم جميعًا أن نستمسك بعهد ابن أم عبد؛ لأن النبي ﷺ هو الذي أوصانا بذلك.

ثم الوصية الأخرى: أن تتدبر كلمات السلف، أقبل على كلمات السلف، وتأمل هذه الكلمات، لا تمر عليها مرَّ عجلٍ، لكن قف عندها وتأمل، ماذا يدل عليه الكلام؟ تدبر، والتدبر فيه الخير، وأما العجلة، فيحرم معها المرء كثيرًا.

أسأل الله ﷻ أن يفقهني وإياكم في دينه، وأن يغفر لنا ذنوبنا - وما أعظمها! -، وأن يعفوَ عن زلاتنا، وأن يختم لنا برضاه، وأن يجعلنا من الذين إذا سمعوا، عملوا، وإذا عملوا، أخلصوا.

هذا ورضي الله عن صحابة نبيه ﷺ، رفع الله لهم المقام في الآخرة، كما رفع لهم المقام في الدنيا، وغفر لنا، وجعلنا معهم في الآخرة، وحشرنا تحت لواء محمد ﷺ، وأسأله أن يثيبكم على حسن الاستماع، وأن يجزل لكم المثوبة، وأن يتقبل منكم الصيام والقيام، وأن يزيدكم من الخير، وأن لا يكلكم إلى أنفسكم طرفة عين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة عهد ابن أم عبد رضي الله عنه الثانية بمسجد شيخ الإسلام بسلطانة بالرياض

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، الحمد لله الذي له أنواع المحامد، وهو المستحق لأنواع الثناء، سبحانه من إله عظيم ذل له أولياؤه، وتكبر عنه الأشقياء.

سبحانه وتعالى ننزهه عن جميع ما لا يليق بجلاله وعظمته، عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك في الربوبية والألوهية، والشريك على الكمال في الأسماء والصفات، والشريك في الأفعال التي تكون موافقة للحكمة في كل شيء، وفي الشرع والقدر، وفي الأمر والنهي، وفي كلامه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. كلمة حق قامت عليها الأرض والسماوات، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فترك هذه الأمة على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده صلى الله عليه وسلم إلا هالك، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آل نبينا محمد، وعلى صحبه، وعلى زوجاته، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أسأل الله ﷻ لي ولكم الهدى والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يجعلنا من الموفقين، وأن يباعد بيننا وبين سبيل المخذولين.

هذا الدرس في موضوعه تتمة لدرس سابق في هذا المسجد، في إحدى ليالي رمضان الماضي، وكان بعنوان) وقفات مع كلمات لابن مسعود رضي الله عنه (أو سمه إن شئت (عهد ابن أم عبد)، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ أوصى باتباع عهد ابن أم عبد، وقال ﷺ: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**»[١] في أحاديث ذكرناها فيما مضى، فهذه الكلمات التي نسوقها لأحد صحابة رسول الله ﷺ المهاجرين إنما هي للتفقه، وإنما هي للعلم والتربية، والنظر في ذلك؛ لأن أكمل المربين تربية من هذه الأمة هم صحابة رسول الله ﷺ؛ فهم الذين درسوا، وعلموا، ودعوا التابعين، وكانت نتائج تربيتهم ودعوتهم فائقة رائقة، أخرج الله ﷻ بهم الجم الغفير من الظلمات إلى النور.

هَذِهِ القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ

من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه التي نقف معها أنه قال: (**إنما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره**)[٢].

قوله: إنما هذه القلوب أوعية، وهذا حصر، وهذا الحصر صحيح؛ لأن القلوب هي كالوعاء، فما جعلته فيه انبثق عنه، والألسنة مغارف للقلوب،

(١) سبق (ص ٨).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

لا يظهر على لسان أحد كلام إلا وقد غرفه من قلبه، فبقدر ما يكون في القلب من العلم أو من غيره يكون مغروفًا باللسان، ويكون مسيطرًا على الفكر، ويكون مسيطرًا على الفهم والتصرفات، ولا شك أن الله ﷻ أنزل هذا القرآن؛ ليهدي به الناس، فهو كتاب منير يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وقوله ﷻ هنا: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يعني: أكمل السبل، وأقوم السبل، وأقوم الطرائق في جميع ما يحتاجه العباد، بما يصلح قلوبهم، وما يصلح جوارحهم وألسنتهم، وفي تصرفاتهم في الحياة، وفي عبادتهم، وفي تنظيماتهم، وفي أمورهم المالية، وأمورهم الاجتماعية، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.

وابن مسعود رضي الله عنه أوصى، فقال: (**إنما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن**)، إن الوعاء لابد أن يمتلئ، والناس في هذه الحياة الدنيا إذا امتلؤوا من شيء؛ فلأنهم سمعوه، أو قرؤوه، أو نظروا فيه.

فالنظرة مؤثرة في القلب، والسماع مؤثر في القلب، والقراءة مؤثرة في القلب، وأنواع الرؤية مؤثرة في القلب؛ ولهذا إذا امتلأ القلب من القرآن، فإنه إن جاءه حق يوافق ما في القرآن، فسيقر في القلب على الصواب، وأما إن أتاه ما ليس بحق، إن أتاه باطل من جهة الشهوات، أو من جهة الشبهات، فإن القلب الذي امتلأ بالقرآن يرد الباطل، يقبل الحق، وإذا عرض له شيء من الباطل، فسرعان ما يحرقه نور القرآن، بهذا ابن مسعود رضي الله عنه قال: (**فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره**)؛ لأن القلب إنما هو لما انشغل به،

هذه وصية بالقرآن، وصية بحفظه، وصية بتدبره، وصية بتلاوته، وصية بتأمله ومدارسته.

ولا شك أن الناس إنما يشرفون، وتعظم أحوالهم أفرادًا وجماعات بمقدار ما استمسكوا بهذا القرآن، فكلما كان استمساكهم بالقرآن أعظم، كانت درجتهم أرفع عند الله ﷻ؛ لأن القرآن هو حبل الله المتين، وهو صراطه المستقيم، الذي من أخذ به نجا، ومن تخلف عنه هلك، اشغلوا القلوب بالقرآن، حتى تمتلئ به، ولا تشغلوها بغيره.

القرآن هو الأنيس، القرآن هو المؤنس في الخلوات، هو الذي ينير القلب، هو الذي يكون به العبد يوم القيامة في رفعة من الدرجات، القرآن حفظًا وتلاوة له عند من يحبه الدرجة العظيمة التي لو تخلف عنها يوم واحد، لآنس من قلبه تغيرًا، وآنس من قلبه شيئًا من الكدر؛ لهذا شغل النفس بالقرآن، وانشغال القلوب بالقرآن أمر عظيم تربويًا، وعظيم في تزكية النفس ولهذا قال ﷻ في وصف كتابه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله: القرآن، وقال ﷻ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، والصراط المستقيم هو: القرآن، وهو: السنة، وهو: الإسلام، من الناس من يمر عليه أحوال وأيام لا يقرأ القرآن فيها، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يمر عليه يوم إلا وينشر المصحف، وينظر فيه، حتى ولو كان المرء حافظًا لكتاب الله، فإنه يستحب له أن ينظر في المصحف كل يوم، لا يخالف ذلك، والقلب إذا امتلأ من القرآن حفظًا وتدبرًا وتأملًا، كان في ذلك الخير،

وإذا لم يكن حافظًا، فعليه بكثرة التلاوة، وما أحسن قول الشاطبي رحمه الله في أول ألفيته في القراءات[(١)] قال:

وإنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وأَغْنى غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلاَ

وخَيْرُ جَلِيسٍ لاَ يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاَ

وَحَيْثُ الْفَتى يَرْتَاعُ في ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ ٱلقَبرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلاَ

هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً ... وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزّ يجتُلَى

يُنَاشِدُه فِي إرْضَائِهِ لحبِيبِهِ ... وَأَجْدِرْ بِهِ سُؤْلًا إِلَيْهِ مُوَصِّلاَ

نعم إن القارئ للقرآن لابد له أن يتدبر، والهذُّ نهى عنه ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: «**لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثِرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ**»[(٢)]، وهكذا يجب أن يتدبر المرء القرآن: ينظر في الآية، ويتأمل: ما موقفه هو؟ ما حياته؟ ما اتصاله حين يقرأ هذه الآية؟ ما صلة هذه الآية بحياته؟ ما صلتها بما يفعل؟ إذا نظر وتأمل في آية فيها أمر، نظر في حياته: هل طبق، أم لم يطبق؟ هل امتثل، أم لم يمتثل؟ إذا نظر في نهيٍ، فإنه ينظر في حاله وحال من حوله؛ ولهذا ابن القيم رحمه الله قال: (**إن أنفع ما يكون لقارئ القرآن حين يقرأ القرآن أن يستحضر أن الله عز وجل يتكلم بهذا القرآن، وأن جبريل يسمعه منه، فينزل به من الرب الجليل العظيم عز وجل، ثم يلقيه على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا هو صلى الله عليه وسلم يبلغ الناس به: (﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾...،**

(١) انظر: حرز الأماني (ص١٥).

(٢) سبق (ص ٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ . . . ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ . . . ، **إلى آخر ما هنالك)**[١] .

اللهُ يُنَادِيكَ

قال ابن مسعود رضي الله عنه : **(إذا سمعت في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنها إما خير تؤمر به، وإما شر تحذر منه)**[٢] .

إذًا فالعناية بالقرآن هي وصية النبي ﷺ ووصية ابن مسعود، والناس في القرآن درجات: منهم من يقرؤه قراءة أماني؛ كحال أولئك الذين قرؤوه أماني؛ قال الله عز وجل فيهم : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨] يقرؤونه أماني، لا يفقهون ما فيه، فالواجب على الناس أن يتدبروا القرآن، وأن يتأملوه؛ لأن الله عز وجل أمرهم بذلك، فقال عز وجل : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال عز وجل : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال الله عز وجل : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، دلت هذه الآية - آية سورة محمد ﷺ - أن من لم يتدبر القرآن، فإن على قلبه قفلًا، وهذا صحيح، إن من الناس من يقرأ القرآن، لكن لا يستحضر أنه ينبغي له أن يفهم معانيه، فيمر بالآية مرة ومرتين وثلاثًا،

---

(١) انظر: الفوائد (ص٣) قال ابن القيم رحمه الله : (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألقِ سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فانه خطاب منه لك على لسان رسوله).

(٢) سبق (ص ٨).

وهو لم يشغل قلبه بمعرفة معناها، يسمع الإمام يتلو آيات، وتمر على ذهنه - خاصة في المفصل، فيما يقرأ كثيرًا -، ولا يفهم بعض المعاني، ولا يتحرك إلى أن يعلم معاني تلك الآيات، ولاشك أن هذا قصور وانشغال عن القرآن بغيره.

إذًا فالانشغال بالقرآن في وصية ابن مسعود ﵁ انشغال بحفظه، انشغال بمدارسته، انشغال بمذاكرته، انشغال بتدبره ومعرفة معانيه، وكل ما كان في سبيل القرآن، وتفهمه ودراسته، فإنه مأمور به؛ لأن القرآن هو الإسلام؛ ولأن القرآن هو الحجة على العالمين إلى قيام الساعة، قال ﵁: (**ولا تشغلوها بغيره**) غير القرآن كلام الخلق، والقرآن كلام الخالق ﷻ، فهل يتساوى في قلب أحد كلام من خلق السماوات والأرضين، وصور الإنسان وصور الكائنات مع كلام المخلوقات؟ لا تشغلوها بغيره، فإذا انشغلت بغيره، فإن القلوب ستمتلئ من ذلك الغير، قد يمر عليه يوم، ولا يقرأ القرآن، وتسأله لم؟ فيقول: أنا مشغول، لم أنت مشغول؟ وفيم أنت مشغول؟ في أمور الحياة، وفي الحقيقة تجد أنه ربما طالع جريدة ساعة أو ساعتين، أو ربما قرأ في مجلة ساعة أو ساعتين، ونصيب كتاب الله ﷻ من قلبه في يومه وليلته قليل، وهذا لاشك أنه مما لا ينبغي، ومما تركه أولى؛ لأن القرآن حثنا، والرسول ﷺ حثنا على أن نقرأه، وأن لا نترك ختمه فوق الأربعين.

إذًا القلوب أوعية، فإذا امتلأت بالقرآن، امتلأت بأوامره ونواهيه، وأفرزت، وظهر على العبد ما يأمر به الله ﷻ في كتابه.

وإن انشغلت بغير القرآن، فإنه يظهر عليها في تصرفاتها، في أحوالها، في

آرائها، في أفكارها ما يكون من قبيل الفهم والرأي، ولا يكون من قبيل تحكيم القرآن على النفس وعلى القول والعمل، هذه وصية، وهي وصية عظيمة جليلة: (**اشغلوا القلوب بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره**).

من الحسن، بل من المطلوب أن تحفظ كل يوم - إن لم يتيسر لك حفظ الكثير - أن تحفظ بضع آيات: خمس آيات، ست، سبعًا كل يوم، وستحصل بعد زمن حفظًا كثيرًا، وتردد ذلك، وتتأمله، وتتدبره.

اسْتَمِرَّ فِي القَرْعِ ولا تَمَلَّ

من وصايا ابن مسعود ﷺ ومن كلماته أنه قال: (**إنك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يكثر قرع باب يفتح له**)[1] إنك ما دمت في الصلاة، فأنت تقرع باب الملك الديان، ملك الأرض والسماوات، الذي هو على كل شيء قدير، وإذا أدمنت القرع، وأدمت ذلك، فإنه يوشك أن يفتح لك، هذا الأثر رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في السنن الكبرى، وغيرهما، هذا من ابن مسعود تعظيم لشأن الصلاة، وقد قيل له: إن فلانًا يطول الصلاة، يعني: صلاته لنفسه. قال: إن الصلاة لا تنفع إلا لمن أطالها قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، الصلاة التي تقام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لا شك أنها تفتح للمرء

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ٤٨٦)، وأبو النعيم الحلية (١/ ١٣٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٤٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢٣).

أبوابًا من الخيرات، من غشيان المعروف، ومن ترك المنكر، وما دمت في الصلاة، فأنت تقرع باب الملك الديان.

هذا القول من ابن مسعود ﷺ فيه تنبيه إلى أن الذي يطيل الصلاة لا يمكنه أن يطيلها إلا إذا كان يعقل ما يقول؛ لأنك ما دمت في الصلاة، فأنت تقرع باب الملك، ولاحظ أن قوله: (فأنت تقرع باب الملك) أن فيه تشبيهًا بمن يقرع الباب، ويتكلم، والذي يقرع الباب ويتكلم مركز فيما يقول، مستحضر لما يقول؛ لأنه يريد أن يدخل، فشغله الشاغل في أن يفتح له، وهذه حال المتدبرين لما يقولون.

كثير من الناس لا يتدبرون ما يقولون في الصلاة، ومن العجب أن يكون المرء كثيرًا ما يصلي الفرائض والنوافل، وإذا سألته عن معاني ما يقول وما يناجي به الله ﷻ، لم يحسن من ذلك إلا القليل، إذا سألته عن معاني التسبيح، ما درى ما يقول، لم كانت هنا سبحان ربي العظيم؟ ما معنى التسبيح؟ سمع الله لمن حمده، ما معنى السماع هنا؟ سبحان ربي الأعلى، التحيات لله والصلوات والطيبات، ما معنى ذلك؟ كثير من الخلق، - يعني: من المسلمين - يقرؤون هذا، حفظوه، ويتلفظون به، دون علم بمعانيه، وهذا لا شك أنه يفوتهم فيما يقولون الخشوع في الصلاة؛ لأن الخشوع في الصلاة فرع عن التدبر، وقد ثبت في السنن والمسانيد أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»**(١)، قال العلماء: سبب ما فات من أجر الصلاة

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦١٢)، وأحمد (٤/ ٣٢١) من حديث عمار بن ياسر ﷺ.

هو ما فات من الخشوع، والخشوع في الصلاة ليس بواجب، هو مستحب، الطمأنينة ركن، والخشوع بمعنى خشوع القلب، وخشوع الجوارح مستحب إلا إذا كانت حركة جوارحه تخرجه عن هيئة الصلاة، فهذا يكون مبطلًا لها، لكن الخشوع في أصله مستحب، والناس يتفاوتون فيه، ما السبيل إلى الخشوع في الصلاة؟ السبيل إليه: أن يكون المرء متدبرًا لما يقول، هل يتدبر ما يقول دون أن يعلم؟ لابد إذًا من العلم، العلم بما تقول، معاني الفاتحة، هذه السورة العظيمة ما معانيها؟ كثير من الناس يفتتح الصلاة، فيقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، فما معنى ذلك؟ ما معنى: وتعالى جدك وتبارك اسمك؟ يقول كلامًا يردده، ولا يحسن ذلك؛ ولهذا نقول: إن اثنين يقفان في الصلاة، وبين هذا وهذا من فقه الصلاة ومن الأجر فيها كما بين المشرق والمغرب، والصلوات درجات.

تأمل ذلك الصحابي الذي قال: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**»، فلما انصرف ﷺ من الصلاة قال: «**مَنْ الْمُتَكَلِّمُ؟ قَالَ: أَنَا. قَالَ: رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا؛ أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**»[١]، هل هذا يحصل لكل أحد؟ لا يحصل لكل أحد، كلمة عظيمة من قلب وعى ما يقول، فعظم به الرب ﷻ، فوافق اللسان في ذلك القلب، هذا لا شك يحتاج إلى تأمل.

قال الوزير ابن هبيرة صاحب كتاب الإفصاح في معاني الصحاح: (لقد

(١) أخرجه البخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه.

تأملت وجه كون الملائكة الذين ابتدروها ليرفعوها بضعة وثلاثين ملكًا، لم لم يكونوا عشرين، أو عشرة، أو خمسين؟ قال: فلما تأملت وجدت أن عدد حروف تلك الكلمات بضعة وثلاثين حرفًا بالمشدد، حتى تأملت، وكأني أنظر إلى الملائكة يزدحم الملك مع الملك في الحرف المشدد؛ لأن الحرف المشدد عبارة عن حرفين حرف ساكن ومتحرك، قال: فتأملت فكأني أنظر بالملكين يبتدران الحرف المشدد كلٌ يريد أن يأخذ نصيبه من ذلك الحرف المشدد)، هذا لا شك أنه من المقامات العظيمة، إنما هذا لمن وعى وتدبر القرآن، من وعى وتدبر ما يقول.

إذا صليت الصلاة، إذا صليت الآن، وقلت: التحيات لله والصلوات والطيبات، ولم تفقه معناها، فبادر الليلة، إذا قلت: سبحان ربي العظيم، ما تعرف معنى التسبيح، سمع الله لمن حمده، ما تعرف معاني الحمد، فبادر، وابحث؛ فإن هذا من العلم الجزيل، وبه تحصل الفضيلة التي قالها ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الوصية: (إنك مادمت في الصلاة، فأنت تقرع باب الملك، ومن يكثر قرع باب الملك يفتح له)، إذا فتح لك، فأين تدخل؟ إنك تدخل إلى معية الله عز وجل لعبده، المعية الخاصة بتوفيق الله وإعانته وتسديده، وهذا كله إنما يكون لمن أدام الصلاة، وكان دوامه في الصلاة دوام فقيه فيها.

العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ

قال ابن مسعود رضي الله عنه - أيضًا - فيما رواه عنه أبو الأحوص قال: **(قال عبد الله: إن الرجل لا يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم)**(١)، الرجل لا يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم، وهذا كأنه مأخوذ من حديث النبي ﷺ أنه قال: **«إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقه»**(٢) (حديث صحيح)، إن الرجل لا يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم.

لا شك أن فضيلة العلم عظيمة، لكن هل يحصل هكذا بالولادة؟ أم لابد من التعلم والمجاهدة؟ من الناس من يروم أن يكون متعلمًا عالمًا أو طالب علم، هكذا بحديث ليل أو بحديث نهار، وهذا لا يحصل أبدًا؛ لأن الأشياء منوطة بالهمة والاجتهاد: **«إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقه»** أنت لا تولد عالمًا، وإنما تولد وعندك أدوات الاستعداد للعلم؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، هذه وسائل الإدراك، وسائل تلقي المعلومات:

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص (١٦٢ - ١٦٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٨٤)، وأبو خيثمة في العلم (١١٥).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٣٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

السمع، والأبصار، والأفئدة، الفؤاد تعقل به، والسمع تسمع به، والبصر تبصر به، فهذه وسائل الإدراك، أقام الله ﷻ عليك الحجة بالسمع والبصر وبالقلب، فتتعلم بهذه، فتكون وسائل، وتكون طرقًا لتحصيل المعرفة، وتحصيل العلم.

إذًا فالعلم إنما يكون بالتعلم، في هذا الزمن من العجيب أن نري كثيرًا من الناس انصرف عن العلم، مع أن العلم في هذا الزمن أسهل من أي زمن مضى، يمكن أن تسمع العلم وأنت في المسجد، يمكن أن تسمع العلم وأنت في السيارة، يمكن أن تسمع العلم وأنت مستلق على فراشك، يمكن أن تسمع العلم وأنت تأكل، ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا دخل الخلاء جعل ولده يقرأ عليه خارج الخلاء، خارج البيت يعني: خارج الحمام، ما يريد أن يفوت شيئًا، عندك اليوم أنت في كل لحظة يمكن أن تسمع علمًا، وعقول العلماء وعقول المشائخ وألفاظهم سجلت، وهي عندك، يمكنك أن تحملها في أي مكان، ولكن يحتاج من العبد، يحتاج من الرجل إلى إقبال، يحتاج من المرأة إلى إقبال إلى ذاك، (وإنما العلم بالتعلم).

العلماء ليسوا طائفة مخصوصين خلقهم الله ﷻ لذاك، ولا يحصل إلا لهم، لا، لكن من تعلم، علم بقدر ما كتب الله ﷻ له من ذلك.

وهناك قصة ذكرتها عدة مرات، وهي: فيما رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع[1] أن أحد رواة الحديث طلب العلم - علم الحديث والرواية -، فلم يدرك شيئًا، أو أدرك شيئًا قليلًا، ورأى

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ١٧٩).

الناس يمرون، وقد حصلوا علمًا جزيلًا، فقال: أنا لا أصلح لهذا العلم، فتوجه إلى غيره، قال: فمررت يومًا فإذا بماء ينسكب ويتقاطر من على صخرة، وتحته حجر، وقد أثر فيه حفرًا، قال: فوقفت متدبرًا متأملًا، فقلت: هذا الماء على لطافته أثر في هذا الصخر على كثافته، يعني: على غلاظته وعلى قسوته، هذا الماء على لطافته أثر في هذا الصخر على كثافته، فليس قلبي بأقسى من الصخر، وليس العلم بأرق وألطف من الماء، فرجع وطلب الحديث، حتى صار من المشهورين ومن علماء الحديث أو من الرواة المعروفين، لاشك أنه لابد من أخذ العلم شيئًا فشيئا؛ كما قال القائل[(١)]:

الْيَوْمَ عِلْمٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِنْ نُخَبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطْ

يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطْ

تأمل في كل شيء عبرة، تأمل (السيل اجتماع النقط)، إذا نظرت إلى واحدة السيل، واحدة المطر واحدة كيف؟ قطرات تأتي، هل يمكن أن تسيل أودية أو أنهارًا؟ إنما السيل اجتماع النقط، فإذا اجتمع عندك خير، واحدة تلو الأخرى، فإنك تحصل مع الزمن خيرًا كثيرًا من العلم، وإنما العلم بالتعلم، هنا قضية مهمة، وهي أن العلم قد يرومه بعض الناس باستعجال، والعلم لا يصلح بالاستعجال، وإنما يطلب على مر الأيام والليالي، قال ابن شهاب الزهري الإمام المعروف: (**من رام العلم جملة، ذهب عنه جملة،**

---

(١) القائل هو: محمد بن إبراهيم بهاء الدين بن النحاس (٦٩٨ هـ)؛ كما في بغية الوعاة للسيوطي (١/ ١٤).

ولكن يطلب العلم على مر الأيام والليالي)[١] العلم ليس للصغير دون الكبير، نعم، العلم في الصغر كالنقش في الحجر، ولكن الكبير - أيضًا - يحصل العلم، والصغير إذا كبر، ولم يواصل العلم، فإنه يفوته، ويذهب عنه العلم؛ لهذا رئي الإمام أحمد، ومعه على كبر سنه محبرة وأوراق، فقيل له: يا أبا عبد الله، وأنت في هذا السن، ومعك المحبرة؟! فقال كلمته المشهورة: **(مع المحبرة إلى المقبرة)**[٢]، ومن كلماته المشهورة قال: **(اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد)**، من المهد يعني: من أول لحظة، هل يمكن ذلك أنه من وأنت في المهد تطلب العلم؟ هذا من المبالغة في شدة الاستمساك بذاك، إنما العلم بالتعلم؛ كما قال ﷺ، وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: **(إن الرجل لا يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم)** روى هذه الكلمة ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.

ذِكْرُ الحَدِيثِ حَيَاتُهُ

كلمة أخرى لابن مسعود في هذا المعني قال: **(تذاكروا الحديث؛ فإن ذكر الحديث حياته)**[٣]، كل مسلم لا شك أنه يرغب في الاستمساك بالسنة، والاستمساك بهدي المصطفي ﷺ، فهل ينتظر إلى أن يسمع بين كل حين وحين حديثًا واحدًا؟ أم أن نعمر المجالس بتلاوة سنته ﷺ؟ قال ابن مسعود رضي الله عنه لأولئك الذين يكثرون الجلوس أو للأقران: **(تذاكروا الحديث؛ فإن**

---

(١) انظر: الجامع لابن عبد البر (١/ ٤٣١)، والجامع للخطيب (١/ ٢٣٢).
(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٣٧).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٢٥).

ذكر الحديث - يعني: تذاكره - حياته) فإذا تذاكرت العلم به يحيا، وإذا غفلت عن تذاكره مات العلم، وهذا الذي ينبغي في مجالسنا: أن تكون المجالس مجالس علم، مجالس سنة، مجالس حديث، مجالس خير؛ لأنك إذا تذاكرت العلم ثبت، وإذا سمعت في مجلس واحد بضعة أحاديث، وقرت في ذهنك، فإنه يكون من ذلك عندك حصيلة عظيمة، وبها حياة القلب، وبها تحصيل العلم، والعلم يحصل شيئًا فشيئًا.

إذًا فهذه وصية لابن مسعود أن العلم لا يكون مع الرجل منذ ولادته، والرجل لا يولد عالمًا، ولكن يطلب العلم، وإنما العلم بالتعلم، ومن يتحر الخير يعطه.

لا تَأْخُذِ العِلْمَ مِنَ الأشْرَارِ

من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه - أيضًا - المتصلة بما سبق في تأصيل العلم، وكيف تطلب العلم، وعمن تأخذ العلم قال رضي الله عنه: **(لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وأمنائهم وعلمائهم، فإذا أخذوا من شرارهم وصغارهم، هلكوا)**[1] ماذا يقصد بقوله: **(إذا أخذوا من شرارهم وصغارهم هلكوا)**؟

ما قاله -أيضًا - في رواية أخرى له - يعني: عنه في هذه الكلمة - قال: **(إنكم لا تزالون بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم،**

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٠١)، والخطيب في نصيحة أهل الحديث.

وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٥٩).

سفه الصغير الكبير)، ففهمنا من ذلك أن الصغير الذي لا يقر له الكبير بالعلم، فإنه لا يؤخذ عنه العلم، إذا صار العلم في الصغار وفي الشرار وفي غير المأمونين، هلك الناس، الصغير يؤخذ عنه العلم إذا شهد له الكبار بالعلم، وهكذا كان سلفنا الصالح يطلبون العلم، يحدثون ويحدثون، لكن إذا شهد له بذلك.

أقف عند قوله: **(فإذا أخذوا من شرارهم)**، شرار الناس هم: غير المأمونين في العلم، وفي هذا الزمن وجدنا أن العلم صار يتلقاه كثير من الخلق عن طريق ليس هو طريق العلماء، يأخذونه من جريدة، مقال في جريدة يقرؤه، فيه دليل أو دليلان، فيه رأي، فيه فكر، فيصبح الناس يتحدثون في مجالسهم، فلان قال: كذا وكذا، تظل مدة تريد أن تقنعهم بأن هذا الذي قاله ليس بصواب، وهم لا يقتنعون، فهذا الزمن بانتشار الجرائد والمجلات وأنواع من يكتبون فيها من صغار وشرار وأناس لهم أفكار مختلفة، أصبح كثير من الناس يتلقى العلم عن الجرائد، ويتلقى الثقافة - حتى الشرعية - عن الجرائد والمجلات، فصار العلم يؤخذ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: يؤخذ عن الشرار والصغار. العلم يجب أن يؤخذ عن أهله الذين شُهِدَ لهم بذلك، عن الكبراء عن المأمونين بالعلم، أما أن تأخذ العلم عمن هب ودب، تقرأ مقالا، تقرأ جريدة، تقرأ مجلة، وتقتنع بما فيها، وتظن أن هذا العلم، ليس كذلك، وإنما ما يذكر هناك يجب أن يعرض على العلم، على أهل العلم، فإن أقروا به، صار موافقًا للعلم، وإن قالوا: هذا ليس بصحيح، صار مخالفًا للعلم، وكم رأينا في تلك الوسائل المقروءة من أشياء تهدم أصل الدين، وتدعو إلى البدع! بل إن منهم من كتب في أن اليهود والنصارى إذا ماتوا،

فإنهم يدخلون الجنة بعبارات وأدلة، وأورد ما أورد في ذلك، وهذا قرأه ملايين الناس، أو مئات الآلاف من الناس، وقد يكون هناك من اقتنع بذلك، ولا شك أن هذا سبب من أسباب الهلاك بيَّنه ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: فإذا أخذوا من شرارهم وصغارهم، هلكوا.

إذا رأيت من يقع في ذلك، فالتربية والتوجيه تقتضي أن تتكلم معه في تلك المسائل بهدوء، هؤلاء يكتبون، ليسوا من أهل العلم، تقول: هؤلاء يكتبون من وجهة نظر، ربما كانت ضيقة، ما عندهم علم شامل بالكتاب والسنة، هذه الكلمة أخطأ فيها، والصواب فيها كذا وكذا، فتقنع من حولك، وربما صار من يتتلمذ لتلك الجرائد والمجلات من هو من أقربائك أو من أهل بيتك أو إلى آخره، فيكون هناك قناعة بما قاله شرار الناس وصغار الناس، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: **(فإذا كان العلم في صغاركم سفه الصغير الكبير)**.

كذلك من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه هذه نأخذ أنه: لا يسوغ للمرء أن يتصدر قبل الأوان، إذا كان صغيرًا، وآنس من نفسه قدرة على البحث وتجميع المعلومات والنظر، لا يعني ذلك أن يبتدئ، ويبدأ يتحدث، وهو مازال صغيرًا، لم تصلب قناته في العلم. لا، ولكن ينتظر، وينتظر، حتى يشهد له أهل العلم بذلك، ويجيزوه.

كان في الزمن الماضي ما يسمي بالمعيدين، المعيد هذا أحد طلبة العلم، العالم يختاره لكي يعيد الدرس على الطلاب، على من لم يفهم، يذهب الشيخ، ثم هذا يقعد، ويسمى معيدًا، يعني في القرون الماضية، ويبدأ يعيد ما قاله الشيخ لمن لم يفهم، وهذا تأهيل، فلا يسوغ للمرء أن يتصدر، سواء

في جلسة صغيرة، أو كبيرة، أو محاضرة، أو درس، أو في تعليم علم إلا وهو ورع فيما يقول وخائف، والتصدر مذموم، ولابد إذا تصدر أن يكون مشهودًا له، أجازه أهل العلم، وأثنى عليه أهل العلم؛ حتى لا تضطرب الأقوال، ويقتدي الناس بمن يكون خطؤه أكثر من صوابه.

اتَّبِعِ الْحَقَّ

من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه - أيضًا - أنه أتاه رجل، فقال له: يا أبا عبد الرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال: (**اعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق، فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل، فاردد عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا**)[١] رواه أبو نعيم في كتاب حلية الأولياء.

أما الجملتان الأوليان، فنمر عنهما، وهو قوله: (**اعبد الله ولا تشرك به شيئا، وزل مع القرآن حيث زال**)، ونقف مع الكلمتين الأخريين قال: (**ومن جاءك بالحق، فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل، فاردد عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا**) هذه قالها ابن مسعود رضي الله عنه من اجتهاده، أو من فقهه في النصوص؟ الجواب: من فقهه في النصوص؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر تعليم الشيطان لأبي هريرة قراءة آية الكرسي قبل أن ينام، وهذه مشهورة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (**إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ**

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٣٤).

عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ)[١]، واستفدنا من الشيطان.

أيضا رأت اليهود أن أصحاب النبي ﷺ ربما قالوا: ما شاء الله وشاء محمد، وفي حديث قتيلة: «**أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ**»[٢].

وفي حديث الطفيل بن سخبرة رضي الله عنه: «**أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَعْرِفُهَا لَكُمْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»[٣]، فهاتان شهادتان من شيطان ومن يهود فيهما نقد ورد وإنكار من اليهود على المسلمين، وإنكار من النصارى على المسلمين، وقبله النبي ﷺ وصحابته، وصار شرعًا ودينًا، وفائدة نعمل بها إلى يومنا هذا.

قال ابن مسعود رضي الله عنه في فقهه لهذه الأحاديث: (**من جاءك بالحق، فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا**)، حتى لو كان كافرًا، أو يهوديًا، أو نصرانيًا، أو شيطانًا، مبتدعًا إذا جاءك بالحق في نفسه، ونقدك بشيء هو فيه محق، فاقبل؛ اليهود نقدوا الصحابة بشيء هم فيه، فقبلوا ذلك، وغيروا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (٣٧٧٣)، وفي الكبرى (٤٧١٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٢٥)، وأحمد واللفظ له (٥/ ٧٢) من حديث الطفيل بن سخبرة رضي الله عنه.

قال إمام هذه الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﵀ حين أتى لهذه الأحاديث قال فائدة عظيمة، لو رحل رجل من أجلها إلى آخر الأرض ما كان كثيرًا، قال في مسائل كتاب التوحيد في تلك الأحاديث: (**فهم الإنسان إذا كان له هوى**)[١]، فيها فهم الإنسان إذا كان له هوى.

أحيانًا الهوى والتعصب يجعل المرء يركز ذهنه، ويعكف بذهنه، حتى يجد مدخلًا على من ينقده، قال: (**فهم الإنسان إذا كان له هوى**)، هل اليهود يغارون على التوحيد؟ هم أهل الشرك، هل النصارى يغارون على التوحيد؟ على توحيد الله ﷻ حتى في الألفاظ؟ يغارون؟ لا يغارون على ذلك، ولكن يريدون أن يجدوا مدخلًا على المسلمين، فوجدوا ذلك، وانتفعنا من ذلك.

قال شيخ الإسلام وإمام هذه الدعوة: (**فهم الإنسان إذا كان له هوى**) إذا كان للإنسان هوى في أمر من الأمور، ونعرف أنه ما نقدني إلا لهوى، فهل يعني ذلك أن أرد قوله؟ هذا مخالف للسنة، ومخالف لوصايا الصحابة، قال ابن مسعود ﵁: (**ومن جاءك بالحق، فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا**) إذا نقدك واحد بينك وبينه خصومة أو بغضاء، فاقبل منه إذا كان يصحح وضعك، ويرشدك إلى الحق، فأنت أولى بالحق، فلا تجفل من ذلك، قد يكون فاسقًا من الناس يبين فيك عيبًا هو فيك، تجد أنت فيه مشادة، يقول: حتى أنت تفعل كذا... تغضب منه؟ لا، بل تقول له: صحيح جزاك الله خيرًا، أصحح وأتوب إلى الله، كذلك قد ينقدك في أمر، قد يرد عليك فكرة، قد يعاندك، وتعلم أنه ضدك، ولكن إذا كان يأتي بالحق، فاقبل منه.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (ص ٤٢٢) باب قول: (ما شاء الله وشئت).

فإذًا الحق يوزن بالحق، وليس بالرجال، الرجال أدوات لفهم الحق، والحق يفهم للحق.

فإذًا لا تنظر إلى القائل، وانظر فهم الإنسان إذا كان له هوى، صحيح يكون له هوى، وله رغبة في نقدك، له رغبة في أن يخرج عيوبًا، لكن يعصر ذهنه، ويخرج أشياء صحيحة، وينقدك بأشياء صحيحة، فهل نرد ذلك؟ لا ؛ الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها، فهو أحق بها ؛ لهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : (**من جاءك بالحق، فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل، فاردد عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا**)، كذلك من جاءك بالباطل، ليس لأجل مودته وقربه تقتنع بالباطل الذي جاء به؟! لا ؛ العمدة: ما هو الحق؟ وما هو الباطل؟ فإذا عرفت الحق، وعرفت الباطل، فمسألة هل هذا قريب أم بعيد؟ هل هو محب أم مبغض؟ هل هو معي أو ليس معي؟ هذه مسألة لا توزن في الحقيقة، وإنما يوزن الصواب، فإذا كان الحق، قُبِل، وإذا كان الباطل، رد، سواء كان الحق مع بعيد بغيض، أو كان الباطل مع قريب حبيب، فإنه يرد الباطل، ويقبل الحق ممن جاء به، وهذا لا شك تأصيل ظهرت لك أدلته من الكتاب والسنة، من وصية ابن مسعود رضي الله عنه هذه، وهو من العلم المهم الذي ينبغي، بل يجب الاستمساك به ؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : (**مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ، فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رُدِّيَ، فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ**). رواه أبو داود في سننه موقوفًا ومرفوعًا[(١)]، ورواه - أيضًا - الإمام أحمد في المسند[(٢)]، قال الخطابي رحمه الله ما حاصله: (**معنى ذلك قد وقع في الأثر، وهلك كالبعير**

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٩) مرفوعًا.

إذا تردى في بئر، فصار ينزع بذنبه، ويمده، ولا يقدر على الخلاص).

كلمة ابن مسعود رضي الله عنه: (**من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير**)؛ لأنه إذا نصرتهم على غير الحق، تعلم أن ما هم عليه مشتبه، أو مشكوك فيه، أو باطل، ثم تنصرهم، معناه أنك تؤيدهم على ما هم فيه من الهلكة، فينبغي إذن أن ينظر في الحق وفي الباطل من حيث هما.

أَنْتُمْ جِلاءُ قَلْبِي

قال ابن مسعود رضي الله عنه - وهذه من وصاياه، بل من كلماته التربوية العظيمة - قال مرة لإخوانه وأصحابه: (**أنتم جلاء قلبي**)[1]، الجلاء: الذي يكون به صفاء الشيء، وجلاء الأفهام يُعنى به: ما تُجلى به الأفهام، فتكون به صافية صحيحة، وجلاء القلب يعني: ما يكون به القلب صحيحًا غير مريض، صافيًا غير مشوش، قال لأصحابه: (**أنتم جلاء قلبي**). لم، وهو المعلم والمربي، وهم تلامذته، وهم أصحابه، وهم التابعون؟ كيف كان التابعون جلاء قلب صحابي من الصحابة؟ لأن المرء يَحتاج كما يُحتاج إليه؛ المعلم محتاج، والمتعلم محتاج، فالصحابة رضي الله عنهم يعلمون العلم، وهم محتاجون إلى من يأخذ عنهم، والتابعون وتلامذتهم - يعني: تلامذة الصحابة - محتاجون إلى علم الصحابة، المرء إنما يصلح بأصحابه، فقال: أنتم جلاء قلبي، يعني: الذين يزينون القلب، وهذا يحتاج منا إلى تأمل، وهو أن المرء

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٧٠).

يحتاج إلى أصحاب يعينونه على الحق والهدى، والانعزال مذموم، وقد قال ﷺ: «**فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**»[١]، قد يظن المرء أن الانعزال فيه خير، هذا عند الفتن، حين لا يجد من أصحابه من يعينه على الحق؛ لأنه قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ يَعْنِي بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ...**»[٢] إلى آخر كلامه ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**»[٣]، كما صح عنه - أيضًا - ﷺ، المرء محتاج، أنت محتاج لإخوانك، وإخوانك محتاجون إليك، فإذا انعزلت، صار ذاك سببًا من أسباب الران على القلب؛ لأنك إذا وجدت من هو على الحق، يعينك على الهدى، فإنه جلاء قلبك، يعينك وتعينه، تسدده ويسددك، تطيعه ويطيعك، تبين له ويبين لك،... قال ابن مسعود لأصحابه: أنتم جلاء قلبي.

بعض طلبة العلم قد ينعزل، ويجعل نفسه مثلًا مع البحث، دون أن يكون له صاحب ألبتة، وهذا ليس بجيد، بل إن الصاحب إذا كان صادقًا مخلصًا، فإنه جلاء للقلب، كذلك الناس: الشاب، الكبير، الصغير، الرجل، المرأة إذا كان بنفسه، أتاه الشيطان، وأما إذا كان مع أصحاب له يعينونه على

(١) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وأحمد (٥/ ١٩٦) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الهدى، فهم جلاء القلب، الذين يبعدون عنه الصدأ، ويجعلون الخير محببًا إليه، ويجعلون الشر مبغضًا إليه، نسأل الله أن ينفعنا وإياكم بالعلم النافع، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه

محاضرة بالرياض

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، الحمد لله الذي جعل لهذه الأمة قدوة يقتدون بها، ومعلمين يأخذون عنهم العلم والعمل، فله الثناء الحسن أن أقام أعلامًا يرشدون، ويسددون، ويبينون، ويمْحَضُون النصح للأمة، وينقلون الخير في الناس بأقوالهم وبأعمالهم، فله الحمد كله، وله الثناء كله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من المستنِّين بهدي صحابة رسول الله ﷺ، اللهم وأوردنا الحوض المورود معهم، ولا تردَّنا عن ذلك برحمتك وفضلك يا أرحم الراحمين، اللهم نسألك اقتداءً بأقوالهم وأعمالهم، واستنانًا بآثارهم، وعملًا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الصراط المستقيم.

تَعْرِيفٌ بِأَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه

هذا وإن موضوع هذه المحاضرة موضوع تربوي مهم لا للشباب فحسب، ولا للكهول فحسب، بل لكل مكلف؛ لأن الوصايا جاءت في القرآن، وجاءت في سنة رسول الله ﷺ، والوصية بعامة يجب أن تكون ممن فقه القرآن والسنة؛ لأن الوصية تعظم إذا كانت من مشكاة الكتاب ومن مشكاة سنة سيد ولد عدنان ﷺ، وأبو الدرداء رضي الله عنه[(١)] من أولئك النفر القليل من صحابة رسول الله ﷺ الذي لا يعرف كثيرون سيرته، ولا هديه، ولا ما ذكر العلماء من أحواله، فلقد كان عالمًا، وانتهى علم الصحابة إلى ستة، كان أبو الدرداء رضي الله عنه أحدهم؛ كما عن مسروق قال: (**شَامَمْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدْتُ عِلْمَهُمُ انْتَهَى إِلَى سِتَّةٍ: إلى عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَعَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَزَيْدِ بن ثَابِتٍ، ثُمَّ شَامَمْتُ السِّتَّةَ، فَوَجَدْتُ عِلْمَهُمُ انْتَهَى إلى عَلِيٍّ، وَعَبْدِ اللَّهِ**)[(٢)].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، متجانفًا بالكلية عن دار الغرور؛ حيث قال - فيما سيأتي بيانه -: (**لما أسلمت كنت تاجرًا، فاشتغلت بالتجارة والعبادة، فما اجتمعت لي، فتركت التجارة، وتفرغت للعبادة**)[(٣)]، . . . .

---

(١) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٥)، والإصابة (٤/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٩٤)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٥١)، وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ١٥٤) عن مسروق رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٠٧).

وقصته مع أخيه سلمان رضي الله عنهما في البخاري وغيره[1] - كما سيأتي -، الوصايا وسيرة الصحابة رضي الله عنهم مهمة؛ ولهذا أوصي جميع إخواني بأن يعمروا مجالسهم بذكر الصحابة رضي الله عنهم، بذكر هديهم، بذكر سنتهم، بذكر ما كانوا عليه، إذا جلسوا مجلسًا، فحبذا أن يعمر المجلس بقراءة ترجمة أو ترجمتين من تراجم الصحابة من الكتب المعتمدة؛ كتذكرة الحفاظ للذهبي، وكسير أعلام النبلاء له، وكطبقات ابن سعد، وأشباه هذه الكتب التي فيها ذكر حال الصحابة رضي الله عنهم.

واليوم كلامنا كثير، والعمل قليل، الكلام الذي يخرج من اللسان، ويغشى الآذان كثير، ولكن نريد أن ننتقل بروحنا وبحياتنا إلى ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وإلى ما كان عليه التابعون - رحمهم الله، ورضي عنهم - فإن العيش مع أولئك يعطي المرء توازنًا في حياته، اليوم ترون الملهيات كثيرة، وما يصد عن الواجبات من المباحات كثير، فضلًا عن ما يصد من المحرمات - والعياذ بالله -، وكثيرون غشوا المباحات؛ حتى حرمتهم فعل الواجبات، وهذا ولاشك يؤول بالمباح إلى أن يكون محرمًا؛ لأن وسيلة المحرم محرمة؛ كما هو مقرر في القواعد والأصول، العيش مع الصحابة مهم ومفيد في أن ننظر إلى أقوالهم وأعمالهم، ونأخذ الدرس منها، نأخذ ما وراء الكلمات، نعم نحن لم نعش معهم، لم نرهم، ولكن الكلمات وراءها حال، وراءها سيرة، وراءها تربية، كلمات الصحابة هي التي خلفت لنا، ومعلوم أن ما خلف يكفي في التربية، ويكفي في الدعوة، ويكفي في التأثير

(١) أخرجها البخاري (١٩٦٨).

في الناس، لكن إذا انتقل من ظاهر اللفظ إلى ما وراءه من المعاني؛ لهذا أدعو الإخوة بعامة إلى أن يعمروا مجالسهم: في الدعوات، وفي اللقاءات، أو في المناسبات التي تكون إخوانية، يعني: مناسبات يلتقي فيها الإخوان، هذه نعمرها بذكر الصحابة، بذكر سيرهم، بذكر أحوالهم بمعرفة ما وراء وصاياهم، ما وراء كلماتهم من العلم والهدى؛ ولهذا أوصى ابن مسعود رضي الله عنه وصية عامة بقوله: (**عليكم بصحابة رسول الله ﷺ؛ فإنهم أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علومًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم**)(١)، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ**»(٢)، يعني: نصيف المد، وهذا - ولا شك - يحتم الاهتمام بأقوالهم وأعمالهم، وهذا بالعموم من سمات المنهج السلفي الواضح أنه ينقل الناس إلى التلقي عن المصدر المأمون، وهو كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ على فهم سلف هذه الأمة، وأعلى السلف صحابة رسول الله ﷺ.

لم اخترنا وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه؟ لأن أبا الدرداء جاء عن النبي ﷺ من وجه مرسل - ولكن يذكره أهل التراجم، ويعتنون به - أنه ﷺ قال: «**حكيم أمتي عويمر**»(٣)، يعني: أبا الدرداء، وثبت عن عدد من الصحابة أنهم

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في الشاميين (٢/ ٨٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٠٩) عن شريح ابن عبيد رضي الله عنه.

قالوا: (**أعقل الناس عويمر**)[١]، يعنون: أبا الدرداء، فأبو الدرداء رضي الله عنه جمع بتوفيق الله عز وجل أشياء متنوعة: جمع العقل والحكمة، جمع الكلمات التي فيها التوازن بين العلم والعمل والدعوة.

أبو الدرداء كان مقرئًا للناس، معلمًا، لم تكن وصاياه ولم تكن كلماته ناشئة من توجيه محض، بل كان يعاني العلم والتعليم والإقراء، فربما عُدَّ له في مجلسه أكثر من ألف وستمائة يقرؤون عليه، ويقرئهم القرآن، وكان يجتمع عنده في المجلس الواحد في القرآن أكثر من ألف، يقوم عليهم، يدور، فيقرئ هذا، ويقرئ هذا، ويقرئ هذا.

أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الحِلَقَ لإقْرَاءِ القُرْآنِ في المَسَاجِدِ

قال الذهبي رحمه الله: (**أول من سن الحلق لإقراء القرآن في المساجد أبو الدرداء رضي الله عنه**)[٢].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه أحد الذين أخذوا القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يقرأ على غير المصطفى صلى الله عليه وسلم، كحال ابن مسعود وحال أبيّ، وجمع قليل من الصحابة، أخذوا القرآن كاملًا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إذًا فأبو الدرداء مدرسة، ووصياه تحتاج منك إلى عناية ورعاية؛ ولهذا

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٢/ ٣٤٩)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٣٤) عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما: (**حدثونا عن العاقلين، فيقال له: من العاقلان؟ فيقول: معاذ بن جبل وأبو الدرداء**).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٦) (**وهو الذي سن هذه الحلق للقراءة**).

أدعو الإخوة الذين لديهم فضل من الزمان والوقت أن يجمعوا هذه الوصايا، وأن يشرحوها بشرح منضبط، مع العلم والعمل على وفق كلام أهل السنة والجماعة وكلام أهل العلم؛ حتى يتأثر الناس بوصايا سادات الأولياء.

أبو الدرداء من هو؟ أبو الدرداء: أنصاري خزرجي، اسمه: عويمر بن زيد بن قيس، ويقال في اسمه: إنه عويمر بن عامر، أسلم رضي الله عنه يوم بدر، وشهد أحدًا والمشاهد بعدها، وفرض له عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الشهر أربعمائة، جعله في البدريين؛ لأنه كان يخص لهم، ويعطون عطاءً - يعني: الصحابة - والناس في العطاء مختلفون بحسب سابقتهم، فأعطى البدريين أربعمائة، وألحق عمر أبا الدرداء في البدريين.

قال عنه الحافظ الذهبي في ترجمته: (**أبو الدرداء الإمام القدوة، قاضي دمشق، حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق**)[1]، وهذه الكلمات الأربع من منصفٍ - وهو الذهبي - في وصف أبي الدرداء رضي الله عنه ونعته، قال: (**الإمام القدوة**)، وكونه كان إمامًا قدوة؛ لأنه تصدر لتعليم الناس وإقرائهم القرآن، وجمع بين العلم والعمل، وهذه الثلاث هي صفات الإمام القدوة، من كان معلمًا، عالمًا، عاملًا، مقرئًا للناس، نافعًا لهم، فمن جمع بين العلم والعمل والتعليم وبذل النفس للناس كان إمامًا قدوة.

قال: (**هو قاضي دمشق**)؛ لأنه ولي القضاء في دمشق.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٥).

رَأْيُهُ فِي القَضَاءِ

ولما ولي القضاء، جاءه الناس يهنئونه بتوليته القضاء؛ لأن الذي ولاه عثمان، وإذا كان عثمان ولاه القضاء، فمعنى ذلك أنه أهل لهذه الأمانة العظيمة بثناء عثمان رضي الله عنه عليه، فجاؤوا يهنئونه، فلامهم، وعتبهم، واشتد عليهم، فقال: (**أتهنئونني بالقضاء، وقد جعلت على رأس مهواة، منزلتها أبعد من عدن أبين، ولو علم الناس ما في القضاء، لأخذوه بالدول رغبة عنه، وكراهية له، والله لا أرى أحدًا أحق بألاّ يهنأ من القاضي إذا ولي**)[(١)]؛ لأن هذه المسألة عظيمة، إذا ولي القاضي القضاء، أو ولي أحد ولاية صغيرةً كانت أم كبيرةً، فالأمر عظيم، وهي أمانة.

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (**مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ، فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ**)[(٢)]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: (**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ**)[(٣)]، وهذا يجعل أهل العلم والعمل يخافون، وإذا ولوا الأمانات، ولوها، وتولوها مع خوف من الله ﷻ وحسابه ولقائه، فيعاملون، لا لأجل ثناء الناس، ولا لأجل رؤيتهم، ولا لاتباع أهوائهم، وإنما فيما يكون بينهم وبين الله ﷻ.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٧١)، والترمذي (١٣٢٥)، وابن ماجه (٢٣٠٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي واللفظ له (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

حكيمُ هذه الأمةِ

هذا الوصف الثالث من الذهبي رحمه الله؛ لأنه روي عنه ﷺ أنه قال: (حكيم أمتي عويمر)(١)، والحكيم هو الذي يوصي بحكمة، والوصايا يجب أن تكون موافقة للعلم، موافقة لما جاء في القرآن والسنة، قد يكون لقوم كثيرين وصايا يعتنون بها، ولكن الوصايا إذا كانت من مشكاة الكتاب والسنة، فهي الوصايا المعتبرة؛ فلهذا ينبغي على من يعجبه أحد أن لا يأخذ بوصيته إذا كانت مخالفة للكتاب والسنة، فالبقاء على وصايا مخالفة للكتاب والسنة هذا نوع من المخالفة لما أنزل الله عز وجل، فالوصايا مهمةٌ، ولكن يجب أن تكون منضبطة بما جاء في القرآن وفي حديث المصطفى ﷺ.

وأبو الدرداء سيد القراء بدمشق، لم؟ لأنه قرأ القرآن على النبي ﷺ، وجمع القرآن كله في حياة المصطفى ﷺ، وتصدر للإقراء في خلافة عثمان رضي الله عنه، بل وقبل ذلك في دمشق، وهذا التصدر لأنه كان يريد أن يجعل الناس يحملون القرآن بعده، وابن عامر الدمشقي اليحصبي القارئ المعروف كان ممن أخذ القرآن عن تلامذة أبي الدرداء رضي الله عنه.

أبو الدرداء له مقام كبير في الحديث، روى أحاديث كثيرة عن المصطفى ﷺ، وروى عنه من الصحابة جمع كثير، منهم أنس بن مالك، ومنهم فضالة ابن عبيد، ومنهم ابن عباس، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص، ومنهم أبو أمامة رضي الله عنهم، وغير أولئك كثير.

---

(١) سبق (ص ٥٨).

أبو الدرداء رضي الله عنه عاش على البعد عن الدنيا، وعاش على الزهادة فيها تمامًا، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين بعد ابن مسعود رضي الله عنه، وقبل عثمان ابن عفان رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أخباره ومن الثناء عليه - مما يشوقكم إلى قراءة ترجمته وإلى العناية بذلك - أنه كان يقول: (**كنت تاجرًا، فلما جاء الإسلام، جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمت العبادة**)[1].

أَبُو الدَّرْدَاءِ وَسَلْمَان

جاء في الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين أبي الدرداء وبين سلمان رضي الله عنهما، فعن أبي جحفة رضي الله عنه قال: (**آخَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ أَخُوكَ أبو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا فَجَاءَ أبو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ قَالَ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ قَالَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمِ الْآنَ فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَهُ صَدَقَ سَلْمَانُ**)[2].

وفي رواية أخري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**صدق سلمان إن لربك عليك حقًا،**

---

(١) سبق (ص ٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

وإن لبدنك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه».

أبو الدرداء ترك التجارة، ولزم العبادة، قال أهل العلم[(١)]: الأفضل الجمع بين الأمرين مع الجهاد، الأفضل الجمع بين العبادة والتجارة، يعني: الكسب للنفس وللعيال مع الجهاد، قال الذهبي: وهكذا كانت حالة أكمل هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه كان يزاول الكسب، وكان عابدًا صديقًا، وكان يجاهد في سبيل الله، وهكذا كانت حالة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهكذا كانت حالة ابن المبارك، فكان عالمًا عابدًا مجاهدًا رضي الله عنه، لكن لا يقوى على ذلك الكثيرون؛ فلهذا كلٌّ يأخذ بما يناسبه، لكن التفرغ للعبادة، أو التفرغ للمجاهدة، وترك الكسب للأهل وللعيال هذا مذموم.

نأخذ من هذا أن ما قد يفعله بعض الناس من أنهم يتركون أهليهم مدة طويلة، قد تبلغ أربعين يومًا، وقد تبلغ أحيانًا أربعة أشهر ونحو ذلك، ويتركون أهليهم، ويتركون أولادهم دون كسب ودون رعاية أن هذا مخالفة لما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، فالأصل أن لا يضيع المرء من يعول، وأن يجعل لنفسه عليه حقًا، وأن يجعل لربه عليه حقًا؛ لأن الله عز وجل له الحق، وأن يجعل لأهله عليه حقًا، فكل أحدٍ يعطيه حقه الذي جعله الله عز وجل له، قال أبو ذر رضي الله عنه: **(ما حملت ورقاء، ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء)**[(٢)].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٢٢)، وأخرجه الترمذي (٣٨٠٢)، وأحمد (٦/ ٤٤٢)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: **(قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ =**

ما حملت ورقاء - يعني: الأرض -، **ولا أظلت خضراء** - يعني: السماء؛ لأن الزرقة يقال لها خضرة - **أعلم منك يا أبا الدرداء**، وهذه شهادة عظيمة من أبي ذر ﵁، وعن مسروق - وهو من سادات التابعين - ﵁ قال: (**شَامَمْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدْتُ عِلْمَهُمُ انْتَهَى إلى سِتَّةٍ: إلى عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَعَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَزَيْدِ بن ثَابِتٍ، ثُمَّ شَامَمْتُ السِّتَّةَ، فَوَجَدْتُ عِلْمَهُمُ انْتَهَى إلى عَلِيٍّ، وَعَبْدِ اللَّهِ**)[١]، وروي عن ابن عمر بإسناد رجاله ثقات أنه كان يقول: (**حدثونا عن العاقلين**)، قالوا: ومن العاقلان؟ فقال: (**معاذ وأبو الدرداء**)[٢]، وصدق ابن عمر ﵄؛ فإن معاذًا كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وكان أعقلها، وكذلك أبو الدرداء ﵁ كان أعقل هذه الأمة، فإذا عرفت ذلك، فخذ شيئًا من وصايا أبي الدرداء وشيئًا من الدروس والفقه المتعلق بتلك الوصايا.

= **وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبي ذَرٍّ**)، وأخرجه الترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦)، وأحمد (٢/ ١٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ مرفوعًا.

(١) سبق (ص ٥٦).

(٢) سبق (ص ٥٩).

ثَلاثُ وَصَايَا لأَبِي الدَّرْدَاء

من تلك الوصايا أنه جاءه رجل، فقال له: يا أبا الدرداء أوصني، فقال: **(اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء، وإذا ذكرت الموتى، فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا، فانظر إلى ماذا يصير)**(١)، هذه الوصية الأولى تشتمل على ثلاث وصايا، قال: أوصني. وهذا نأخذ منه أن من هدي السلف أن يطلبوا من علمائهم ومن أهل الفقه والعلم والعمل فيهم أن يوصوهم، وينبغي على من طُلِبَ منه الوصية أن يبذل النصح كاملًا لمن طلب منه الوصية، هذه هي الفائدة الأولى، قال: أوصني.

والنبي ﷺ قال له رجل من الصحابة: أوصني يا رسول الله. قال: **«لَا تَغْضَبْ»**(٢) أوصني يا رسول الله. قال: **«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»**(٣)، وهكذا في عدد منها.

فإذًا طلب الوصية مهم، وحبذا أن يكون في كتاب، يعني: تكتب له،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٩)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١) من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه وفيه: «**قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. .**».

فتقول له: أوصني، إذا كان يعرفك، فإنه إذا عرف حالك وفي الكتاب - يعني: في رسالة - يعطيك محض النصيحة، ويجهد نفسه في بيان ما يناسبك، ويخلص لك النصح، وهذا مما ينبغي تعاهده، فقد كان بين أبي الدرداء وبين إخوانه مراسلات كثيرة؛ كما يعلمها من قرأ ترجمته، فإذًا ينبغي أن نأخذ بهذه الوصية أن تكتب لأخيك: أخي أوصني؛ لأن الرسالة لها أثر غير المواجهة، قد لا يواجهك بالكلام، قد لا يواجهك بما فيك، قد يستحي، وتستحي أنت، لكن إذا كان الطلب منك فيما يسددك في أمر دينك وفي أمر التزامك بالطريق المستقيم والنهج الصحيح، فإن هذا أدعى للتأثير، فتكتب له، وتقول له: يا فلان أوصني. فيكتب لك وصيته لك بما يناسب حالك وبما تستفيد منه.

قال: أوصني. فأوصاه أبو الدرداء بالآتي: قال: (اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء) اذكر الله، هذا أمر عام، ذكر الله ﷻ ما معناه؟ هل هو حركة اللسان بالذكر؟

قال العلماء: الذكر له مراتب ثلاث(١):

أولها: أن يواطئ القلب اللسان فيما يتحرك به اللسان.

الثاني: ذكر القلب، وهو: تفكره، وتأمله، وتدبره، واعتباره.

الثالث: وهو أدنى المراتب وأقل المراتب أجرًا: ذكر اللسان فقط.

---

(١) انظر: الأذكار للنووي (ص٢٠)، والوابل الصيب (ص١١٧)، وروضة المحبين (ص٣٠٩).

يعني: إذا ذكر المرء الله ﷻ بقلبه ولسانه، فذاك أفضل المراتب؛ كما كانت حالة الأنبياء والمرسلين وحالة الصديقين، دائمًا يواطئ القلب اللسان فإذا تحرك اللسان، تحرك معه القلب، والمرتبة الثانية: أن يتحرك القلب بالذكر - وسيأتي معنى الذكر الواسع -، ولو بلا حركة لسان، والثالث والأخير: أن يتحرك اللسان، ولو كان القلب مشغولًا بما يزاوله أو بما يفكر فيه.

قال العلماء: فإن كان الذكر باللسان مع شغل القلب فيما مصلحته أعظم، فإن ذكر اللسان مع انشغال القلب بما مصلحته أعظم أفضل، مثاله: قول عمر ﷺ: **(إِنِّي لَأُجَهِّزُ جَيْشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ)**[1]، يجهز الجيش في الصلاة، يعني: هو مشغول في الصلاة بتجهيز الجيش، يتلو، ويذكر الله، ويقرأ الفاتحة، ويقرأ القرآن، ويسبح، ولكنه مشغول في الصلاة بما هو أكثر نفعًا، وما هو أكثر تعديًا نفعه للمسلمين، وهو تجهيز الجيوش للجهاد، إذا كانت هذه المرتبة، فلاشك هي أفضل من ذكر اللسان مع القلب، إذا كان القلب مشغولًا بما هو أهم، وهذه إنما تكون في حالٍ دون حال.

اذكر الله. ذكر الله ما معناه؟ هل هو التسبيح والتهليل والتحميد فقط؟ لا، ذكر الله عامٌ في كل ما يذكرك بالله؛ جاء عن ابن عباس ﷺ: **(إن صفة أولياء الله، أنهم إذا رُؤوا ذُكِر الله)**[2]، يعني: إذا رأيتهم ذكرت الله بالقول، ذكرت الله بالعمل، ذكرت الله بالعلم، هذه صفة الصادقين: **(إذا رؤوا ذكر**

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٣/ ٩٠ فتح)، ووصله ابن أبي شيبة (٢/ ١٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٤)، عن ابن عباس ﷺ.

الله)، ليس في رؤيتهم ذكر للدنيا، وإنما هو ذكر لله ﷻ، فذكر الله يعم أنواع العبادات، كل العبادات القولية والعملية منها، عبادات القلوب أو عبادات اللسان والجوارح كلها ذكر لله ﷻ، تلاوة القرآن ذكر لله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤] على أحد وجهي التفسير[(١)].

كل نوع من أنواع العبادة فهو ذكر، إذًا اذكر الله بجميع أنواع العبادات، اذكر الله في السراء، يعني: إذا كنت في نعمةٍ، فاذكر الله حال تمتعك بالنعمة، وقد قال بعض الصحابة ﷺ: **(ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ)**[(٢)]؛ لأنه إذا نزلت المصيبة، إذا نزلت الضراء، فالصبر دواعيه كثيرة، لكن من يصبر على ذكر الله في السراء؟ تتوافد عليك النعم، تتوافد عليك أنواع الإحسان، تتوافد عليك أنواع الملذات، فتصبر أن لا تغشى خلاف ما أمر الله ﷻ، هذا لاشك يحتاج إلى قلب معلق بالذكر؛ لهذا أوصى أبو الدرداء بقوله: **(اذكر الله في السراء)** - وهذا هو الميزان - **(يذكرك في الضراء)**، وهذه من مشكاة وصية المصطفي ﷺ: **«احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»**[(٣)].

إذًا فينبغي لنا أن نتنبه إلى وضع النعمة، وضع السراء، وضع الحال الذي

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٤٥٧)، عن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

نحن فيه، نغشى النعم، منذ الصباح إلى المساء، ونحن في نعم، أين ذكر الله؟ أين الشكر؟ الواحد قد يأتي له الشيطان، فيظن العبد أنه مستحق لهذه النعمة لما هو عليه، وينسى ذنوبه، ينسى إعراضه، ينسى تقصيره، ينسى فضل الله ﷻ عليه، وسواء في ذلك حال الأفراد أو حال المجتمعات، فيجب على عباد الله ﷻ فردًا كان أم مجتمعًا أن يعتنوا بحال السراء، أن يعتنوا بحال النعمة، وأن يجعلوا أنفسهم مقيدة بالذكر، لم؟ إذا جاءت الضراء جاء الله ﷻ بالفرج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

الوصية الثانية من هذه الوصية قال: وإذا ذكرت الموت، فاجعل نفسك كأحدهم: فلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلان مات، صلينا على جنازة، فلان مات، حضرت عزاء، أين حركة القلوب بالموت؟ لو صحت القلوب لما جاء ذكر الموت إلا وقد اضطربت القلوب من خشية الله ﷻ.

إبراهيم النخعي - سيد أهل الكوفة وأعلم أهل الكوفة المعروف - إذا مات أحد في الكوفة عرف ذلك في وجهه أيامًا، فقيل له - حتى ولم يعرفه، ولو لم يكن من أصحابه - فقيل له في ذلك: يا إبراهيم أنت معلمنا، وأنت كذا، وكذا . . ، وأراك تجزع من الموت؟ فقال: ما بي من جزع من الموت، - أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -، ولكن نزل بأخيكم أمر هو بعده إلى نعيم أو إلى جحيم. وبينك كان يعيش، وكان. . . ، وكان. . . ، لكن بعد الموت أين ذهب؟ هل ذهب إلى روضة ونعيم، أم ذهب إلى جحيم وعذاب؟

مر ﷺ بقبرين، فقال - وأشار إليهما -: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ**

فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»(١). إذا ذكرت الموت، فاجعل نفسك كأحدهم، يعني: أعد العدة لما نزلوا به، هل الموت غدًا أو بعد غد... إلى آخره؟ إذا ذكرت الموت، فاجعل نفسك كأحدهم: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**»(٢). هذا به صلاح القلوب، أما أن يرى المرء في شبابه وفي صحته أنه سيعمر طويلًا، فهذا نوع من غرور الشيطان: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠] هذا نوع من الغرور، إذا ذكرت الموت ممن مات من أصحابك أو من العلماء الماضين، أو من الناس الحاليين، أو حضرت عزاء، أو مررت بمقبرة، أو حضرت دفنًا، أو صليت على جنازةٍ، فعد نفسك كهذا الذي مات، هذا به تنبت شجرة الإيمان في القلب، ويعظم ثمرها؛ لأنه إذا فارق ذكر الموت القلب، كان موتًا له.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: (**لو فارق ذكر الموت قلبي، لفسد قلبي**)(٣)، لو حصل أنه فارق، فسد القلب لِمَ؟ لأن أول درجات فساد القلب أن يتعلق بالدنيا، وأن ينسى الموت وما بعده الآخرة؛ فلهذا تنبه لهذه الوصية: (**إذا ذكرت الموت، فاجعل نفسك كأحدهم**)، دائمًا عد نفسك أنت الذي صلي عليك،

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٧٥) عن الربيع ابن أبي راشد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عد نفسك أنت الذي تحت أطباق الثرى، عد نفسك أنت المعزى، وهكذا.

الوصية الثالثة له: وإذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا، فانظر إلى ماذا يصير؟ إذا أشرفت نفسك على جاه، فانظر إلى ماذا يصير؟ إذا أشرفت نفسك على مال، فانظر إلى ماذا يصير؟ ما معنى: أشرفت نفسك؟ يعني: استشرفت وتطلعت، تريد هذا الشيء، وتطمع فيه، فانظر إلى ماذا يصير؟ عده صار إلى زوال، فما الذي حصل؟

أَلَحَّ بعض أبناء الإمام أحمد عليه أن يقبل عطية السلطان، مع أن الإمام أحمد كان يقول: (**عطايا السلطان أحب إليَّ من صلة الإخوان**)[1]. فألحوا عليه لدين كان عليه - دين عظيم -، فأبى لما كان عليه الأمر في ذلك الزمان من فتنة القول بخلق القرآن... إلى آخره، فأبى ذلك، فأرسل إليه، فرده - رحمه الله ورفع درجته -، فلما مضت السنة، جاءه الفرج، وسدد من ضيعة كانت له، أو مصدر رزق كان يأتيه، فالتفت إلى أبنائه، فقال لهم: ما رأيكم لو قبلنا؟ لقد فرج الله الأمر، مضت الأشهر، ومضت السنة، ولكن لو قبل، كان عليه منة، فلما أراد أبناؤه من أن تستشرف نفسه لهذا الشيء، وأن يقبله، وكان هو الإمام الكامل في العلم والعمل - رحمه الله ورفع درجته - أراد أن يربيهم، فقال: انظروا ماذا صرنا؟ ماذا لو قبلنا؟ يعني: لبقيت المنة مثلًا، أو لبقي أثرها، والأمر الآن اتسع وتوسع.

(**إذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا، فانظر إلى ماذا يصير**)، أشرفت

---

(١) انظر: المغني (٤/ ٣٣٣)، ومجموع الفتاوى (٣٠/ ١٩٣)، والدرر السنية (٩/ ٣٢٢).

نفسك على ولاية، انظر إلى ماذا تصير بعد ذلك؛ كما قال ابن الوردي[1] في لاميته:

لا تلِ الحكمَ وإنْ هم سألوا رغبةً فيكَ وخالفْ مَنْ عذَلْ

والولاياتُ وإنْ طابتْ لمَنْ ذاقَها فالسمُّ في ذاكَ العسلْ[2] انعزل

يعني: انظر إلى آخر الأمر، وتحكم في الأمر منذ بدايته، فلا تستشرف نفسك إلى شيء من الدنيا؛ ولهذا فعل الصحابة أنهم كانوا يلون الأمور، ويعملون بما أوجب الله عليهم، والأمور في أيديهم، لا في قلوبهم، فإذا تحقق لهم ما يريدون، وإلا لم تتعلق قلوبهم بشيء من الدنيا، إذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا، فانظر إلى ماذا يصير، وبالتالي فإنك ستتركه أو تعامله بما تكون العاقبة لك.

---

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب. (٦٩١- ٧٤٩هـ).

ودعِ الذكرى لأيامِ الصِّبا فلأيامِ الصِّبا نجمٌ أفلْ

(٢) انظر: الكشكول (٢/ ٦٤٥) لبهاء الدين العاملي (٩٥٣ - ١٠٣١هـ) ومطلع القصيدة:

اعتزلْ ذكرَ الأغاني والغزلْ وقلِ الفصلَ وجانبْ مَنْ هزلْ

ودعِ الذكرى لأيامِ الصِّبا فلأيامِ الصِّبا نجمٌ أفلْ

اسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ تفْرِقَةِ القَلْبِ

من وصايا أبي الدرداء ﷺ أنه كان يقول في كلامه: **(أعوذ بالله من تفرقة القلب. قيل: له وما تفرقة القلب؟ قال: أن يجعل لي في كل واد مال)**[(١)]، وهذا نشاهده فيمن ابتلاهم الله ﷻ بأموال، بأموال في الرياض، وأموال في الشمال، وفي الجنوب، وفي داخل المملكة، وفي خارج المملكة. . .، إلى آخره، ابتلاهم الله بتفرقة القلب؛ لأن المال يريد من القلب نصيبه، يريد متابعة؛ ولهذا قال أبو الدرداء ﷺ: **(أعوذ بالله من تفرقة القلب)**؛ لأن القلب يتقلب، القلب لا يمكن أن يجتمع على الذكر وعلى الطاعة، وهو له في كل وادٍ نصيب.

قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: **(أن يُجعل لي في كل واد مال)**، وهذه وصية منه للأمة، أن المرء القنوع بما قسم له من الدنيا يكون ماله قريبًا منه، وأن لا يجعل نفسه في تتبع المال بما يؤول عليه بتفرقة القلب، يتابع هذا، ويتابع هذا، ويتابع هذا، ويتابع هذا، وكثيرون رأيناهم كانت قلوبهم مجتمعة على العبادة، وعلى التلذذ بالطاعة، وعلى رعاية أهليهم وأولادهم، فلما جعل لهم في كل وادٍ مال، تفرقت قلوبهم، وما استلذوا بالحياة أصلًا؛ لهذا تعوذوا بالله من تفرقة القلب، كما قال أبو الدرداء ﷺ.

وعن عون بن عبد الله - التابعي المعروف - قال: قلت لأم الدرداء،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٩)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٨١)، وابن عساكر (٤٧/ ١٥٦).

وبالمناسبة أم الدرداء اثنتان: كبرى وصغرى، وكانت الصغرى منهما عالمة[١]، والكبرى[٢] - أيضًا - كان عندها علم، والصغرى كانت عالمة، وكانت فقيهة ﵂، كيف كانت فقيهة؟ يعني: نريد أن نقرأ ما وراء الكلمات، كانت فقيهة، زوجة عالم، زوج عالم وفقيه وعامل، كانت فقيهة، كيف كانت فقيهة؟ هل كانت تخرج تتبع العلم من هنا وهناك؟ فأين حق الزوج؟ لابد أن يكون وراء ذلك تربية العالم لأهله، وهذا نلحظه في كثيرين أنهم إذا خاطبوا أهليهم، لا يخاطبونهم بالعلم، تجد أن الناس يستفيدون منه العلم، وعنده علم كثير، وعنده خير وتوجيه، لكن إذا خالط أهله، خالطهم بشأن البيت، بالأكل والشرب، وبحاجة الرجل، وأشباه ذلك، وبالذهاب والمجيء، لا يسوغ هذا، أولى الناس بأن تعلم وأن تقيهم النار أهلك، وإلا فلا تلومن إلا نفسك.

تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ

أبو الدرداء كانت زوجه فقيهة، ولابد أن ذلك كان من تعليمه لها، ومن تفقيهه لها، إذا تحدث معهم، تحدث معهم بالعلم، تحدث معهم بالفوائد، تحدث معهم بحال الصحابة، تحدث معهم بما سمع من أهل العلم؛ فإن في ذلك نقلًا للعلم ونشرًا له فيه، قد يكونون أول مرة، يكون النساء والأهل يكون أول مرة يستثقلون ذلك، ثاني مرة، عاشر مرة، يستثقلون، لكن إذا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٧).
(٢) انظر: الإصابة (٧/ ٦٢٩).

ألفوه، لانت قلوبهم، وكما أنت تؤثر على غيرك مرة ومرتين، وتؤثر عليه عشر مرات، فكذلك أثر على من في بيتك بالكلام مرة ومرتين وعشر مرات، أما الذي يدخل ويخرج، وهمه حاجة الرجل من أهله: من أكل، وشرب، وحاجة الرجل من أهله، فهذا ليس بلائق ولا ينبغي؛ لأن المرء مسؤول عن رعيته: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[(١)]، قال عون بن عبد الله: (**قلت لأم الدرداء: أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار**)[(٢)]، وقال أبو الدرداء -أيضًا-: (**تفكر ساعة خير من قيام ليلة**)[(٣)] يعني: لمن كان في مثل فقهه وعلمه، التفكر والاعتبار كانت عبادة أبي الدرداء، أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار، نقف عند هذه الكلمة في مسألتين:

الأولى: أن أم الدرداء رضي الله عنها - وكانت فقيهة - جعلت التفكر والاعتبار عبادة، وهذا حق؛ لأن التفكر أمر الله عز وجل به، وما أمر الله عز وجل به، فامتثاله عبادة قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٨)، وابن عساكر (٤٧/ ١٤٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٤٩)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٩)، والبيهقي في الشعب (١١٨).

تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

الآيات في الحث على التفكر كثيرة، والتدبر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض؛ لهذا كانت أكثر عبادة أبي الدرداء بالتفكر والاعتبار، يتفكر في آلاء الله؛ ليدله ذلك على عظمة الله ﷻ، الناس ينظرون اليوم إلى السماء، وكأنها ليست بسماء، ينظرون إلى الإبل، وكأنها ليست بإبل، ينظرون إلى الجبال. . . ، لا يتفكرون، والله ﷻ يقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ٢٠ - ١٧].

إن التفكر يورث التذكر، التفكر يورث الخشية، التفكر الحقيقي وصف الله ﷻ به أولياءه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وهم أولو الألباب.

ما أجمل ما قاله الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ!

الحسن البصري كان عظيمًا في كلامه، وفي تربيته، وزهده، وتعليمه. الحسن البصري ماذا قال؟ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **عاملنا القلوب** - يعني: لإصلاحها - (**عاملنا القلوب بالتفكر، فأورثها التذكر**) - يعني: التفكر أورث القلوب التذكر، تذكر الله ﷻ، تذكر الآخرة، تذكر حق الله ﷻ، **فرجعنا** - هذا تمام كلام الحسن - (**فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار**)، وهذه يعرفها من جرب؛ لهذا ينبغي لك أن تكثر من التفكر، تكثر من التفكر في الآخرة، في الجنة، في النار، في الذين ذهبوا

في الموت، في ملكوت السماوات والأرض، في حق الله ﷻ في صفاته، تعامل القلوب بالتفكر، فإذا عاملت القلب بالتفكر، سيورثك التذكر.

فإذا تذكرت، وعظم في قلبك خشية الله وتذكره، ارجع مرة أخرى، فتفكر، فسترى أنه فُتح لك باب من التفكر لم يفتح لك قبل ذلك، فارجع بهذا على هذا، فسيؤول الأمر إلى قول الحسن: وحركنا القلوب بهما - يعني: بالتفكر والتذكر -، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار.

لا نريد أن نكون من أهل الغفلة، من الذين يرون خلق الله ﷻ، ولا يتفكرون، يرون السماء، ولا يتفكرون، يرون الأرض. . . ، يرون الموت، ولا يتفكرون، يرون آيات الله ﷻ، ولا يتفكرون، وهذا لا شك أنه صفة المعرضين: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] الإعراض عن الدين، الإعراض عن التفكر، الإعراض عن التأمل، الإعراض عن الاعتبار هذا لاشك يجعل القلب تغشاه الدنيا والذنوب.

العُلَمَاءُ يَذْهَبُون

من كلمات أبي الدرداء رضي الله عنه ووصاياه لأتباعه، بل وللأمة جميعًا: أنه قال للناس يومًا: (**مالي أري علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ تعلموا، فإن العالم والمتعلم شريكان في الأجر**)[1].

مالي أري علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ كم بكينا على ذهاب

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٢)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٣٢).

عدد من العلماء، ممن أدركنا، ولم نأخذ عنهم، أو ممن سمعنا عنهم، وددنا لو لقيناهم.

الناس يزهدون في العلماء؛ لأنهم بينهم، لأنهم أحياء، فإذا ذهبوا، تحركت قلوبهم لهم، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ عندنا الآن العلماء الذين هم صفوة الأمة، وفقهاء الأمة، وعلماء الأمة بالتوحيد، والحديث، والفقه، وعلوم الشريعة، نراهم يذهبون، ونرى الناس عندهم قليلين، لم؟ والشباب كثيرون، والملتزمون كثير، وكثير منهم عنده فراغ، ولا يقبلون على العلماء ليتعلموا، لم؟ الأمة اليوم بحاجة إلى العلماء الذين يعلمون ويربون، يقول أبو الدرداء: مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟

لا شك أن زمن الصحابة ﵃ العلماء فيه كثير، زمن التابعين يكثر الناس، لكن إذا كان عدد العلماء قليلًا، فإنهم لن يوفوا حاجة الناس، اليوم كم عدد العلماء؟ نقول: عشرة، عشرون، ثلاثون، خمسون، لكن بعد عشر سنوات كم يكون عدد الأمة؟ هنا في هذا البلد كم يكون عدد الناس؟ قد يصلون إلى ثلاثين، أربعين مليونًا مثلًا، من الذي سيعلمهم؟ هل البشر الواحد سيستطيع؟ هل العشرة، المئة سيستطيعون؟ أين حال الأمة شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، أين حالهم؟ لا شك هم بحاجة إليكم، بحاجة إلى من أخذ العلم عن أهله، فعلمه؛ لهذا أوصي نفسي وإياكم، وأن تبقى هذه الوصية في قلوبكم، تعلموا، وخذوا من العلماء اليوم؛ فإنه سيأتي زمان سترونه بعد عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين سنة يبحث الناس عن عالمٍ، وقد لا يجدون من هو متحقق في العلم والقول والعمل، من هو فقيه فيما يقول، انظروا يمينًا

وشمالًا في الدول الأخرى، ترون كثيرين يتكلمون في العلم، لكن كلامهم غير منضبط، والأقل النادر الذين كلامهم ينضبط مع الكتاب والسنة، لم؟ لأنه ذهب العلماء، ولم يتعلم الجهال، لم يتعلم الناس، والناس يتسعون، ويزداد عددهم، فخذوا بوصية أبي الدرداء، فلقد كان حكيمًا ناصحًا برًا شفيقًا؛ إذ قال: مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟ تعلموا، فإن العالم والمتعلم شريكان في الأجر.

ولا شك أن هذا مما تنفطر له القلوب، إذا تذكرنا قول المصطفى ﷺ: «**إن الله لا ينتزع هذا العلم انتزاعًا من صدور العلماء، ولكن بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا**»[(١)]، وهذه هي الرواية المعروفة، والرواية الثانية التي في البخاري وهي المحفوظة - «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[(٢)] ولا شك أن هذا مخيف؛ لهذا خذوا عن العلماء أيها الشباب، أيها الذين عندهم وقت، عندهم فراغ، عندهم حصافة، عندهم فهم، اتجهوا إلى العلماء، وخذوا عنهم، واصبروا سنين عددًا، فإن الناس - ولا شك - بحاجة إليكم في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨١)، من قول عمر رضي الله عنه: (**سمع عمر أبا هُرَيْرَةَ يقول يرفع العلم قال عمر أما إنه ليس ينزع قَالَ من صدور العلماء ولكن يذهب العلماء**).
وعند مسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنْ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالًا يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ**».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

قريتكم، في مدينتكم، في حيكم، الناس بحاجة إلى طلاب العلم أكثر من حاجتكم إلى الأكل والشرب.

مُرْ وَلَوْ لَمْ تَفْعَلْ

من أقوال أبي الدرداء رضي الله عنه التي فيها وصية قال: (**إني لآمركم بالأمر، وما أفعله، ولكن لعل الله يأجرني فيه**)[1] العالم قد تتزاحم في حقه الواجبات، فيأمر بأوامر كثيرة، ولا يفعلها هو، يأمر بأوامر من المستحبات أو من الواجبات التي زحمها ما هو أوجب منها، فلا يفعله، لكن رغبة في الأجر والتوجيه، وأن يعمل الناس بذلك، وهو مشغول بما هو أعظم أجرًا وأكثر مصلحة في الأمة، قال أبو الدرداء: (**إني لآمركم بالأمر، وما أفعله**) نأخذ من هذا أنه لا يلام العالم إذا أمر بشيء، ولم يعمله، إلا إذا خالف إلى محرم، أوترك واجبًا متعينًا عليه، قال: (**إني لآمركم بالأمر، وما أفعله، ولكن لعل الله يأجرني فيه**).

الفائدة الأولي: ما ذكرتها لك، من أن العالم لا يقول - أو طالب العلم - لا يقول: أنا لا أفعل هذا الشيء، لا آمر به؛ لأني لا أفعله؛ قال الإمام مالك رحمه الله عندما سئل: هل يأمر المرء بالمعروف، وينهى عن المنكر، وهو واقع فيه؟ قال: نعم، يأمر، وينهى، ولو لم يأمر وينهى إلا من يفعل، لقل الآمر والناهي.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١١١)، وأبو نعيم (١/ ٢١٣)، وابن عساكر (٤٧/ ١٤١).

وإذا أمرت فاجعل نفسك مخاطبًا بذلك قبل غيرك؛ لهذا نأخذ من هذه الوصية:

أولًا: أنه في حق بعض الناس قد تتزاحم الواجبات، ويتزاحم الفاضل مع ما هو أفضل، فهو يقدم ما يراه أفضل وأعظم أجرًا.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي أن لا ينظر إلى العالم في هذه المسألة كغيره، بل العالم قد يكون يأمر، ولا يفعل لعلة؛ ولهذا الإمام أحمد ترك مرة قيام الليل، بل ترك زمنًا قيام الليل، فقيل له ذلك قال: (**استعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة**)، أبو زرعة العالم الحافظ المعروف قدم من الري إلى بغداد، فاستعاض الإمام أحمد - عبر بالاستعاضة - قال: (**فاستعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة**)؛ لأن هذا مصلحته متعدية، وفائدته مؤقتة؛ لأن أبا زرعة سيذهب، وقيام الليل مصلحته قاصرة، وهو إذا نوى النية الصالحة، فالله ﷻ يأجره على ذلك.

إذًا فالمرء يقول الخير أينما كان؛ قال ابن القيم رحمه الله: (**وقد يأتي الشيطان إلى العبد، فيقول له: لا تتكلم حتى تفعل، فيذهب كثير من الخير بهذه الشبهة، فيأتي ما يعرض للعبد، فلا يعمل، ثم لا يتكلم، فلا ينتشر الخير**)؛ ولهذا ينبغي علينا أن نذكر بالخير في كل مكان، ونخاطب أنفسنا به مع مخاطبتنا لغيرنا، لعله بذلك ينتشر ويكون فيه الصلاح.

❁ ❁ ❁

بُغضُ اللهِ وَبُغْضُ العِبَادِ

من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كتب مرة إلى مسلمة بن مخلد، فقال له: (**سلام عليك، أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله، أبغضه الله، فإذا أبغضه الله، بغضه إلى عباده**)[١]، وصية عجيبة، وتذكير عظيم.

أولها في الرسالة قال: سلام عليك، وهذا من آداب الرسائل، آداب السلف في الرسائل أنهم يقولون في صدر الرسالة: سلام بالتنكير، لا بالتعريف؛ ولهذا مما لا يحسن أن تبدأ الرسائل بقول المرسل: السلام، وإنما الرسائل تبدأ بـ(**سلام عليك**)، أو(**سلام عليكم ورحمة الله وبركاته**)، تبدأ بالتنكير، وتختم بالتعريف، قال العلماء، أو قال بعض العلماء: هذا مأخوذ مما جاء في سورة مريم؛ فإن السلام إذا تكرر في مكان أو في مقام مرتين - مقام حديث أو مقام رسالة - فإنه يكون الأول منكرًا والثاني معرفًا[٢]، وفي سورة مريم ذلك، في الآية الأولي قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ [مريم: ١٥]، وفي الآية الثانية قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣]، فإذًا هذا من آداب الرسائل.

الثانية: قوله: عليك. ولم يقل: عليكم؛ لأن هدي السلف والأكثر من حالهم أنهم يخاطبون المفرد بالمفرد في السلام، والتسليم على المفرد يجوز

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٥١)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٤١).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٥٨).

أن يكون بالجمع : سلام عليكم . بالنظر إلى المخاطب - الملقى عليه السلام - وإلى من معه من الملائكة ؛ كما قال الفقهاء : ويقول للواحد : (سلام عليكم) له وللملائكة الذين معه ، لكن الأفضل أن يقال للواحد : (سلام عليك) ؛ مثل ما جاء في البخاري أنه أول ما ألقي السلام ، أن آدم عليه السلام قيل له : **«اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»**[1] ، دل هذا على أن المفرد يخاطب بـ (عليك) ، لا (عليكم) ، فإن عنى هو والملائكة ، فلا بأس .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه في وصيته هذه لمسلمة ابن مخلد : (**إن العبد إذا عمل بمعصية الله ، أبغضه الله ، فإذا أبغضه الله ، بغضه إلى عباده**) . درجتان تحرك بهما القلوب ، بعض الناس قد لا يتحرك قلبه تمامًا إذا ذكر بغض الله له ، ولكن يتحرك إذا ذكر بغض الناس له ؛ لهذا ينبغي على المذكر والداعية أن يحرك الناس بما يصلحهم .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (**إن العبد إذا عمل بمعصية الله ، أبغضه الله**) وهذا في حق الموحد المؤمن من أعظم ما يكره ويبتعد عنه أن يبغضه الله عز وجل ، الناس - أعني : المؤمنين - ما آمنوا إلا طلبًا لرضا الله عز وجل ، وإخلاصًا له ، وتوحيدًا ؛ فلهذا إذا كان في أمرٍ غضب الله عز وجل ، وفيه مقته وأليم عقابه ، فلاشك أنه يجب على المؤمن الموحد أن يسرع بالابتعاد عنه ، إذا عمل العبد بمعصية الله ، أبغضه الله . يعني : إذا داوم عليها ، وأصر ، أما إذا كان مذنبًا

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦) ، ومسلم (٢٨٤١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

مستغفرًا، مذنبًا تائبًا، إذا أذنب، رجع، إذا أذنب، تاب، إذا أذنب، استغفر فإن هذه من علامات السعداء؛ كما جاء في الأثر: (**مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ**)(١) يعني: أن العبد إذا استغفر من الذنب، ثم غلبته نفسه، فعاد إليه بعد زمن، فاستغفر ثانية لا يعد مصرًا؛ لأنه حين استغفر كان صادقًا في طلب المغفرة.

فإذًا هذه الوصية تبين لك أن المعاصي سبب بغض الله ﷻ؛ ولهذا إذا أبغض الله العبد، فإن لبغض الله للعبد أو للعباد آثارًا شرعية وآثارًا كونية:

فإن من الآثار الكونية: أن يحرم الرزق؛ كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»(٢)، فهذا من الآثار.

من الآثار أنه يبتلى في نفسه بأمراض؛ لتكون كفارة؛ لأن الله ﷻ يحب أن يلقاه عبده، وليس عليه خطيئة، يحب أن يبتليه في الدنيا؛ حتى لا يعذبه في الآخرة، فإذا كان مقيمًا على المعصية، فربما ابتلاه في الدنيا بأمراض وشدائد تكون كفارة له، فيكون خيرًا له.

لكن ينبغي، بل يجب على العبد أن يبتعد عن أسباب غضب الله، وعن أسباب العقوبات بأنواعها؛ فالمعاصي لها آثار - أيضًا - شرعية، يعني: أن يكون العبد غير موفق، فإن العبد إذا عمل بالحسنة، وفق لحسنةٍ مثلها، وإذا عمل بالمعصية، خذل بأن يكون عنده معصية أخرى.

ولهذا قال من قال من السلف: (**إذا رأيت العبد يعمل بالحسنة، فاعلم أن**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٥٥)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل بالسيئة، فاعلم أن لها عنده أخوات)(١)
يعني: أن العبد يعمل بالمعصية بطوعه واختياره، ولا يستغفر، ويقيم عليها، يخذل بأن يزاد عليه؛ كما قال ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

إذا عمل العبد بالمعصية أو بالخطيئة، نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واسترجع، صقلت، وإن أقام، نكت أخرى، حتى تكون القلوب قلبًا أسود، وقلبًا أبيض، إذًا هذا مما يجب علينا أن نحذره.

أيها الإخوان، أيها الأتقياء، أيها المؤمنون بعامة، أيها الحريص على نفسه: إياك والمعصية بجميع أنواعها، وإذا غلبت على نفسك، وأصابك ما أصاب البشر، فاجعل نفسك سريعًا تائبًا؛ يقول ﷺ: «**وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»(٢) أكثر من الصالحات، واستعجل في التوبة والإنابة والاستغفار، لا تحسننَّ المعصية في نفسك.

هل تنتظر، ثم تنتظر، وتنتظر إلى أن يفسد القلب؟! تسمع، ثم تسمع، وتسمع، وتسمع، إلى أن يفسد القلب؟! تتكلم بالغيبة والنميمة، ثم تتكلم، وتتكلم إلى أن يفسد القلب؟! فإن العبد له مع المعصية أحوال، يستسهل بها بداية، ثم يقع في آخر أمرها.

ولهذا نهي عن النظر مثلًا، لم؟ لأن النظر وسيلة لمواقعة الكبيرة التي هي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٧)، وابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٢٦٩)، عن عروة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الزنا؛ لأن هذا وهذا يليه هذا، يليه هذا إلى أن يقع في الكبيرة -والعياذ بالله- قال ﷺ: «**لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**»(١) يعني: أن الثانية عليك، ليست لك، فكيف بمن يقيم على نظر، ونظر، ولا يخشى تقلب القلب؟ إذا ابتليت، فأكثر من الاستغفار، أكثر من الإنابة، اطلب من ربك صلاح القلب وصلاح الجوارح؛ فإن في ذلك الخيرَ لك في العاجل والآجل.

كذلك المعاصي: من أعظم آثارها أن تسلب عن العبد معية الله ﷻ الخاصة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، والذي يقيم على المعصية ليس من المتقين، الذي يعصي، ويصر عليها، ويقيم عليها ليس من المتقين، ما خاف الله ﷻ، واتقى عذابه وأليم عقابه، واتقى غضبه ﷻ.

لهذا من يقيم على المعصية، يحرم نفسه أعظم ما يلجأ إليه العبد، وهو معية الله ﷻ، ومعية الله الخاصة لعباده المتقين ما معناها؟ معناها: معية التوفيق، معناها: معية النصر، معناها: معية التأييد، معناها: معية الإحسان للعبد وكل مقتضيات العناية بالعبد والإحسان إليه، الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]؛ لهذا إياك والمعصية؛ فإن المعصية -كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه- سبب لغضب الله ﷻ، وسبب لبغض الله ﷻ ومقته، وإذا أبغض الله ﷻ العبد، يبغّضه إلى عباده،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (١/ ١٥٩)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهناك حالتان: رضا الله ﷻ عن العبد ومحبته له فـ«**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»[١].

وإذا أبغض الله ﷻ عبدًا من عباده بغضه إلى خلقه؛ ولهذا جاء في بعض الآثار أن الله ﷻ قال: (**إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإني إذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد**)[٢] الناس يستسهلون بالمعصية حبًا للدنيا، والمعصية شؤم كلها، فاحذر، ثم احذر، ثم احذر من الركون إلى الدنيا والتلذذ بالمعاصي، في المباح شيء كثير يغنيك، ويجعلك من السعداء؛ لهذا الذين يسعدون أنفسهم بالطاعات هم أعظم الناس لذة في الدنيا «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»[٣] الراحة فيها، الذين يسعدون أنفسهم بالمباح هم من المتلذذين في الدنيا والسعداء، قد يحضر لبعض الناس أن اللذة والسعادة والتلذذ بالدنيا يكون بالمعصية، غلط كبير، أولياء الله وأحبابه والصالحون من المتلذذين السعداء بالدنيا وما فيها، ولكن بالمباح، وهم سعداء فرحون، وأهل المعصية شؤمهم عليهم، ومن شؤم المعصية أن يكون صاحبها ذليلًا غير قويٍّ في لفظه، غير قويٍّ في عمله؛ ولهذا قال بعض التابعين في أصحاب المعاصي: (**إنهم وإن طقطقت بهم البراذين، وهملجت بهم البغال إن ذل**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٤١)، عن وهب بن منبه رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (٥/ ٣٦٤)، من حديث سالم بن أبي الجعد رضي الله عنه.

المعصية في رقابهم)(١) تأتي إلى شخص تهابه وله شارة، وتفاتحه فيما بينك وبينه بإصلاح معصية، فتجده ضعيفًا، صاحب المعصية دائمًا ضعيف، ضعيف في لفظه، ضعيف في عمله، ضعيف في إقدامه، ضعيف الشخصية، ضعيف فيما يزاول، دائمًا يكون ضعيفًا إلا أن يكون مبتلىً بما ابتلاه الله ﷻ به؛ لهذا المعصية في عباد الله سبب للذل، سبب للبغض، سبب لعدم التوفيق.

لهذا نحرص على هذه الوصية من أبي الدرداء رضي الله عنه في أن لا نقدم على المعصية، وإذا غلبت المرء نفسه، فعمل بمعصيةٍ، فليكثر من الاستغفار، ولينب إلى التوبة.

آخِرُ وَصِيَّةٍ الأَذَان

آخر وصية، أو آخر كلمة نقلبها من كلمات أبي الدرداء، فكلماته كثيرة ووصاياه متعددة، ولكن الوقت إنما يسمح بمثل ما ذكرت لكم، يقول: **(لو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدول، رغبةً فيه، وحرصًا عليه)**(٢) يعني: بالتناوب، هذا يلي هذا، هذا يلي هذا، يقول: أنت أذِّن يومًا، ما أسمح لك أكثر، والناس يتناوبون عليه؛ حرصًا عليه، والأذان فيه فضل عظيم: **«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ**

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٦)، والجواب الكافي (ص٣٨)، والبداية والنهاية (٩/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٤٠).

يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا»[١] كما قال المصطفي ﷺ، لكن هذا لمن أخذ الأذان بحقه، أما المؤذن المفرط في هذه الأمانة، فهو متوعد، الأذان أمانة الوقت، ما معني الأذان؟ أن يؤذن المؤذن بإعلاء ذكر الله، ويعلن للناس أن الصلاة التي هي كتاب موقوت ابتدأ وقت أدائها، فإذا كان المؤذن يفرط في هذا الواجب في هذه الأمانة الشرعية التي قال فيها النبي ﷺ - فيما يروى، والحديث في إسناده مقال -: «**الْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ**»[٢] مؤتمن على الوقت، ومؤتمن على العورات، ومؤتمن على الحال.

المؤذن حاله عظيمة في الأجر، ولاشك أن الأجر على قدر المشقة؛ لأن وضعه، ومتابعته للأذان، وحرصه عليه وعلى الوقت عظيم، فكان الأجر عظيمًا، لأنه يعلن ذكر الله ﷻ.

إذًا: فليس من اللائق، بل وليس من الجائز شرعًا، بل من المحرم أن يفرط المؤذن في أمانته، الأذان أمانة، إنما يأخذها من يقوم بهذا الواجب وهذه الأمانة، أما أن يؤذن مرة بعد دقيقتين، ثلاث، مرة بعد خمس، لا يتأكد، متى ما فرغ أتى، كان من المؤذنين الذين أدركنا من تقلقه نفسه بالدخول إلى المسجد قبل الأذان بنصف ساعة؛ خشية من أن يعتريه عارض، فيمنعه من الوصول إلى المسجد، تقلقه نفسه؛ حتى يأتي، وينظر الوقت، ثم يؤذن.

إذًا: فالأذان فضله عظيم، لو يعلم الناس ما في الأذان، لأخذوه بالدول،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٧)، والترمذي (٢٠٧)، وأحمد (٢/ ٢٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال ﷺ: «**ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا**» يعني: بالقرعة؛ من شدة فضله، «**الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١)، لكن الأذان أمانة؛ فلهذا هذه الوصية من أبي الدرداء منها وصية أخرى للمؤذنين بأن يحرصوا على الوقت، بأن يتقوا الله في هذه الأمانة، الأذان ليس مغنمًا، الأذان مغرم، حسابه شديد في أن تؤذن في الوقت، إذا أذنت قبل الوقت بدقيقتين من يسمعك في البيوت من المرضى ومن النساء ونحو ذلك ربما صلى بعد ما تبدأ في الأذان، فيكون دخل في الصلاة قبل الوقت، تؤذن بعد خمس دقائق، عشر دقائق حرمت بعض الناس من أداء الصلاة في أولها، ويكون لهم رغبة في ذلك، وفي ذلك حكم كثيرة.

لهذا يجب على المؤذن شرعًا أن يتقي الله، وأن يعلم أنها أمانة، وأنه محاسب على ذلك، فعليه أن يؤدي الأمانة كما يجب، فهو ليس مغنمًا، ليست المسألة مسألة مكافأة ومسألة رزق من بيت المال، وبيت يسكن فيه، لا. المسألة وراءها حساب، هي أمانة، فليتق الله المؤذن، وإذا قام بأمانته، فنبشره بالأجر مع الإخلاص بالأجر العظيم عند الله ﷻ، «**الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

أسأل الله ﷻ أن ينور قلبي وقلبكم بهدي كتابه، وهدي السنة، وهدي السلف الصالح، وأن يجعلنا من المتبعين لما أنزل لله ﷻ على رسوله، وأفهمنا إياه صحابة رسول الله ﷺ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعل قلوبنا مطمئنة للإيمان، حريصة عليه وعلى أسبابه، وأن يغفر لنا ذنوبنا، اللهم وفقنا ووفق

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

ولاة أمورنا لما تحب وترضى، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم نسألك أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل الطاعة، ويعافى فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالحق والمعروف، وينهى فيه عن المنكر؛ إنك سميع الدعاء، اللهم واحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، اللهم ويسر لنا كل خير، وباعد بيننا وبين كل شر. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة من معين الإمام أحمد

محاضرة في مكة المكرمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضل إلى الهدى، وينقذونهم من العمى، ويحيون بكتاب الله الموتى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه! وكم من ضال تائه قد هدوه! فما أعظم أثرهم على الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن دين الله تحريف المبطلين، وتأويل الجاهلين، وانتحال الضالين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وماروا في الكتاب.

أحمد الله ﷻ، وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا، أما بعد:

فأسأل الله ﷻ لي ولكم العلم النافع، والعمل الصالح، والقلب الخاشع اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا من العلم والعمل والهدى والسنة يا أرحم الراحمين.

أيها الإخوة هذه المحاضرة عُنوِنَت بـ(**من معين الإمام أحمد**) ويعنى بهذا

العنوان أن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، المولود سنة أربع وستين ومئة، والمتوفى سنة إحدى وأربعين ومائتين في شهر ربيع الأول[١] أن ما أثر عنه هو كالماء المعين الذي يرده الظمآن، فيرتوي، ويرده الذي أثقلته الذنوب، فيغتسل منها، ويرده أصناف الناس، فيصدرون عن ذلك مُرتوين، بالغين أربهم وحاجتهم.

إِمَامُ هُدَى

والإمام أحمد أجمع الناس على أنه إمام هدى، ورأس أئمة أهل السنة والجماعة، وأن محبته ودراسة سيرته علم على محبة ما اندرس من سنة النبي ﷺ، فكان الناس في ذلك الزمن يمتحنون بمحبة الإمام أحمد، فمن أحبه، فهو صاحب سنة، ومن قدح فيه، فهو صاحب بدعة وضلالة، وليس هذا بعجيب، فسيرة الإمام أحمد رحمه الله سيرة من أول يوم فيها إلى آخر يوم فيها سيرة صاحب سنة، وصاحب اتباع، سيرة إمام محدث فقيه، عالم أمضى ليله ونهاره في طاعة الله وعبادته، كان الإمام أحمد رحمه الله منذ كان شابًا، وهو يرى عليه آثار النُسُك.

(١) انظر: حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، وتاريخ بغداد (٤/ ٤١٢)، وطبقات الحنابلة (١/ ٥)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ٢٥٢)، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧).

آثَارُ النُّسُكِ

قال معروف الكرخي ﷺ: (**رأيت أحمد بن حنبل فتى عليه أثار النُسُك، فسمعته يقول كلامًا جمع فيه الخير**)(١)، وهذه الكلمة وصف لهديه إذ كان فتى - يعني: إذ كان شابًا -، وكان عليه آثار النسك، ويعنى بالنسك: العبادة والطاعة، والعبادة والطاعة أثرها ليس في الهيئة واللباس فقط، بل أثرها في الكلام، والسلوك، والتعبد، والطاعة، وإيثار الآخرة على الأولى.

مَشْغُولٌ بِالرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ عَنِ الزَّوَاجِ

ذكروا أن الإمام أحمد قال عن نفسه: (ما تزوجت إلا بعد الأربعين)(٢)، قال أصحابه: لأنه كان مشغولًا بالرحلة في طلب العلم، قبل ذلك رحل إلى مكة، ومنها إلى صنعاء، وله في ذلك قصة، وهو أنه ذهب مع يحيى بن معين صاحبه إلى الحج، وقال ليحيى: إذا فرغت من الحج، فإني سأذهب إلى اليمن؛ للقاء عالم اليمن ومحدثها عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المتوفَّى سنة مئتين وعشرة، فلما وصل إلى مكة، كان عبد الرزاق قد حج تلك السنة، فلقيه يحيى، وهو يطوف، فعرفه، وسلم عليه، وقال يحيى لعبد الرزاق - وكان يعرفه - قال: هذا أحمد بن حنبل، فسُر به عبد الرزاق، وقال: قد بلغنا عنه أنه صاحب خير، فلما صليا ركعتي الطواف، قال يحيى للإمام أحمد:

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٠٩).

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٤٠٢).

يا أحمد قد ذهبت عنا مُؤنةُ السفر إلى صنعاء؛ فهذا عبد الرزاق، فهلم بنا نلازمه؛ حتى نأخذ عنه الحديث، فقال أحمد ليحيى بن معين: قد مضت نيتي، ولن أخلفها، فسأرحل إلى صنعاء[١]، وهذا من أثر الرغبة في التنسك والتعب في طلب العلم، والرحلة إلى صنعاء في ذلك الزمان ليست على سيارة فارهة، أو في طائرات أو نحو ذلك، وإنما كانت من المشقة بالدرجة التي لا توصف لهذا.

قال معروف في هذه الكلمة: (رأيت أحمد بن حنبل فتى عليه آثار النسك)، وهذا في الحقيقة هو الذي ينبغي أن يكون عليه الشباب والفتيان: في أنهم يعاهدون أنفسهم في إصلاحها في فترة الفتوة، في فترة الشباب؛ لأن هذه الفترة إن لم يقم عودها على الصلاح والنسك، فإنها تستعصي بعد ذلك، إلا ما شاء الله ﷻ، ومن تنسك في شبابه، في صباه، رجي له الثبات، وهذا يعني أن الانتساب إلى التدين وإلى الطاعة ليست كلمة أو انتسابًا هكذا بالفخر أو بالظاهر، وإنما لابد فيه من التنسك، لابد فيه من العبادة، لابد فيه من الطاعة.

صَاحِبُ الحَدِيثِ لا يَتْرُكُ قِيَامَ اللَّيلِ

ولهذا يأتي فيما نستقبل أن الإمام أضاف مرة أحد أصحاب الحديث وهو: عبد الصمد بن سليمان، فلما أضافه في بيته، وحان موعد النوم، قرب له ماء ليتوضأ منه، أو ليستعمله، ونام، فلما أتى الصباح، ورأى الإمام أحمد

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٣٥).

أن الماء لم ينقص، فسأله، فقال: لم أستعمل الماء.

قال: صاحب حديث، وليس له ورد في الليل؟![(١)]، يعني: إلى الصباح لم تقم الليل، ولم تتعبد، ولم تصل ركعتين؟!

قال: إني مسافر.

قال: ولو كنت مسافرًا. يعني: أين الوتر؟! أين بعض الصلاة؟!

وهذا لا شك أنه إذا كان مهمًا في ذلك الزمن في التربية وفي التوجيه، فنحن بحاجة اليوم إليه - خاصة الشباب الذين يطلبون العلم - أو الذين يتمسكون بالهدى، أو الذين عليهم آثار الصلاح، أو الذين يرغبون في الخير، لابد من قسر النفس على النسك، لابد من قسر النفس على الطاعة، والنفس إن طوعتها، أطاعت، وإن تركتها، فهي أمارة بالسوء؛ ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: **«مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»**[(٢)]، **«إِنَّما العِلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإِنَّما الحِلمُ بِالتَّحَلُّمِ، ومَن يَتَحَرَّ الخَيرَ يُعطَه، ومَن يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَه»**[(٣)].

فإذًا هذا الوصف لإمام أهل السنة يدل على نشوء في طاعة الله، وفي التنسك، حتى كان يقسر نفسه على كثير من أنواع الزهد والمتاعب؛ حتى تستقيم نفسه على طاعة الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ١٦٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢١٦)، وتاريخ دمشق (٥٧/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط(٣/ ١١٨)، وفي مسند الشاميين(٣/ ٢٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤)، والخطيب في تاريخه (٥/ ٢٠١)، وابن عساكر في تاريخه (١٨/ ٩٧)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

إِذَا ذُكِرَ العِلْمُ تَكَلَّمَ

قال أبو داود سليمان بن الأشعث - صاحب السنن، تلميذ الإمام أحمد، وقد روى عنه مسائل كثيرة مطبوعة - قال فيما وصف فيه الإمام: (**ما رأيت مثل أحمد بن حنبل؛ لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم**)(١)، وهذه الصفة لا شك أنها صفة الأئمة المتقين، الذين جعلوا حياتهم جدًا فيما ينفع الناس، أما الذي يتكلم في كل شيء، فهذا ليس عليه سمت أهل العلم، ولا سمت أهل الصلاح؛ ولذلك ينبغي أن يعرف الرجل الصالح الذي علق قلبه بالآخرة أن يعرف بصمته إذا صمت، وبكلامه إذا تكلم، فيكون كلامه في خير، ويكون صمته عن شر؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

الإمام أحمد رحمه الله إذا تكلم، ربما اجتمع مع إخوانه، ربما اجتمع مع أصحابه، ربما اجتمع مع تلامذته، ربما اجتمع مع الناس، فتكلموا في أنواع من الكلام، لكن هو لا يتكلم إلا إذا كان كلامه في خير، وهذا الخير هو ما يعطي فيه علمًا، أو يأمر فيه بمعروف.

قال: (**فإذا ذُكِرَ العلم تكلم**)، وهذه في الحقيقة جربت، وهو أن القلب لا يمكن أن يعيَ أشياء كثيرة من المتناقضات في شخصية الإنسان، فطالب العلم ينبغي له أن يوطن نفسه على أن يكون للعلم أولًا وآخرًا، وأن يبتعد عن

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٦٤)، وابن عساكر في تاريخه (٥/ ٢٩١).

اللهو وعن إضاعة الوقت، وأنه إذا فكر، فكر في العلم، وإذا تكلم، تكلم في العلم، وهذا يعطي حياته إقبالًا على العلم ورغبة فيه؛ ولهذا يختلف منطق فلان عن منطق الآخر، لم؟ لأن هذا عاش لغة أهل العلم، عاش مع الصحابة، عاش مع التابعين، عاش مع مالك والشافعي وأحمد وسفيان، عاش مع البخاري، عاش مع الأئمة: كابن خزيمة، وشيخ الإسلام، ابن تيمية، وعاش مع أئمة الإسلام، فمنطقه منطقهم؛ لأنه يحاورهم، ولأنه يغرف من بحار علمهم.

أما إذا كان السماع من كل ما يتكلم فيه الناس، ويتكلم - أيضًا - بما يسمع، يقرأ ما هب ودب من كل شيء، ويتكلم بما يقرأ، فلابد إذًا أن يؤثر هذا على قلب المسلم بعامة، وأن يؤثر على قلب الخاصة وطلاب العلم، وهذا يعني أن المرء ينبغي أن يلاحظ نفسه، وألا يجعل قلبه موردًا لكل شيء، ولكن يحدد طريقه، ويبين لنفسه منهجًا، ثم يسلك ذلك، وأعظم المناهج منهج ورثة النبوة الذين قال فيهم ﷺ: «**ألا إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[(١)]؛ لهذا ما أعظم أن يفكر المرء إذا فكر في دينه، في العلم، فيما ينتفع به! وإذا تكلم، تكلم في أمرٍ ينفعه في دينه، في أمرٍ بمعروف، في صدقة، في خير، في تعليم علم، في تعلُم، حتى في محاوراته يكون راغبًا في طلب العلم؛ ولهذا يسمو المرء إذا قوي على نفسه، والنفس ترغب في كل شيء، فلا تجعلها كما ترغب، بل اجعلها كما يطلب الله ﷻ منك.

---

(١) سبق (ص ٢٤).

كَانَ يَخَافُ مِنَ الاِسْتِدْرَاجِ

(المروزي) كان من أصحاب الإمام أحمد، وتلامذته الذين نقلوا عنه مسائل كثيرة، قال للإمام أحمد رحمه الله، ورحمهم أجمعين -: **(يا أبا عبد الله ما أكثر الداعي لك! يعني الذين يدعون لك، فالتفت إليه، فقال: أخاف أن يكون استدراجًا)**(١).

يقول له تلميذه - وهو صادق فيما قال -: **(يا أبا عبد الله ما أكثر الداعي لك! قال: أخاف أن يكون استدراجًا)** هذه الكلمة لا تكون إلا من قلب خاف الله عز وجل، واتقاه، وخشي لقاءه، وعلِمَ أن القلب يتقلب، وعلم - أيضًا -أن الدنيا ليست بشيء، وأن الآخرة هي المقبلة، أكثرنا بل كلنا إلا من شاء الله إذا ذُكر له ثناء الناس عليه، أو دعاء الناس له، فرح واستبشر، وربما أعجبته نفسه، والإمام أحمد - مع معالجته لنفسه - قال: **(أخاف أن يكون استدراجًا)**، وكلمة أخاف هذه؛ لأجل أن قلبه جمع ما بين الرجاء والخوف، فهو يرجو، ولكنه يخاف، وإذا سمع بشيء مما فيه ثواب للعمل، قال: **(أخشى أن يكون استدراجًا)**، يعني: أن الله عز وجل يستدرجني بذلك؛ ليرى هل أعجب بنفسي أم لا؟ يستدرجني الله عز وجل؛ كما وصف ربنا عز وجل نفسه بأنه استدرج أقوامًا، يقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣] فخسروا.

---

(١) انظر: الورع عن الإمام أحمد (ص١٤٩) قال المروزي: **(قلت لأبي عبد الله ما أكثر الداعين لك فتغرغرت عينه وقال أخاف أن يكون هذا استدراجًا)**.

فإذًا هذا هو الذي يجب أن يكون عليه قلب الموحد، قلب المؤمن، أن يكون دائمًا خائفًا، واليوم الكلام في فتح باب الرجاء كثير، ولكن الناس عاشوا في الرجاء، ودخلوا في الرجاء، حتى قلَّ أو ندر الخوف فيما بينهم، كلٌ يرجو، يُذكر ثواب الحسنات وثواب الطاعات، وهذا يعمل، وهذا يعتمر، وهذا يصلي، وهذا يتلو، وهذا يفعل، وكلها في أبواب رجاء، لكن أين الخوف؟ أين الخوف من الجليل ﷻ، وتقدست أسماؤه، والله ﷻ وصف ملائكته الذين لم يدخلوا تحت التكليف، الذين هم عباد نَفَسُهم تسبيح، وعملهم طاعة؛ كما قال ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(١) وصف الله الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

فإذًا ليفتش كلٌ منَّا نفسه مع قول الإمام أحمد هذا، أين الخوف من قلوبنا؟! فرَّطنا في واجبات، وكلٌ حسيب نفسه، فأين الخوف؟! عملنا ذنوبًا، والله ﷻ هو المطلِّع عليها، فأين الخوف؟! فرَّطنا في حقوق الخلق، فأين الخوف؟! فرَّطنا في حقوق إخواننا المؤمنين بالغيبة، والنميمة، والحقد والحسد، والضغينة، فأين الخوف من الله ﷻ؟! ليحرِّك كلٌ منا نفسه في عمله بالخوف؛ فإن الخوف يجلب على القلب الخشوع والخضوع والرغبة في الاستعداد للقاء الله ﷻ، هذه كلمة عظيمة، ما أكثر الداعي لك! قال: (**أخاف أن يكون استدراجًا**)، فرحمه الله، ما أعظم بصيرته! وما أعظم شأنه!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

كان أكثر جلوس الإمام أحمد جاعلًا رأسه بين ركبتيه[١]، وكان يقال: هذه جلسة المتخشِّع؛ لأنه يفكر في نفسه، ويفكر في مآله، ويبتعد عن الجلسة التي فيها نوع تعاظم ورؤية للنفس، ولما حضرته الوفاة، ورأى الطبيب بوله وكثرة الدم فيه، قال: هذا لا يكون إلا من قلب خائف[٢]، يعني: أن فترة الخوف جعلته كذلك.

مَا أَنْكَرَتْهُ العُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَهُوَ مُنْكَرٌ

من كلماته رحمه الله، ورفع درجته، وجزاه عنا وعنكم خير الجزاء، وأجزل له، ورفعه أنه قال: (**ما أنكرته العلماء من أهل السنة، فهو منكر**)[٣]، يعني: أن العلماء من أهل السنة المرجع إليهم فيما ينكر وما لا ينكر، وما أنكرته علماء السنة في أبواب العقيدة، فهو المنكر، ما أنكرته علماء السنة في أبواب السلوك، فهو المنكر، ما أنكرته علماء السنة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو المنكر، يعني أن المرء لابد له أن يرجع في معرفة السنة ومعرفة المنكر إلى علماء السنة، فما أنكرته العلماء من أهل السنة، فهو المنكر الذي لا شك فيه، وهذا لا شك من الإمام أحمد فيه تربية عظيمة لكل

(١) انظر: الإقناع (١/ ١٩٤)، والآداب الشرعية (٣/ ٤٠٣).

(٢) انظر: مناقب الإمام احمد لابن الجوزي(ص٥٤٤): (**هذا الرجل قد فتت الحزن والغم قلبه وجوفه**).

(٣) انظر: عقيدة الإمام أحمد بن حنبل (ص٦٤)، ومناقب الإمام أحمد (ص٢٢٨)، والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص٥٦)، (**وما أنكرته العلماء من أهل السنة من الشبهة فهو منكر**).

مسلم، في أنه يكون دائمًا متبعًا، مقتديًا بعلماء أهل السنة - يعني: الذين يهتمون بسنة النبي ﷺ - في أبواب التوحيد والعقيدة بجميع أبوابها، وفي أبواب العبادات والمعاملات، وفي أبواب السلوك، وفي أبواب التربية، وفي أبواب التعامل والمواقف في المجتمع، أو مع الناس، هذا المرجع فيه إلى علماء أهل السنة.

وهذا يخلي قلبك من رؤية الهوى، يخلي قلبك من تحسين ما رآه عقلك حسنًا، ومن تقبيح ما رآه عقلك قبيحًا، فلابد إذًا من اتباع، لابد إذًا من رجوع إلى أهل العلم، إلى أهل السنة في الفتوى.

ما أنكرته علماء السنة، فهو المنكر، يعني: لا تنكر أنت بما تراه، ولا تُعرِّف أنت بما تراه، بل لابد من رجوع إلى العلماء من أهل السنة فيما تأتي وما تذر، وهذا - لا شك - لم؟ لأن علماء أهل السنة هم ورثة الأنبياء، وهم الدالون على الشريعة، وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه: (**الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضل إلى الهدى، ويبصرونهم من العمى، ويحيون بكتاب الله الموتى...**)[١].

فإذًا هذا تقعيد في المرجعية، في سلوكك، لا يكن الأمر فيما تأتي وما تذر: هل هذا منكر، أم ليس بمنكر؟ هل أفعل كذا، أو ما أفعل؟ هل هذا

---

(١) انظر: عقيدة الإمام أحمد بن حنبل (ص٥٩)، ومناقب الإمام أحمد (ص٢٢٤)، (**الحمد الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى وينهونه عن الردى ويحيون بكتاب الله الموتى وبسنة رسول لله ﷺ أهل الجهالة والردى**).

الأمر صحيح، أو ليس بصحيح؟ هذا لا يكون اجتهادًا يجتهد به المسلم فيما يراه، بل لابد فيه من رجوعٍ إلى علماء أهل السنة، لم؟ لأن هذه الأبواب من أبواب العقيدة ومن أبواب الدين، فأبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلٌّ يدّعيها: ادّعتها الخوارج، فخرجوا بها على الأئمة، وادّعتها المعتزلة، فحسنوا بها الخروج على الأئمة، وكذلك ادّعاها طوائف، فخرجوا بها على الأئمة، لكن الشأن فيما قال علماء أهل السنة إنه السنة، وما قال علماء أهل السنة إنه المنكر.

حُبُّ أَهْلِ السُّنَّةِ

ومن كلماته في علماء أهل السنة أنه قال: **(أَحِبَّ أهل السنة على ما كان منهم)**[(١)] يعني: أن الحب يكون على السنة، تُحب لا على زهادة، لا على محبة دنيوية، لا على قرب، إنما الحب الحقيقي أن يكون حبًا لصاحب السنة، وقد يكون صاحب السنة عنده بعض المنكرات، ولكنه في اعتقاده وصفائه وتسليمه للكتاب ولسنة النبي ﷺ، تجد أنه صاحب قلب سليم من البدع والشبهات؛ لهذا قال: **(أحب أهل السنة على ما كان منهم)**، وهذا يعني بالمفهوم أن المرء يبغض أهل البدع - أيضًا - على ما جاء منهم؛ فإنهم لو جاءت منهم عبادة، وجاء منهم زهد، وجاء منهم بعض العلم، فإنهم يبغضون، لا لهذه الأمور، ولكن يبغضون؛ لأنهم خالفوا سنة الحبيب محمد ﷺ، ولهذا كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: **(يا حبذا، نوم الأكياس**

(١) انظر: عقيدة الإمام أحمد بن حنبل (ص٦٦)، ومناقب الإمام أحمد (ص٢٢٩).

وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم؟ ولمثقال ذرة من بر مع تقوى ويقين، أعظم من أمثال الجبال عبادةً من المغترين)(١)

قال العلماء في شرح كلام أبي الدرداء هذا: إن أبي الدرداء يحبذ النائم الذي لا يقوم الليل، ويحبذ المفطر الذي لا يصوم النفل، لم؟ يقول: لأن هذا مع السنة، ومع اليقين هو على خير، قال: **(ولمثقال ذرة من بر مع تقوى ويقين أعظم من أمثال الجبال عبادةً من المغترين)** يعني: أن المرء إذا كان على يقين - يعني: على سنة -، فإن عمله القليل يبارك الله ﷻ فيه، وأيضًا قد يكون العبد مكثرًا من العبادة، ولكنه صاحب غرور، مغتر بعبادته، مغتر بكثرة تلاوته، مغتر بكثرة صيامه، ينظر إلى الناس، وكأنهم لا شيء، ولا يدرى كيف المآل؟ ولا يدرى إلام الخاتمة؟ وقد قال ﷺ: «**فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ**»(٢).

لذلك كان كثير من السلف إذا تذكر الكتاب السابق بكى، وقال: قلبي معلق، ماذا سبق لي؟ وآخرون إذا تذكروا الخاتمة في هذا الحديث: «**فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**»، إذا تذكروا الخاتمة، بكوا،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (١٣٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢١١)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

ويقولون: قلوبنا معلقة بالخواتيم، بماذا يُختم لنا؟[(١)]، وهذا يعني: أن المرء إذا تعبد، فإنه يتعبد مع الخوف أن لا يقبل الله ﷻ منه؛ لهذا قال بعض السلف: لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم واحد، لم يكن غائب أحب إلي من الموت، أتدري ممن يتقبل الله؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][(٢)].

إذًا في كلمة الإمام أحمد هذه تعليق لكل مسلم بأهل السنة، بأهل الاعتقاد، بأهل التوحيد، لأهل العقيدة الصحيحة الذين لا يعارضون السنة بعقولهم، لا يعارضون السنة بأهوائهم، إذا شيء مضى عليه الدليل من كلام النبي ﷺ، الذي هو بيان للقرآن، أو مضى عليه عمل الصحابة أو أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم -، فهو الحق الذي من أخذ بغيره، فهو على شفا هلكة، وكذلك العلماء الذين اقتفوا أثرهم، وعملوا بسنتهم، وساروا على هديهم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٢١)، والبيهقي في الشعب (١/ ٥٠٨)، وابن عساكر في تاريخه (٢٠/ ١٩١)، عن السري السقطي **(قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم وقلوب المقربين معلقة بالسوابق أولئك يقولون: ماذا من الله سبق لنا؟ وهؤلاء يقولون: بما يختم لنا)**.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٢٥٦)، وابن عساكر في تاريخه(٣١/ ١٤٦)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ظَهَرَتِ البِدَعُ فَأَيْنَ طُلاَّبُ الحَدِيثِ؟

من كلماته رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: (**ما أعلم الناس في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان. قالوا له: ولم؟ قال: ظهرت البدع، فمن لم يكن عنده سنة أو قال حديثًا، وقع فيها**)[١]، لماذا يقع في البدع من لم يكن صاحب سنة أو صاحب حديث، لماذا؟ لأن البدع محبوبة للنفس، من جهة أن البدع يعملها أصحابها لِتُقرِبهُم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

مثل: لما جاء ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى قوم - وكانوا مجتمعين -، فيقول أحدهم لأصحابه: سبحوا مائة. فيسبحون مائة، ثم يقول: احمدوا مائة. فيحمدون مائة، ثم يقول: كبروا مائة. فيكبرون مائة، وبين أيديهم حصى لذلك، فأتاهم ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما أخبر بذلك، وأنكر عليهم[٢]، وقال: **لأنتم أهدى من صحابة رسول الله ﷺ، أو أنتم على شعبة ضلال، هذه آنية رسول الله ﷺ لم تُكسر، وهؤلاء أزواجه لم يتوفين** - يعني: أن العهد قريب بالنبي ﷺ -، **قالوا له - وكانوا من الصالحين -: يا أبا عبد الرحمن الخير أردنا** - يعني: ما أردنا إلا الخير: نُسبح، ونُهلل، نُسبح مائة، نحمد مائة، نكبر مائة، والأحاديث التي في التسبيح والتحميد مائة في كل يوم تعلمونها - قالوا: يا أبا عبد الرحمن الخير أردنا.

قال: كم من مريد للخير لم يحصله - يعني: أن الأمر لابد فيه من سنة،

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٢٥١).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٠٤).

البدع مبناها على الخير - أردنا مثل ما قال أولئك: يعني ما أردنا إلا الخير، فكل أنواع البدع التي تراها: البدع الاعتقادية في نفي صفات الله ﷻ، يقول القائل: نفينا الصفات للتوحيد - يعني: أرادوا الخير -، نفوا ما يستحقه الله ﷻ من الكمالات، ويقولون: أردنا الخير، يعني: أرادوا التنزيه، مثل ما سمت المعتزلة نفيهم للصفات: التوحيد، وآخرون سموا نفيهم للصفات: التأويل، وهكذا. . . ، يعني: أرادوا ماذا؟ أرادوا تنزيه الرب ﷻ، لكن قال ابن مسعود: كم من مريد للخير لم يحصله؟ وهذه - ولا شك - قاعدة، كيف ينجو المرء من هذا؟ أن يتعبد بعبادة، أو يستحسن عبادة، أو يقر آخرين على عبادة مبتدعة، وهي في ظاهرها حسنة وقربة إلى الله، وفيها خشوع، وربما فيها بكاء، كيف يكون ذلك؟ لابد من معرفة السنة والحديث وكلام أهل العلم.

. . . . وَلَكِنْ لا تُصَاحِبْهَمْ

كان أحد أصحاب الإمام أحمد يختلف إلى الحارث المحاسبي، فقال للإمام أحمد: إن الحارث يقول: كذا، ويقول: كذا، وفيه من الخشوع والصلاح والطاعة.

فقال أحمد: متى يأتيك؟

قال: يأتيني بعد المغرب.

فقال: إذًا سآتي، واجعلني في مكان أسمع كلامه، ولا يراني.

فأتى الإمام أحمد، واختبأ، فلما صلوا المغرب، جلسوا، فقدم لهم طعامًا، ثم صلوا العشاء، وجلسوا - يعني: رجعوا وجلسوا في البيت -، ثم

جلسوا مدة، يقول: لم يتكلم الحارث فيها، وإنما كان متخشعا، عليه آثار الخوف والخشوع والطاعة، فسأله أحد أصحابه سؤالًا، فتكلم بكلام أهل السلوك والرقائق، فظل يتكلم، وأصحابه منهم من تخشع، ومنهم من بكى، قال - هذا الرجل صاحب الإمام أحمد -: فصعدت إلى أحمد؛ لأرى، فإذا هو يبكي.

فقلت: يا أبا عبد الله كيف الذي سمعت؟

قال: ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، ولكن لا تصاحبهم، لم؟ لأن هذا الكلام الذي قالوه لم يكن عليه هدي أهل السنة فيما مضى، وإنما أتوا بكلام في السلوك جديد، وتخشع لم يعرفه العلماء، وطريقة جديدة لم يكن عليها من مضى؛ فلذلك خشي عليه لهذا الإحداث أنه إذا كان معهم زاغ إلى البدعة؛ ولهذا نهى الإمام أحمد عن صحبة الحارث وعن مجالسته في كذا موضع؛ لأجل ما نقل له من كلام آخر له فيه بعض الغلط. قال: لم أسمع بكلام أحسن من هذا - يعني: من كلام القصاصين، ومن كلام أهل الرقائق -، لكن لا تصاحبهم؛ لأن ذلك ليس من الطريقة التي جرى عليها أهل العلم؛ لهذا قال الإمام أحمد هنا: ما أعلم الناس في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان، قيل: ولم؟ قال: ظهرت البدع، فمن لم يكن عنده سنة أو حديث وقع فيها[١].

وهذا في الواقع ينبغي أن يتنبه له كل أحد؛ لأننا في هذا الزمن كلٌّ يحب

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٢٥١).

الدين، وكل يحب أن يتدين، وأن يكون مطيعًا، وأن يخشع قلبه، ولكن لا بد أن يكون ذلك على سنة؛ لأن العبادة إذا لم تكن على سنة، فهي مردودة؛ كما قال ﷻ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال الفضيل بن عياض في تفسير الآية: (**أحسن العمل أخلصه وأصوبه، قيل: هذا الخالص، فما الصواب؟ قال: أن يكون على سنة النبي ﷺ**)(١)، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) رواه مسلم في الصحيح.

فإذًا المسألة ليست مسألة أن هذا يرقق القلب، هذا ينفع الناس، هذا يُذكر الناس بالنبي ﷺ، هذا الفعل حسن، ما فيه إلا الخير، كونه ليس على سنة يكفي في رده، لم؟ لأن نبينا الذي نقتدي به ﷺ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، وهناك أعمال أحدثت، لم تكن في زمن النبي ﷺ، واعتبرت من البدع والمحدثات والضلالات، وهناك أعمال أحدثت بعد النبي ﷺ، ولم يعدها أهل العلم من المحدثات المذمومة، فما الضابط؟ كيف يميز المرء ما بين ما يُعدُّ بدعة، وما لا يعد بدعة؟

ضوابط البدعة

الضابط: أن ترى هل المقتضى لهذا العمل والباعث لهذا العمل موجود في زمن النبي ﷺ أم لا؟ فإذا كان الباعث للعمل موجودًا في زمن النبي ﷺ،

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم واللفظ له (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتركه، ولم يعمله، ولم يأت فيه تشريع، فقد قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]؛ ولهذا قال الإمام مالك: (**من زعم أن في الدين بدعة حسنة، فقد قال أو زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة**)(١) - والعياذ بالله -.

إذًا ما الباعث عليه في زمن النبي ﷺ، ولم يفعله، ولم يفعله صحابته رضي الله عنهم فهذا يدل على أن الأمر إحداثه بدعة، لم؟ لأن الباعث موجود في زمنه واليوم، الباعث والمقتضي للعمل موجود في زمنه، وموجود في هذا الزمان وموجود في الأزمان التي قبله، فإذًا إحداثه لو كان من الدين، لكان مشرعًا في زمن النبوة، فإذ لم يشرع في زمن النبوة، دل على أنه بدعة ضلالة.

القسم الثاني: ما لم يكن الباعث له والمقتضي له في زمن النبي ﷺ، نمثل الأول والثاني:

الأول: مثل الاحتفالات البدعية، الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، الاحتفال بليلة القدر، الاحتفال بليلة المولد - وهي أعظمها -، ونحو ذلك، كل الغرض من هذه الاحتفالات ماذا؟

الغرض منها أن يُجلب في النفوس محبة النبي ﷺ، وأن يسمع الناس سيرة النبي ﷺ، وأن يحب الناس النبي ﷺ، وهذه إرادة خير، لكن هذا الباعث أليس موجودًا في زمن النبي ﷺ؟ الناس في زمن الصحابة، في زمن النبي ﷺ من الصحابة رضي الله عنهم ومن الأعراب وممن حول المدينة أليسوا بحاجة إلى أن

---

(١) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٢٢٥)، والاعتصام (ص٣٣).

يتذكروا؟ أليسوا بحاجة أن يحبوا المصطفى ﷺ؟ هم بحاجة، فإذًا لماذا تُرِكَ؟

لا شك أن الترك دين، كما أن الأمر دين، فإن الترك مع وجود الباعث دين، وإلا فيكون ثم جزء من الدين الذي يقربنا إلى الله ﷻ لم يبلغنا ﷺ.

النوع الثاني: أن يكون المقتضي للفعل جاء بعد زمن النبي ﷺ، وفي زمنه لم يكن الباعث على العمل الذي أحدث موجودًا في زمنه، مثاله: جمع القرآن، ومثاله - أيضًا -: صلاة التراويح، فالنبي ﷺ صلى بهم ليالي ثم ترك؛ خشية أن تفرض عليهم[(١)]، فلما تُوفي ﷺ، وأتى زمن عمر رضي الله عنه المانع زال، جمع القرآن في عهده ﷺ، القرآن ينزل، فلو جمع في دفة مصحف، لكان كلما نزلت آية إما أن يمتهن القرآن، فتعلق على حواف الصحائف، ويكون شكل المصحف ليس بجيد، وإما أن تنسخ كلما نزلت آية، والله ﷻ يحدث من أمره ما يشاء، معناه: لازم تنسخ المصحف مرة ثانية، ولهذا بدأ بجمع القرآن في مصحف واحد أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاته ﷺ، هذا مثال.

إذًا فما أعظم وصية الإمام أحمد رضي الله عنه في وصيته بالسنة! يقول: **(ما أعلم الناس أحوج منهم إلى الحديث وإلى السنة من هذا الزمان لم؟ قال: ظهرت البدع)**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١)، من حديث عائشة رضي الله عنها: **«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَصَلَّى بِصَلَاتِهِ نَاسٌ ثُمَّ صَلَّى مِنَ الْقَابِلَةِ فَكَثُرَ النَّاسُ ثُمَّ اجْتَمَعُوا مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ»**.

(٢) سبق (ص ١٠٧).

هذا إذا كان في البدع السلوكية والأخلاقية، فكيف بالبدع المتعلقة بالاعتقاد؟ مثلًا: مسائل الإمامة، مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسائل طاعة الولاة، عدم الخروج على الأئمة، ونحو ذلك، عارض فيها أناس كثيرون من أهل الصلاح، عارضوا فيها السنة بالرأي؛ فلهذا ما أعظم الحاجة إلى السنة! وتذكر مع ذلك قول الإمام أحمد في آخر الكلام: فمن لم يكن عنده حديث، وقع في البدع؛ ولهذا من لزم السنة واستسلم للحديث، فإنه يجنبه الله ﷻ المحدثات بفضله وكرمه.

قال عبد الصمد بن سليمان تلميذ الإمام أحمد - في الكلمة التي ذكرتها لكم في أول هذه المحاضرة - قال: بت عند أحمد بن حنبل، فوضع لي ماءً، فلما أصبح وجدني لم أستعمله، فقال: صاحب حديث لا يكون له ورد من الليل؟!

قلت: أنا مسافر.

قال: ولو كنت مسافرًا[1].

وهذه تربية عظيمة جدًا في أن طالب العلم لابد أن يكون له نسك، لابد أن يكون له إقبال على الله ﷻ، كيف يحفظ السنة؟ كيف يعلم؟ كيف يتعلم؟ كيف يعلم الفقه؟ كيف يفقه معاني القرآن؟ كيف يفقه التفسير؟ كيف يكون صاحب قرآن؟ وهو لا يعاهد نفسه بالعبادة والطاعة، وخاصة قيام الليل بما تيسر: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، فقال ﷻ في آخر السورة: ﴿فَٱقۡرَءُواْ

---

(١) سبق (ص ٩٧).

﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، أي: في الليل قم بما تيسر، ولو أن تقوم بثلاث ركعات، فقم بما تيسر، يعني: لا يكن دأب طالب العلم أن يترك قيام الليل، يترك التهجد، يترك التعبد، فلابد أن يكون الرجل الذي يريد صلاح نفسه معتنيًا بهذه العبادة العظيمة، ألا وهي قيام الليل.

قيام الليل! نحن اليوم نتكلم في أمرٍ أعجب منه، وهو في أداء الواجب من صلاة الفجر في الجماعة، إذا كان الناس فيما مضى يرشدون إلى قيام الليل، فأين نحن، وكثير من المنتسبين إلى الخير لا يقوون على أداء صلاة الفجر في الجماعة؟ فكيف إذًا يكون الحال؟ وبم يكون الكلام معهم؟ لا شك أن الأمر صعب، وكل يفتش نفسه، ولابد من التوبة النصوح العاجلة من كل ذنب، إذا كان التفريط في الواجب، فالتوبة واجبة، وإذا كان التفريط في المستحبات، فالمرء يعاهد نفسه على ما جعل الله ﷻ فيه الفضل العظيم.

قال الله ﷻ في وصف المتقين في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨]، ولقد تكلم على هاتين الآيتين الحسن البصري رحمه الله بكلام عظيم حسن، قال على قوله ﷻ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: قاموا الليل، فلما أتى السحر استغفروا خشية أن لا يقبل منهم(١)، هذه كلمات أصحاب القلوب الحية، ونحن ليس حظنا منها إلا النقل، ورب مبلغ أوعى من سامع.

ومن كلمات الإمام أحمد رحمه الله قال: **(عزيز عليَّ أن تذيب الدنيا أكباد**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٤٥١).

رجال وعت صدورهم القرآن)[١]، إذا حمل المرء القرآن في صدره، فقد آتاه الله ﷻ فضلًا عظيمًا، فيقال لقارئ القرآن يوم القيامة: «**اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[٢].

القُرْآنُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون

صاحب القرآن هو أحق الناس بالطاعة، صاحب القرآن هو أحق الناس بالخشوع، صاحب القرآن هو أحق الناس بالإقبال على الجنة والهرب من النار، صاحب القرآن هو أحق الناس بالبعد عن الانجراف في الدنيا؛ ولهذا قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: **(عزيز عليَّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن)** يعني: الدنيا لمن وعى خير أم القرآن؟ وهل ثم مقارنة؟! وهل ثم نسبة؟! لهذا قال الله ﷻ في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨]، عند تفسير هذه الآية روى ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللهُ بإسناده في التفسير، قال: لما أتت إبل الصدقة، قال غلام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له: يا أمير المؤمنين هلم بنا ننظر إبل الصدقة، فذهب، وكانت إبل الصدقة محبوسة في المراعي خارج المدينة، فلما أقبل عليها، انبهر الغلام بذلك من كثرتها، فقال: يا أمير المؤمنين هذا فضل الله ورحمته، فالتفت إليه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: كذبت، ولكن فضل الله ورحمته: القرآن؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: الآداب الشرعية (٢/ ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٢/ ١٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٨]، وهذا مما يجمعون[(١)].

القرآن لمن حفظه، وعلم تفسيره، وأنس به، وقام به، أو أم الناس بالصلاة بالقرآن، عزيز أن تذيبه الدنيا، عزيز أن يكون صاحب شهوات، عزيز أن يكون موغلًا في الشبهات، أو متوغلًا في الشهوات، عزيز أن يكون صاحب القرآن الذي عرف بالقرآن أن يكون صاحب عصيان وصاحب إعراض، والله ﷻ أكرمه بأن يكون قلبه وعاءً لكلام الله ﷻ؛ لذلك ما أعظم هذه الكلمة في تحسر الإمام على أصحاب القرآن: **(عزيز علي)**، يعني: يعظم علي، وأتحسر، عزيز عليَّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن، ما الدنيا بجاهها؟! ما الدنيا بمالها؟! ما الدنيا بنسائها؟! ما الدنيا بجميع ما فيها بجنب أو بالقياس إلى كلام الله ﷻ ؟!

النبي ﷺ وصف ركعتي الفجر، فقال: **«رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»**[(٢)]، هذا لمن؟ لمن وعى حقيقة الدين وحقيقة المآل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٠)، **(لما قدم خراج العراق إلى عمر خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هو أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله ويقول مولاه يا أمير المؤمنين هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا هو يقول الله** ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ **وهذا مما تجمعون)**.

وأخرجه الطبري(٦/ ٥٦٨)، وابن أبي حاتم(٦/ ١٦٥٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما: **(فضله الإسلام ورحمته القرآن)**.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مَعَ المَحْبَرَةِ إِلَى المَقْبَرَةِ

الإمام أحمد له ولدان: عبد الله وصالح، وليسا بشقيقين كل واحد منهما من أم، قال صالح بن الإمام أحمد: رأى رجل مع أبي محبرة، يعني: المحبرة مكان الحبر سابقًا، كانت الكتابة بقطعة خشب مبرية أو تبرى، تغمس في المحبرة في الحبر، ثم يكتب بها، فكان طالب العلم دائمًا معه المحبرة، ومعه القلم، قال: رأى رجل مع أبي محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله - انظر كيف الناس يغرون حتى عظماء الرجال - قال: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين؟! يعني: مستنكرًا أن يحمل المحبرة؛ كما يحملها صغار الطلبة، أو أن يقرأ في كتاب، أو أن يحرص على الاطلاع؛ كما يحرص عامة طلبة العلم، فالإمام أحمد قال له كلمة تقطع كلامه وفكره، قال له: (**مع المحبرة إلى المقبرة**)(١)، ماذا يعني؟ يعني: مع العلم إلى أن أموت، وهذه هي التي قالها في رواية أخرى لأناس آخرين: قال: (**أنا أطلب العلم، حتى أُدخل القبر**)(٢)، ولهذا لما كان في وقت احتضاره، يعني: في قرب وفاته، قال لهم: هاتوا لي حديث هشيم، فذكروا له من حديثه - وهشيم هو: هشيم بن بشير، وهو أول شيخ للإمام أحمد لقيه الإمام أحمد سنة ١٧٩ هـ، وكانت سنه إذ ذاك إذ طلب العلم بين الخمس عشرة والست عشرة؛ لأنه مولود سنة ١٦٤هـ، وبدأ في

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٧).

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٧).

طلب العلم سنة **١٧٩**هـ - فقرؤوا الحديث، وذكروا أن ابن سيرين كان يكره الأنين، وكان المرض قد اشتد بالإمام أحمد، وكان يئن، فلما قالوا له: إن ابن سيرين كان يكره الأنين، قالوا: فما أنَّ حتى مات[١]، هذه: **(أنا أطلب العلم حتى أدخل القبر)**، يعني: لابد أن أستفيد العلم، لا أن أتعلم في فترة الشباب، حتى إذا بلغت مبلغًا: صرت مدرسًا، أو صرت معلمًا، أو صرت محاضرًا، أو صرت دكتورًا، أو صرت مؤلفًا يشار إليه، هل انتهيت؟! هذه حال من لا يعرف حقيقة الأمر.

العلم علم ماذا؟ علم كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، وهل أحد يرتوي من معرفة معاني كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ وما قاله العلماء في بيان الكتاب والسنة؟ لا أحد يرتوي لمن صحت نيته وصح قلبه؛ لهذا قال الإمام أحمد: **(مع المحبرة إلى المقبرة)**، يعني: أنه خاطب الجميع بأن يلازم طلب العلم، وألا يترك طلب العلم لأي عارض من العوارض.

ونحن نرى اليوم في حلق المساجد طائفة كثيرة ممن رغبوا في العلم، طلبوا العلم شهرين، ثم تركوا، ثلاثة شهور، ما هذا؟ وبعضهم طلب ثلاث سنين، أربعًا، خمس سنين، سبع سنين، وترك لماذا؟ هل إذا جاءتك الدنيا، انصرفت إليها؟ هل إذا جاءك منصب انصرفت إليه؟ هل إذا جاءك جاه، وأصبحت مديرًا لمدرسة، وأصبحت دكتورًا انقطع العلم؟

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٥٤٦)، عن عبد الله بن أحمد: **(قال أبي في مرضه الذي توفي فيه أخرج كتاب عبد الله بن إدريس، فقال: اقرأ علي حديث ليث قال قلت لطلحة إن طاووسا كان يكره الانين في المرض فما سمعت أبي يئن في مرضه حتى مات)**.

لا ، ولابد أن تكون طالب علم حتى تموت، وبهذا يصلح حال الناس إذا كان علماؤهم، وإذا كان طلبة العلم فيهم دائمًا مع هذه الوصية : (مع المحبرة إلى المقبرة)، يعني : مع الكتاب إلى الموت، مع القراءة، مع التعلم، مع الحفظ، مع المذاكرة، مع المدارسة إلى الأبد. الآن الناس يقولون : أحكام الصلاة عرفناها، وإذا سألتهم عن كثير من الأحكام لم يعلموها، لم؟ لأنهم قنعوا بما عندهم، وفرحوا بما عندهم من العلم، نسأل الله العافية، إذا سألتهم في أمر أعظم من الصلاة، في مسائل في العقيدة، في التوحيد، وجدت أنه لا يحسن، وكان طالب علم لم؟ لأنه فرط وترك.

العلم عزيز، إن تركته، تركك، وإن أقبلت عليه، أعطاك شيئًا منه بما قدر الله ﷻ لك.

لقد أخذت في هذه النخبة المختارة من كل تلميذ للإمام أحمد وصاحب قول قولًا ، وإلا فسيرته عطرة، وكلماته كثيرة متنوعة، ومدرسة ينبغي لكم أن تنظروا فيها، وأن تتدبروا، فلا شك أنه إمام أهل السنة قولًا وعملًا .

اللَّهُمَّ مُنّ عَلَيَّ بِحِفْظِ القُرْآنِ فِي عَافِيَةٍ

قال الخلال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : كنت أحفظ القرآن - يعني : كنت حافظًا للقرآن - فلما طلبت الحديث، اشتغلت بطلب الحديث، وبحفظه عن تعاهد القرآن وعن حفظ القرآن - يعني : فنُسي بعض القرآن؛ وذلك لاشتغاله بالحديث - قال الإمام أحمد : كنت أحفظ القرآن، فلما طلبت الحديث، اشتغلت، فتفلت مني، فسألت الله ﷻ أن يمن علي

بحفظه، ولم أقل في عافية - يعني قال: اللهم منَّ علي بحفظ القرآن - يقول: ولم أقل في عافية - يعني: كان الذي ينبغي أن يقول: اللهم مُنّ علي بحفظ القرآن في عافية - قال: فما حفظت القرآن إلا في السجن والقيود؛ فإذا سألت الله حاجة، فقل: في عافية.

أولًا: السجن والقيود للإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ كانت سجنًا وقيودًا في إحقاق الحق؛ لإحقاق عقيدة السلف، لدرء ورد فتنة القول بخلق القرآن، فسجن، انتفع الناس جدًا بسجنه؛ إذ دل الناس على سنة النبي ﷺ وعلى الاعتقاد الصحيح في مسألة خلق القرآن، لكنه وإن كان سجن في هذا الأمر، لكن السجن ليس بعافية؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ولم أقل: في عافية، فسألت الله أن يحفظني القرآن، ولم أقل: في عافية، قال: فما حفظته إلا في السجن والقيود.

وهذه لا شك كلمة عظيمة في أن المرء ينبغي أن يتفطن في دعائه، وأن يسأل الله ﷻ العفو والعافية دائمًا، وإذا طلبت شيئًا من ربك جَلَّ جَلَالُهُ، فاطلب أن يكون في عافية؛ لأنك لا تدري ما الذي يحدث لك؟ ربما لا يحصل لك شيء إلا في مرض يقعدك، ربما لا يحصل لك شيء إلا في فقدان لأولادك وأهلك، وتجلس منفردًا في بيتك، ربما لا يحصل لك شيء إلا في غربة لا تحمدها، ولا تختارها؛ فلذلك اسأل ربك دائمًا في عطائه أن يكون مع العفو والعافية.

مثلها: الاستعاذة بالله من الفتن، يعني من الفتن المضلة؛ ولهذا في دعاء الداعي بأن يعيذه الله ﷻ من الفتن قال العلماء: الأفضل أن يستعيذ من الفتن

المضلة، يقول: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن أو من الفتن المضلة أو أن يدعو، ويقول: اللهم إني أعوذ بك أن أفتن عن ديني أو نحو ذلك؛ لأن الخير فتنة، ولأن الأهل فتنة، ولأن المال فتنة، وهذه أشياء لابد للإنسان من أن يتعامل بها، لابد أن يتزوج، لابد أن يكون له ولد، لابد أن يكون له مال، لابد، لابد. . .، إلى آخره، فهذه أنواع فتن، لكنها فتن تكون من الخير، لكن قد تضل بعض الناس؛ لذلك يستعيذ المرء بالله ﷻ من مضلات الفتن.

سِمَاتُ كِتَابَةِ العَالِمِ

قال عبد الله بن الإمام أحمد: ولد لأبي مولود، فأعطاني عبد الأعلى - وعبد الأعلى أحد علماء الحديث - قال: فأعطاني عبد الأعلى رقعة يهنئه - يعني: يهنئه بقدوم هذا المولود -، فقرأها أبي، ثم رمى بها، وقال: ليست هذه كتابة عالم ولا محدث، هذه كتابة كاتب من الكتبة.

هذه تربية لعبد الله، وأيضًا استنكار من هذا العالم الذي إذا كتب لم يظهر العلم في كتابته، وهذه في الحقيقة نشكو أنها - أيضًا - في هذا الزمان، أن لغة العلم في المكاتبات، وفي التهاني. . .، وإلى آخره فقدت، أو أنها لا يعتني بها أصحابها، والذي ينبغي أن يكون طالب العلم، أو أن يكون العالم، أو أن يكون الأستاذ، أن يكون لعلمه أثر في ما يكتب، حتى في التهاني، لا يكتب كما يكتب الصحفي، لا يكتب كما يكتب العامي، لا يكتب كما يكتب رجل الدنيا، لابد أن يكون له سمت، وله هيئة في كلامه وفي كتابته - أيضًا -، فلما خالف عبد الأعلى ما ينبغي في ذلك رمي بها

الإمام أحمد، وقال: ليست هذه بكتابة عالم ولا محدث، هذه كتابة كاتب من الكتبة، يعني: أن صيغتها ليست بصيغة كلام لأهل العلم، الذي فيه دعاء مثلًا، وفيه ذكر بعض السنة في الإتيان بالمولود، وفيه تذكير ببعض الفوائد، أو نحو ذلك مما ينبغي.

لا تُكْثِرْ مِنْ تتبع الأَئِمَةِ في الطرقات

الهدي الأخير من معين الإمام أحمد الذي لا ينضب قول محمد بن الحسن بن هارون: رأيت أبا عبد الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد[1]، وقال عبد الله بن الإمام: كان أبي إذا خرج يوم الجمعة، لا يدع أحدًا يتبعه، وربما يقف؛ حتى ينصرف الذي يتبعه[2].

لماذا يكره الإمام أن يتبعه أحد؟

لأن هذه فتنة للمتبوع، ومذلة للتابع، الإمام يعلم أنهم إن تبعوه، فسيستفيدون من هديه، سيستفيدون من دعائه، ربما سألوه عن علم، لكن لعظم معالجته لنفسه كره أن يفتن بكثرة من يمشي وراءه في أمر من أمور العبادة، كان لا يرضى أن يتبعه أحد، يحب أن يمشي وحده، ويحب أن يعالج أمره، وأن ينصرف من الصلاة، وأن يقبل على بيته وحده، وهذا أدب لكل من ابتلاه الله ﷻ بالتصدر، سواء كان تصدرًا علميًا، أو تصدرًا من جهة

---

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٧٧).

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٧٧).

الجاه، أو كان تصدرًا من جهة الدنيا، فيجب أن يذل نفسه، ويجب أن لا يعين الشيطان على نفسه.

إن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا رأى من نفسه إعجابًا وكبرًا وعظمة، أو أن نفسه تعاظمت، فليقصرها على ما فيه زلتها؛ حتى تستقيم له؛ لأن الكبر أمر عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب، وقد قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١)، وهذا مما ينبغي أن يتعاهده هؤلاء الذين ابتلاهم الله ﷻ بالتصدر على أي نوع كان، وأيضًا مما ينبغي أن يعتني به الأتْبَاعُ أن لا يخالفوا من يرغب في ذلك، فإذا كان العالم يرغب في ذلك، فليتخففوا، فليستفيدوا منه في أي موطن يلقونه فيه: في مجالس العلم، ومجالس التدريس، وفي أي مكان، لكن لا يتبعونه في كل مكان؛ لأنه ربما يكره ذلك، بل كل عالم رباني مخلص صادق يكره أن يتبعه الناس وأن يعظموه؛ لأن التعظيم يخشى على القلب من آثاره؛ لهذا قال ابن مسعود في نصيحته لتلامذته، ونهاهم أن يتبعوه قال: (**إنها مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع**)(٢).

أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من الملازمين لتقواه، القاهرين أنفسنا على ما فيه رضاه، كما أسأله سبحانه أن يجزي عنا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله خير الجزاء، فلقد كان في زمنه كأبي بكر رضي الله عنه في زمنه، فكانت الردة في زمن أبي بكر، وكان لها أبو بكر رضي الله عنه، وكانت فتنة القول بخلق

---

(١) أخرجه مسلم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣٠٢).

القرآن والفتن المضلة في زمن الإمام أحمد، وكان لها أحمد بفضل الله ﷻ ونعمته.

اللهم اجز عنا أئمة الإسلام وعلماء الملة خير الجزاء على ما ورثونا من هذا العلم العظيم وهذا الهدى النافع.

اللهم واجعلنا من المهتدين بنبيك، المستنين بسنته، الناهجين طريق صحابة نبيك ﷺ.

اللهم ومنَّ علينا بالاستقامة على السنة وبالختام الحسن.

ربنا ثبتنا على ما فيه رضاك، حتى نلقاك وأنت راض عنا.

اللهم أحسن خاتمتنا. اللهم أجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة.

اللهم نعوذ بك أن نزل أو نُزل، أو نضل أو نُضل، أو نظلم أو نُظلم، أو نجهل أو يُجهل علينا.

اللهم وأصلح ولاة أمورنا، ووفقهم اللهم إلى ما تحب وترضى، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وأجزل له المثوبة والمغفرة محاضرة في مكة المكرمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والقائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والقائل: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، والقائل: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، حتى تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك، اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد كلما صلى عليه المصلون، وصلِّ اللهم عليه كلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وسلم اللهم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد:

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم وإخواننا المؤمنين ممن إذا أعطيَ شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهؤلاء الثلاث هن عنوان السعادة لمن وفقه الله ﷻ إليها.

ثم إني في فاتحة هذه السلسة من المحاضرات التي تفضل باقتراحها أخي الشيخ أحمد بن نافع المورعي، ودعاني إلى إلقاء هذه المحاضرة الخاصة بإمام الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب؛ لأنه من أهل مكة، وأهل مكة يقولون: أهل مكة أدرى بشعابها، كما أني أشكر للأخ الشيخ العزيز: عبد الرحمن فقيه مكالمته لي، ودعوته الكريمة، وترحيبه بي في هذه المحاضرة، وأشكر إخواني في مركز الدعوة والإرشاد وفرع الوزارة في هذه المنطقة على عنايتهم بالمحاضرات وبالدعوة وبالإرشاد، وبكل ما فيه تقريب للناس إلى ما يحبه الله ﷻ ويرضاه، ولا شك أن الدعوة إلى الله ﷻ والإرشاد هي مهمة الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه -، وهي مهمة من أحب رسولنا محمد ﷺ؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الحديث عن أئمة الإسلام الذين أثروا في الأمة بالدعوة إلى التمسك بما كان عليه السلف الصالح، ودعوا إلى ذلك، وألفوا، وجاهدوا، وأرشدوا، الحديث عن هؤلاء مهم في هذا الزمن؛ لأن تقديم النماذج الحية من أهل العلم والدين، ممن أثر، ودعا، وعلم، وصبر؛ حتى كان لدعوته الأثر البالغ في هذه الأمة، إن الحديث عن سير هؤلاء العلماء والأئمة يؤثر في النفوس من جهات عديدة: يؤثر أولًا في أن يعلم أنه ليس التمسك بالإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيله شيئًا اختصه الله ﷻ بالرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ، بل إن دين الله ﷻ كما خاطب الله به الأولين، فقد خاطب به المتوسطين والآخرين، فدين الله واحد، والناس مخاطبون به في كل زمان ومكان.

وفي كل زمان جعل الله ﷻ من أهل العلم والدين من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ؛ كما جاء في السنن بإسناد قوي، أن النبي ﷺ قال : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»(١)، وهذا أيضًا مهم ليعلم كل أحد أن هذه الأمة لابد أن تبقى فيها طائفة ظاهرة على الحق، قائلة به، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم.

فأئمة الإسلام وأعلام الدين منهم من بلغ، وأدى الأمانة، ونصح، وجاهد، لكن لم يظفر بأن رأى نتيجة دعوته، أو أن يكون له التمكين، ومنهم من دعا، ومكن الله له، وإذا تأمل المرء ذلك، فإنه ينظر إلى أن ظهور هذه الطائفة في الأمة بما وعد به الرسول ﷺ لابد حاصل بوعد الله الكريم ؛ قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته : «**لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»(٢)، وفي رواية : (**حتى تقوم الساعة**)(٣).

وهؤلاء ظاهرون بالعلم واللسان والبيان، وظاهرون تارة بالسيف والسنان، ولابد أن تكون هذه الطائفة موجودة في الأرض، ولابد أن يكون نصيبها الظهور دائمًا بالبيان والحجة واللسان، وبما كان بالسنان والجهاد في سبيل الله جهاد اليد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٣٦٤١)، ومسلم(١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

سِيرَةُ الأَئِمَّةِ تُنْعِشُ النُّفُوسَ

ولهذا فإن تقديم سيرة أئمة السلف الصالح وأئمة دعوة الإسلام ينعش النفوس، ويصل الشباب الحاضر بأئمتهم الماضين؛ حتى يعلموا أن العلم لا يُنال براحة الإنسان، وأن التأثير والدعوة ليست كلمة تقال، وإنما لابد فيها من العلم والعمل؛ كما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فالعلم والعمل بهما الصلاح، وبهما الفلاح للحاضر من عباد الله ولمن نستقبل من الناس؛ لأنه لابد أن يكون للعلم والعمل الأثر في الحياة.

لهذا جاء اختيار هذه السلسلة مبتدئة بإمام مصلح مجدد هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المشرفي الوهابي التميمي(١)، وسيرته معروفة لدى الأكثرين، ولن نتطرق إلى تفاصيل سيرته، بحيث نتطرق إلى ما كان عليه في أول حياته، وما كان عليه في طلبه للعلم، وسيرته بالتفصيل إلى وفاته، فهذه شأنها في المؤلفات الكثيرة التي أُلِفت عنه رحمه الله، ولكن نأخذ نبذة من سيرته وحياته، ثم نتطرق إلى أثر حياته ودعوته، وما تميزت به في الناس، وما أثرت به في ذلك الزمن وفي حاضرنا الذي نعيشه.

---

(١) انظر: تاريخ ابن غنام (ص٧٥)، وعنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٦)، وعلماء نجد خلال ستة قرون (١/ ٢٦)، والرسائل والمسائل (٣/ ٣٧٨)، والدرر السنية (١٢/ ٣).

مَوْلِدُ الإِمَامِ وَبِدَايَاتُه

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد سنة ألف ومائة وخمسة عشر من الهجرة، وتوفي سنة ستٍ ومائتين وألف لهجرة النبي ﷺ، وكانت حياته تلك - منذ عشر السنين الأولى - وهي في العلم والعمل، إلى أن توفاه الله ﷻ، قد حفظ القرآن صغيرًا، وأمَّ الناس حفظًا من القرآن، وهو لم يبلغ سن الخامسة عشرة، وحج بيت الله الحرام بعد أن احتلم، وهو دون الخامسة عشرة، يعني في نحو الثالثة عشرة؛ لأنه ولد سنة خمس عشرة ومائة وألف، وحج سنة سبع وعشرين ومائة وألف.

وهذه الحصيلة المبكرة من حفظ القرآن، والرغبة في الحج، مع بعد المسافات إذ ذاك، وتعب الراحل إلى مكة المكرمة، لا شك أنها تنبئ عن قوة علمية وقوة في العمل، ورغبة في عبادة الله تعالى.

رِحْلاتُهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ

منذ ذلك السن المبكر رعاه والده أحسن رعاية، وكانت له عدة رحلات، أولها إلى حج بيت الله الحرام، فحج البيت، ومكث في مكة مدة، ثم ذهب إلى المدينة، ثم رجع إلى العيينة إلى نجد.

وبعد ذلك حج مرة أخرى نحو سنة خمس وثلاثين ومائة وألف، يعني: وهو ابن عشرين سنة، وكانت هذه الرحلة الثانية، رحلة قصد فيها بعد أداء العبادة أن يتصل بعلماء الحرمين - علماء مكة، وعلماء المدينة -؛ ليأخذ

عنهم العلم؛ كما قال طائفة ممن ترجموا له أنه بعد رحلته الأولى وقع في نفسه أن يأخذ من علماء مكة وعلماء المدينة وعلماء الشام، فرحل رحلته الثانية هذه، واتصل بعدد من العلماء في مكة والمدينة، ولازمهم طويلًا.

وكان من أبرز من لازم في تلك الفترة الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف من أهالي نجد، ولكنه سكن المدينة، ومنهم الشيخ محمد حياة السندي في المدينة، وممن أجازه في حجته الأولى مسند مكة وعالمها الذي جمع مسند الإمام أحمد بعد تفرقة: الشيخ العالم عبد الله بن سالم البصري، فأجازه بكتاب القرى لقاصد أم القرى.

ويُروى من طريق عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن أبيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهذه الإجازة نازع فيها بعضهم، ومنهم - وهم الأكثر - من أثبتها، وتحقيقها محل نظر، لكنه معروف في الإجازات أنه أخذ ذلك عن الشيخ عبد الله بن سالم البصري؛ كما أثبت ذلك الكتاني في فهرس الفهارس، والإثبات نقلًا عن الشيخ محمد عابد السندي.

ثم بعد ذلك رحل إلى البصرة عدة مرات، ورجع إلى الأحساء، وأخذ عن علمائها، ورحل إلى البصرة، وأخذ عن عدد من علمائها، وكانت له في هذه الرحلات العلمية مواقف مع العلماء الذين أخذ عنهم، ودرس عليهم؛ حيث إنه كان بعد حفظه للقرآن في صغره، كان مهتمًا بتفسير القرآن العظيم، ولذلك تأثر في دعوته وفي أسلوبه وفي كلامه في التوحيد بإمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث إن الإمام محمد بن جرير الطبري من أوائل العلماء الذين تكلموا بتفصيل فيما كان عليه أهل الجاهلية في أنواع

عباداتهم، وعبادة الأوثان والأصنام، والفرق بينها، وعبادة الآلهة المختلفة، وتقسيم التوحيد إلى: توحيد ربوبية، وألوهية، وإلى الإيمان، والتوحيد بالأسماء والصفات، تأثر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا بمدرسة الإمام محمد بن جرير في التفسير، فأخذ بالتفسير المأثور، مع ما قرره الإمام محمد بن جرير في ذلك مبكرًا.

ثم إنه حصل كثيرًا بعد ذلك من كتب شيخ الإسلام: أحمد بن تيمية، وتلميذه العلامة: شمس الدين ابن القيم، واستفاد منها كثيرًا، وقرأ كتب الحديث، وأُجيز بكثير منها، وكان - كما وصفه ابن بدران في المدخل[(١)] - قد ملأ وطابه من السنة والحديث وشروحه، ومن علم الفقه على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذه السيرة المبكرة في الأخذ عن العلماء، والشرف في العلم، والحفظ، والتدوين، واقتناء الكتب، ومعرفة ذلك لم تكن بعيدة عن النظر في واقع الناس إذ ذاك، وما هم عليه من أنواع المخالفات الشرعية، فكان ينكر في نفسه، وربما حاور أباه الشيخ عبد الوهاب - قاضي العيينة وقاضي حريملاء - في بعض ما يصنعه الجهلة في نجد من عبادة بعض الأشجار واعتقاد فيها، أو بعض الغيران في بعض الجبال، أو الاعتقاد في بعض الموتى، وأن الأولياء لهم تصرفات في ملكوت الله عَزَّ وَجَلَّ، وامتلأ ذلك في نفسه، حتى أتى وزار بلاد الحرمين، وحاور عددًا من المشايخ في بعض ما يراه، وكلهم أوضح له ما هو الصواب في أنه ما يفعله الجهال في الاعتقاد ببعض الأماكن الأثرية، أو بعض

(١) انظر: المدخل لابن بدران (ص٤٤٩).

الأشجار، أو بعض القبور، أو نحو ذلك، أنه ليس موافقًا للسنة، بل هو من الشرك المحقق؛ كما قاله له عدد من علماء مكة والمدينة.

ورحلة الشيخ إلى البصرة أخذ فيها عن عدد من العلماء، وهذه السيرة المبكرة قوي فيها جانبه في العلم، وتحصيل الكتب، والنظر فيما عليه المسلمون في عدد من أماكن العالم الإسلامي.

وغلط من قال: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ رحل إلى الشام، أو رحل إلى بغداد أو إلى الموصل، بل هو لم يتعد البصرة، كان ينوي أن يذهب من البصرة إلى الشام، وكان ينوي أن يذهب من المدينة إلى الشام، ولكن وقعت له حوادث وابتلاء، وضرب من بعض قطاع الطرق؛ مما منعه من إكمال المسير في ذلك.

اتصل بالعلماء في الأحساء وفي نجد، وأخذ ما عندهم، وعرف حتى تمكن من معرفة الأمرين المهمين، وهما:

معرفة العلم الشرعي، والنصوص، ووجه الاستدلال منها.

ومعرفة ما عليه الناس، وتطبيق النصوص على واقع الناس، وهذه مسألة يحتاج إليها العلماء دائمًا في أنهم يطبقون النصوص على ما عليه حال الناس، ومن الناس ومن أهل العلم من يظن أو يأخذ العلم على أنه أداء.

مُوَافَقَةُ العُلَمَاءِ لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ لم يأخذ العلم على أنه صنعة، وأداء، وتعليم، وتأليف، وإنما أخذه على أنه يأخذ ما تعلم؛ لأنه يدعو إليه، ويجهر بتلك الدعوة، ويجاهد في الله حق جهاده، بقدر ما أعطاه الله وآتاه، بهذا تميز مبكرًا بأنه كان يسأل، ويناظر، ويبحث في تلك المظاهر الشركية والمظاهر البدعية التي كانت في زمنه في بلده، وفي غيرها من البلاد، والعلماء وافقوه؛ كما ذكر في رسالة له.

قال: وعرضت ما عندي على عدد من علماء مكة والمدينة والشام وعلماء نجد والأمصار، فوافقوني على ما ذكرته في التوحيد، وهذا صحيح؛ لأن أكثر العلماء في ذلك الزمن، بل وما قبله يتفقون على معنى التوحيد إجمالًا، وعلى بعض التفصيلات فيه، وكذلك على إنكار الشرك، وعلى بعض أفراد الشرك.

ولهذا كان لما نظر فيه من الأدلة، وربطها بالواقع، كان له الأثر في أن تتمخض دعوته رَحِمَهُ اللهُ إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، فمكث يقرأ، ويتعلم إلى أن توفي والده الشيخ عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

ولما توفي، كان الشيخ قد أصبح يافعًا وقويًا، وأصبح يعلن بعض ما عنده من الفهم بنصوص الكتاب والسنة، والإنكار للمنكرات التي في زمنه، وهذا كان في حريملاء أولًا، وفي العيينة، ثم في بعض البلاد من القرى التي حولها؛ كالجبيلة ونحوها، حتى صار لقاؤه بأمير الدرعية محمد بن سعود بن

مقرن في اللقاء المعروف سنة سبع وخمسين ومائة وألف، ثم تكونت الدولة السعودية الأولى بعد ذلك العهد في الفترة الأولى، ولم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تلك الفترة الأولى قبل بدء الدولة مقتصرًا على تعلمه، بل كان يجمع ما بين العلم وما بين الدعوة، وبين الإنكار وكتابة الرسائل.

لُطْفُهُ فِي الدَّعْوَةِ

وكان لطيفًا للغاية فيما ينكر فيه، وفيما ينصح به، حتى أنه كان يأتي إلى من هم عند قبة الصحابي الجليل زيد بن الخطاب رضي الله عنه الذي قتل في بلد تسمى الجبيلة قريبة من الرياض، قريبة منها في وقعة اليمامة المعروفة، وكان يأتيه الجهال - كما في عدد من بلاد العالم الإسلامي - يعتقدون في ذلك الصحابي، ويطلبون منه أشياء لا تجوز أن تطلب إلا من الله عز وجل، مثل: شفاء المرض، ومثل: فتح الخيرات، وترك أو دفع الشرور عن الإنسان، . . . ، ونحو ذلك، **وكان يأتيهم بالقرب من القبر، فإذا سمعهم يقولون: يا زيد بن الخطاب افعل كذا، أو أعطنا، أو اشف مرضانا، أو زوج بنتنا، أو اشفع لنا في كذا، كان يقول لهم بعبارة هادئة: الله خير من زيد**[1]، وكرر ذلك أشهرًا كثيرة، الله خير من زيد، الله خير من زيد، يرشدهم إلى أن التوجه إلى الله عز وجل وحده لا شك أنه هو المأمور به، وهو الطلب في ذلك، حتى قوي، واقتنع به الأمير - أمير البلدة -، فأمر بأن تهدم تلك القبة.

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢١١).

أَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ

وكانت تلك من أول مظاهر دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك، فخشيَ أهل البلد أن يفعلوا ذلك، وخشيَ الأمير أن يفعل شيئًا في قبة الصحابي زيد ابن الخطاب؛ لما يعتقدون فيه من السر والولاية الخاصة، ونحو ذلك، حتى قال له الشيخ محمد رحمه الله: أنا أبدأ بذلك، فأخذ هو يهدم القبة، فلما رأوه لم يصبه شيء أقدم الناس على هدمها، في قرى متجاورة انتشر الخبر، حتى صارت هناك أرضية صالحة لهذه الدعوة، بحيث سمع أكثر القرى بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك.

ثم بعد ذلك حصل في قصة معروفة ارتحاله أو طرده من العيينة - بسبب سياسي - طرد من العيينة إلى الدرعية، ثم نصر دعوته الإمام المجاهد محمد ابن سعود رحمه الله، وتكونت الدولة السعودية الأولى التي كانت ممثلة بحق لما كان يذهب إليه الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

مَلامِحُ دعوته

إذا تأملنا هذه السيرة الوجيزة، فمرحلة الدعوة والدولة يمكن أن نبين شيئًا من ملامح الدعوة - دعوة الإمام المصلح - في الفترة الأولى، ولكن في الفترة الثانية ظهرت بوضوح، حتى سمع بها القاصي والداني.

أول ما تميزت به الدعوة الدعوة إلى التوحيد

لبُّها وروحها، أنها دعوة إلى توحيد الله ﷻ في ربوبيته وإلهيته، وفي أسمائه وصفاته، كان أكثر ما يقع فيه الناس إذ ذاك سواء في نجد، أو في الحرمين، أو في عدد من بلاد المسلمين في الجزيرة، وفي غيرها، أكثر ما يقعون فيه من أنواع الشرك المختلفة، سواء كان الشرك الأكبر أم الشرك الأصغر جهلًا منهم؛ ولأجل عدم وجود من ينبههم في ذلك في تلك الأزمان أو من يجهر بالتنبيه لهم، والإغلاظ عليهم في ذلك، فقام رحمه الله بالدعوة إلى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وألف فيها عددًا من الكتب المختلفة، التي هي سهلة في عبارتها، ولكنها موضحة لمقصود تلك الدعوة؛ ككتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وكتاب ثلاثة الأصول، وكتاب كشف الشبهات، والقواعد الأربع، ونحو ذلك من الكتب والرسائل التي تبين هذا الأصل العظيم، الدعوة إلى التوحيد بأنواعه الثلاثة كانت سمة لما دعا إليه الشيخ رحمه الله.

وركز على توحيد العبادة بأن لا يعبد إلا الله ﷻ، فنبه الناس إلى أن أنواع الشرك التي وقع فيها الجاهليون في زمن النبي ﷺ أنها يمكن أن تتكرر، ويقع فيها الناس بعد ذلك، فكان الناس يعتقدون في نجد وبعض البلاد في بعض الأشجار، وفي بعض الأحجار، وفي بعض الجبال، وفي بعض الآثار، يتمسحون بها، يقولون: هذه البقعة حل فيها الرجل الصالح، وهذه مات فيها الرجل الصالح، وهذه فيها الولي الفلاني، وهذا قبر فلان، ونحو ذلك،

وتعلقت القلوب تعلقًا خفيًا بهؤلاء الأولياء وتلك البقع والأماكن.

فأعلن دعوته بأن حق الله ﷻ أن تُجعل العبادة فيه لله وحده ﷻ؛ فهو ذو الأُلوهية والعبودية على خلقه أجمعين استحقاقًا، هو الذي يستحق العبادة وحده ﷻ.

وبين لهم معنى العبادة، وأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وكما أنه لا يقول أحد بأنك تصلي للولي فُلان، أو تصلي للنبي ﷺ، وتجعل صلاتك له، وليست لله، فكذلك الدعاء، فإنما يُدعى الله وحده لا شريك له.

التَّوْحِيدُ وَالإِخْلَاص مِفْتَاحُ القَبُولِ

فكما أن الصلاة لا تقبل إلا بمفتاح، وهو الطهارة، فكذلك العبادة لا تقبل إلا بمفتاح، وهو التوحيد والإخلاص، فإذا أوقع العبد شكل الصلاة، وهو لم يتطهر، قال الناس: هو قد صلى، ولكنه عند الله ﷻ لم يصل؛ لأنه لا تقبل صلاته إلا بطهور، وكذلك أنواع العبادة: يتعبد، ولكنه ليس بمخلص - يعني: ليس بموحد لله ﷻ في العبادة -، فإذا لم يأت بمفتاح قبول العبادة الذي أمر الله ﷻ به في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ [الزمر: ١٤]، وقال ﷻ لنبيه ﷺ أيضًا: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: تنزيهًا لله وتعظيمًا.

فدعا إلى توحيد العبادة، وجاهر في ذلك، وأغلظ، حتى أنه إذا قدر على أي مكان يُتوجَّه فيه إلى غير الله ﷻ، فإنه يهدم ذلك المكان؛ إنكارًا للمنكر، وتحقيقًا لما يحبه الله ﷻ ويرضاه، وإفرادًا لله ﷻ بالعبادة، فكسر عددًا من الأشجار، وهدم عددًا من القباب على القبور ونحو ذلك؛ لأجل أن لا يتعلق الجهال بها.

كان رحمه الله في دعوته إلى التوحيد - توحيد العبادة - يجعل توحيد العبادة هو الأصل؛ لأن من وحد الله بالعبادة، فقد وحد الله في الربوبية، يعني: من عبد الله وحده، دونما سواه، ولم يتجه إلى أحد بالعبادة، ولم يستغث بغير الله، ولم يتوكل على غير الله، ولم يخف خوف السر من غير الله، ولم يعتقد اعتقاد السر في بعض الأولياء والأنبياء، فإنه في داخله مقر بأن الله وحده هو ربه، بخلاف غلاة المتصوفة في ذلك الزمان إلى زماننا هذا، فإن منهم من كان يعتقد أن الأرض فوض الله ﷻ أمرها إلى أربعة من الأولياء، أو إلى سبعة من الأولياء، أو في بعض البلاد إلى أربعين من الأبدال، يصرفونها كيف يشاؤون، فتوجه الناس إلى هؤلاء الأقطاب، أو كما يسمونه الغوث، أو نحو ذلك من اعتقادات، طهر الله ﷻ منها هذه البلاد بفضل الله ﷻ أولًا، ثم بفضل قيام الدولة - هذه الدولة - بحقوق التوحيد ثانيًا، ثم دعا إلى توحيد الأسماء والصفات، وهذا يدخل في أركان الإيمان (الإيمان بالله).

عَدَمُ الحُكْمِ عَلَى النَّاسِ دُونَ مُحَاوَرَتِهِم

ومن صفاته العامة رَحِمَهُ اللهُ أنه كان يحاور، ولم يكن متصفًا بالحكم على الناس دون محاورتهم، فمرة بلغه عن أحد من علماء الأحساء، هو عبد الله ابن عبد اللطيف الأحسائي أنه كان ينكر بعض ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته، فكتب إليه رسالة - موجودة طويلة، فيها فوائد كثيرة، وهي موجودة في الرسائل والمسائل، وموجودة في الدُرر السنية، وفي تاريخ ابن غنام، وفي غيرها . . . - أجاب عن عدة مباحث وأسئلة، ثم قال له في آخر رسالته: (**وإني لما زرتك في الأحساء رأيتك كتبت على أول كتاب البخاري - فيما قرره من أن الإيمان قول وعمل - رأيتك كتبت عليه في هامش كتابك: هذا هو الحق**)[1]، وسرني هذا منك جدًا؛ لأجل مخالفته للعلماء الذين أخذت عنهم - لأن الأشعرية في ذلك الوقت في الأحساء لا يقولون بهذا الأصل؛ لأنهم من المرجئة، وهو سَرَّه أن يكون هذا يخالف؛ لأن هذا دليل أنه يبحث عن الحق، ومادام علق على أحاديث النبي ﷺ التي تدل على أن الإيمان قول وعمل بأن هذا هو الحق، دل على رغبته في الخير - قال له - وهذه من الأشياء المهمة التي ينبغي لطالب العلم والدعاة أن ينتبهوا لها -: (**وإني لأدعو لك في صلاتي، وأسأل الله لك أن يجعلك فاروقًا لهذه الأمة في آخر الزمان، كما جُعِلَ عُمر بن الخطاب فاروقًا لهذه الأمة في أولها**)[2]، وهذا لين وتواضع ومحبة، وكل داعية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢٥٠).

(٢) انظر: الدرر السنية (١/ ٢٥٧).

إذا كانت دعوته مع اللين والمحبة والرغبة في نفع الخلق وعدم التعالي عليهم، فإن هذا ينفع كثيرًا برسالة حسنة الأسلوب، وبكلام طيب، فإنه ينفع، ثم إذا لم يكن إلا الجدال والعناد، فإن حق الله ﷻ أعظم من حق المخلوق؛ كما هو معلوم، وكانت له مراسلات كثيرة في تقرير هذا الأصل، وهو توحيد الله ﷻ، وله كتابات في ذلك متنوعة.

التَّرْكِيزُ عَلَى العَقِيدَةِ العَامَّةِ فِي الدَّعْوَةِ

من الأصول العامة التي ركز عليها، ودعا إليها: العقيدة العامة في الدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على ما كان عليه السلف الصالح؛ لأنه كان في زمنه في الجزيرة كلها كان هناك عدة مذاهب كثيرة في مسائل الاعتقاد، وكان مذهب السلف لا يكاد يُذكر فيها، وإنما كان الأكثرون على مذاهب المتكلمين: مذهب الأشعرية، أو الماتريدية، أو الزيدية، أو نحوها من المذاهب، فقرر الإمام رَحِمَهُ اللهُ مذهب السلف الصالح، ودلل عليه، وناظر في ذلك، حتى انتشر، ورأى الناس فيه في زمنه من العلماء ومن طلبة العلم، رأوا في مذهب السلف الصالح البساطة والوضوح، وأنه هو النقاء الذي لا يدخل طالب علم العقيدة، لا في مباحث كلامية، ولا في مناظرات لاهوتية - كما يقال - أو تدخل في فلسفة غير محمودة، فدعا إليها ببساطة، وقال: إن الأصل الشرعي أن لا يتجاوز القرآن والحديث، فما جاء في كتاب الله، قلنا به، وما جاء في سنة رسول الله ﷺ، قلنا به، وما عدا ذلك، فإنه يُعرض على الكتاب والسنة، فإن كان فيهما، فإن الحق قبوله، وإن كان قيل بعد ذلك ليس فيهما،

فإن الحق رده؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»(١) . . . وفي لفظ قال: «**هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(٢).

وهذا يدل على أن الأمة ستفترق، فإذا كانت الأمة ستفترق؛ لخبر النبي ﷺ الصادق، وقوله: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»(٣) كلها في النار - وعيد لها -، وليس معناه أنها مخلدة في النار، ولكن متوعدة على بدعتها وانحرافها بالنار؛ لأن الفرق الخارجة عن الإسلام لا تدخل في الثنتين والسبعين فرقة هذه، لما قال: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ**»، وجب أن يُرجع إلى الحق، وجب أن يُرجع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ونحن نعلم يقينًا بأنه في مباحث الاعتقاد في مسائل الإيمان، في الغيبيات في القول بالأسماء والصفات، في عدم الأخذ بتأويل الغيبيات، لا الأسماء والصفات، ولا الميزان، ولا أخبار الجنة والنار، ولا ما يتصل بذلك، وفي القدر. . .، إلى آخره، كل ما هو من سبيل الغيب، مما لا ندركه إلا بخبر الله جل جلاله، أو خبر رسوله ﷺ، فإنه لا مجال لنا إلا التسليم بخبر الله عز وجل وخبر

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٩٢)، والدارمي (٢٥١٨)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، من حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه: الطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٧)، والصغير (٢/ ٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (**وما هي تلك الفرقة قال ما أنا عليه اليوم وأصحابي**).

(٣) أخرجه ابن ماجه بهذا اللفظ (٣٩٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

رسوله ﷺ، وإذا كان كذلك، فإنه وجب على الجميع أن يستسلموا للنص، وهذه البساطة في العقيدة هي التي كان عليها السلف الصالح؛ ولهذا كان من كلام والد إمام الحرمين الجويني في رسالة له قال: لما تأملت الأقوال المختلفة في الصفات وفي العقيدة، ومذهب الأشعرية وغيره من المذاهب التي كانت في زمنه، لما تأملت ذلك، ونظرت فيما كان النبي ﷺ، وجدت أنه كان يتلو القرآن، ويخبر بحديثه ﷺ فيما يتصل بالغيبيات، وفي الخبر عن الله ﷻ وصفاته وأسمائه، وكان يحضر مجلسه ﷺ - هذا كلام العالم والد إمام الحرمين في رسالته المعروفة(١) - قال: **(كان يحضر مجلسه ﷺ الأعرابي، ومن هو من الحضر، وكان يحضره الذكي، وكان يحضره غير الذكي، كان يحضره العالم، وكان يحضره غير العالم، وكان يحضره القوي الملكة والإدراك، ويحضره - أيضًا - غير قوي الملكة والإدراك، ومع ذلك كان يخاطبهم خطابًا واحدًا بالكتاب والسنة، ولم يأت في مرة من المرات أن قال: ليس معنى هذه الآية هو كذا، وإنما معناها على خلاف ظاهرها - يعني في نصوص الغيبيات -، فلم يقل لهم مرة: إن الاستواء ليس معناه كذا، وإن العلو هو علو القهر وعلو القدر، وإن السمع أو إن القوة لله ﷻ، أو الرحمة تفسر بكذا، والغضب يفسر بكذا مما هو خلاف ظاهره، بل أطلق ذلك، ولم يعقبه ببيان، فدل بيقين على أنه أراد ظاهر ما دلت عليه النصوص، أو هذا هو البساطة، بحيث إنه يمكن أن تلقن العقيدة للصغير والكبير بسهولة، دون**

---

(١) انظر: رسالة في إثبات الاستواء والفوقية لأبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين (ص٣٠).

الدخول في تفصيلات كلامية، وتفصيلات فلسفية).

وهذا هو الذي دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في تأسيس عقائد السلف إجمالًا وتفصيلًا، في مسائل الصفات، وفي مسائل الغيبيات: الملائكة، والكتب والرسل، وفي مسائل الإيمان، وأنه قول وعمل واعتقاد خلافًا لمذاهب المرجئة في أن الإيمان قول، أو أنه قول واعتقاد، أو أنه اعتقاد فقط، على اختلاف مذاهبهم في ذلك، أو الكلام في الجبر، في القدر أو القول بأنه لا قدر في مسائل القدر الجبرية والقدرية، فنهج بالناس ما كان عليه الناس في القرن الأول الهجري، وقرر ذلك بما قرره أئمة الإسلام: أبو حنيفة رحمه الله، ومالك رحمه الله، والشافعي رحمه الله، والإمام أحمد بن حنبل - رحمهم الله تعالى - في هذه المسائل العظام.

تَحْرِيرُ النَّاسِ مِنَ التَّقْلِيدِ

ثم بعد ذلك الشيخ رحمه الله انتقل بالناس إلى مرحلة تالية، وهي تحرير الناس من التقليد - وهذا نأتيه سواءً في مسائل الفقه أو مسائل الاعتقاد -، وأرشد الناس إلى العناية بكتب الحديث والسنة، ونجد بالذات في ذلك الزمن لم يكن فيها من كتب الحديث إلا البخاري وأجزاء من البخاري، والشيخ رحمه الله كان مهتمًا بالسنة والحديث، فحينما رحل إلى مكة والمدينة استجاز من العلماء الأحاديث وكتب السنة، وكان أول ما أجيز في ذلك الحديث المسلسل بالأولية المعروف، وحدثه به الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف عن شيخه أبي المواهب الحنبلي الشامي الحنبلي المعروف، وهذا الحديث

هو حديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ**»(١).

وأدخل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في نجد وعند أهل العلم وطلبة العلم كتب الحديث، وصارت تدرس، وهي لم تكن تدرس، كان غاية ما في الأمر عند الفقيه في ذلك الزمان أن يفتي على المذاهب الأربعة.

كان يحفظ أربعة متون: يحفظ في المذهب الحنفي متنًا، وفي المذهب المالكي متنًا، وفي المذهب الشافعي متنًا، وفي المذهب الحنبلي متنًا، فإذا أتاه السائل يستفتيه، قال له: على أي مذهب أنت؟ فيقول له: أنا على مذهب كذا، فيقول الفتوى كذا على مذهبه، وكان يُثنى على فلان من الناس بأنه كان يفتي على المذاهب الأربعة، أو كان يقضي بالمذاهب الأربعة.

ولا شك أن هذا ليس هو دين الله ﷻ؛ لهذا يذكر أن المرء يفتي، يخبر المستفتي: (**تريدني أن أفتيك على أي مذهب؟**)، الواجب على العالم أن يفتي بما دل عليه الدليل، فإذا لم يجد الدليل دل بظهور على المسألة، فإنه يأخذ بقول إمام معتبر، يقتنع بحجته أو بقوله واجتهاده.

مما يذكر في هذا المقام: أن الشيخ منصور البهوتي الحنبلي المعروف (مصنف عدد من كتب المذهب: الروض المربع شرح زاد المستقنع، وشرح منتهى الإيرادات، وشرح كشاف القناع عن متن الإقناع، وغيرها من كتب المذهب والحواشي المعروفة) استفتاه أحد الناس مرة في مكة، وقال له في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

مسألة سأله عنها، فأجابه، فقال له أحد تلامذته الذين معه: يا شيخ منصور هذه تخالف ما ذكرته في كتابك كذا وكذا! قال: نعم؛ لأن الكتاب ألفناه على المذهب للتعليم - أو نحوها -، وأما الفتوى، فهي لما سأل عنه يوم القيامة، وهذا الحس هو الذي عند العلماء.

الشيخ في نجد أول ما بدأ في الدعوة جعل الناس يهتمون بالدليل، ويحرصون عليه، وهنا لابد من التنبيه إلى أن الاجتهاد الذي دعا إليه الشيخ رحمه الله عورض بشدة، حتى إن من الناس من كفر الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لأجل أنه ادعى الاجتهاد.

شُرُوطهم فِي المجْتَهِدِ لا تَتَوَافَرُ فِي أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما

قالوا: والاجتهاد قد قفل بابه منذ أزمان؛ لأنه لا وجود لشروط المجتهد ورد عليهم الشيخ بعبارة قال: (**والمجتهد هو الموصوف بكذا، وكذا؛ أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما**)[1]؛ لأنهم اشترطوا في المجتهد أن يحفظ كتاب كذا، وأن يحفظ من الأصول كذا، وأن يحفظ من علم البلاغة كذا، وأن. . .، إلى آخره.

وهذه الأشياء متأخرة، والاجتهاد إنما هو فقه النصوص - نصوص الكتاب والسنة -، وإنما تفقه باللغة العربية وبما فهمه الأئمة، فالاجتهاد

(١) انظر: الأصول الستة من الدرر السنية (١/ ١٧٤).

مبني على أن يكون العالم عنده الآلة للاجتهاد - الآلة العربية لفهم النصوص -، وأن يكون مطلعًا على أقوال الأئمة السابقين، وألا يقول قولًا يخالف ما عليه العلماء والأئمة، ولهذا لا يعرف لإمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ في مسألة أنه قال فيها بخلاف قول الأئمة الأربعة، لا يعرف له أنه أفتى في مسألة لا توافق قول أحد من الأئمة، بل لا بد أن تكون في مسائل الفقه مما اجتهد فيه، وخالف فيه مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، أن تكون موافقة لأحد المذاهب الأخرى؛ حرصًا منه على هذه المسألة، ولهذا قيل له رَحِمَهُ اللَّهُ على كلمة قالها، قيل له: إنك لا تلتزم بالمذهب، قال في رسالة: **(وأكثر ما في المنتهى والإقناع - يعني: من كتب المذهب الحنبلي - مخالف لنص أحمد وقوله)**[1] (وأكثر) يعني: كثير، ليس أكثر يعني: الغالب، (أفعل) هنا بمعنى: (فعيل) بما في الإقناع والمنتهى مخالف لمذهب أحمد أو لنص أحمد وقوله.

ثم بعد ذلك، لما شنعوا عليه بعد ذلك بأنه يخرج عن المذاهب، . . . إلى آخره، ألف رسالة: آداب المشي إلى الصلاة، انتزعها من كتاب كشاف القناع عن متن الإقناع انتزاعًا حسنًا، وجعلها على أصول المذهب؛ لأجل التعليم.

هذه الحركة - حركة الاجتهاد ودعوة العلماء ألا يلتزموا في كلامهم بمذهب معين - لا شك أنها أطلقت للنفوس وللعلماء البعد عن التقليد والتبعية.

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢٥٨).

التَّفْرِيقُ بَيْنَ الفَتْوَى وَالقَضَاءِ

وأول سبيل يكون به الاتباع أن يكون المرء حريصًا على فهم كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، أما إذا كان وطاب أحد الناس مليئًا بقول فلان وفلان، ووطابه وقلبه لا يوجد به إلا القليل من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، هذا لا شك أنه مذموم؛ فإن طالب العلم يجب عليه أن يحرص أكثر الحرص على حفظ القرآن وعلى حفظ السنة قدر الإمكان؛ وبعد ذلك إذا حصل منهما، فإنه يطلع على كلام أهل العلم في فقه النصوص؛ وتحصل عنده بعد ذلك ملكة.

لكن الشيخ رحمه الله فرق فرقًا مهمًا في مسألة الاجتهاد بأن الاجتهاد يكون في الفتوى وفي طلب العلم، ولا يكون في القضاء؛ ففي الفتوى تجد أنه لم يلزم الناس بمذهب معين، لكنه في القضاء أوصى القضاة، وأمرهم بأن يكون الحكم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

سبب التفريق ما بين الفتوى وما بين القضاء

القضاء خصومة، والفتوى فيما بين المرء وبين ربه ﷻ، والخصومات تقع متشابهة، فلو قال لفلان من الناس في مسألة: هذه اجتهد فيها قاض من القضاة في بلد على مذهب معين، وفي البلد الذي بجانبه قضى فيها بمذهب آخر، ثم - وهم تحت ولاية واحدة - صار هناك اختلاف في القضاء، هذا يقضي بحكم، وهذا يقول: يقتل على مذهب المالكية، والثاني يقول: لا، لا يقتل، فيهدر دمه في مذهب، ولا يهدر دمه في مذهب، أو تطلق زوجته منه

في مذهب، ولا تطلق منه زوجته في مذهب، ويحصل في هذا خلل كبير للناس.

وكان من السياسة الشرعية الحكيمة أن يجعل الناس في القضاء على مذهب الإمام أحمد بن حنبل؛ أخذًا بالقاعدة: (إن الاجتهاد لا ينقض باجتهاد) باتفاق العلماء، حتى من هم على المذاهب الأخرى، عندهم أنه إذا حكم قاضٍ من أي مذهب، فإن حكمه يكون صحيحًا؛ باعتبار ما حكم به من مذهب؛ لأن الحكم المبني على الاجتهاد لا ينقض باجتهادٍ آخر؛ لأنه حينئذ تكون الأمور فوضى.

تَرْتِيبُهُ لأَهْلِ الحِسْبَةِ

صفحة أخرى من صفحات الدعوة وعناية الإمام رحمه الله: أنه اعتنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرًا، فلأول مرة وجد ترتيب أهل الحسبة - وهم النواب - تسمية ذلك الوقت، أو يسمونهم المطاوعة في ذلك الوقت، يعني: الذين يأمرون الناس بطاعة الله عز وجل، أو في عرفنا الحاضر أعضاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فرتب في كل بلد أهل حسبة يحتسبون، وينكرون، ويأمرون الناس بالمعروف وأداء الصلاة في الجماعات، وينهون عن المنكر، ورتب في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رتبه؛ على ما عليه أصول أهل السنة والجماعة، وأرسل في ذلك الرسائل بأنه لا يجوز أن ينكر منكرٌ، ويحدث بعد ذلك منكرٌ أكبر منه؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها،

ودرء المفاسد وتقليلها، فإذا أتى أحد، ويقول: أنا أريد أن أنكر منكرًا، ومن هذا المنكر يحدث منكر أكبر منه، فلا تنكر المنكر الأقل بقاءً في الأقل خيرًا من أن يفضي إلى ما هو أكبر.

ضَوَابِطُ فِي النَّهْيِ عَنْ المنْكَرِ

وهناك قصة تبين حكمة الشيخ ﷺ في هذه المسألة من أنه مرة كان هناك صراع وقتال بين قبيلتين، وطلبهم الإمام في ذلك الزمان، أظنه الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ﷺ، وأتوا، فأصلح بينهم الإمام والشيخ محمد بن عبد الوهاب، واصطلحوا، وكفوا عن الغارات وعن القتال الذي بينهم، وهم في المسجد كان أحد شيخي القبيلتين، لما أراد أن يسجد سقط من جيبه أنبوب شرب الدخان، وكان سابقًا في أنبوب، أنا ما رأيته، لكن بما يصفونه بأنه أنبوب طويل يحشى بالتبغ، ثم بعد ذلك يشعل في أسفله، ويمتصه إلى آخره، وكان في ذلك الوقت يعزر من كان يشرب التبغ إذا وجد، وسقط من هذا الرجل في المسجد، والشيخ ﷺ بجنبه يراه، فلما فرغ من الصلاة، أتى الطلاب وبعض أهل الحسبة، قالوا: فلان معه كذا وكذا. قال: ما رأينا شيئًا. قالوا: معه، كان بجنبك وسقط. قال: ما رأيت شيئًا، اتركوه. ونهرهم، حتى تركوه، سكتوا عن المسألة، وهم مستغربون.

فلما مر الزمان، أوضح لهم أن هذا الآن أصلحنا بينهم في مسألة قتال، هم اقتتلوا، والآن قبل الصلح، فنأتي ننكر عليه مسألة شرب الدخان! هذا ليس من الشريعة، وهذا من حكمته؛ لأنه لو استشاطه، وأنكر عليه، ربما عدل عن صلحه، ورجع، وسالت الدماء من جديد، فكان من سيرته ﷺ

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فثم عدة رسائل موجودة عندكم - أنه كان يوصي الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالقيام بالحسبة كما أمر الله ﷻ؛ لأن الأمر والنهي من سمة هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فرتب ذلك، وبين لهم درجات الإنكار شيئًا فشيئًا، حتى صار - لأول مرة - ترتيب لأهل الحسبة في ذلك، هذه سمة مهمة من السمات التي تميزت بها دعوة الإمام المصلح رحمه الله.

تَرْتِيبُ الوَضْعِ الإِدَارِيِّ للإِمَارَاتِ فِي نَجْد

من السمات المهمة التي تميزت بها الدعوة أنه رتب رحمه الله ما أمر به إمام وقته: الإمام محمد بن سعود، وبعده الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، والأئمة من آل سعود بعد ذلك، رتبوا الوضع الإداري للإمارات في نجد، وهو لأول مرة تكون الإدارة في الحكم، وفي الجهات الشرعية، وثم عدة رسائل تبين ذلك، موجودة محفوظة في التاريخ، وفي كتب الدرر السنية، والرسائل والمسائل وغيرها، رتبوا أن يكون - مثلًا - أهل الحسبة يرجعون إلى القاضي، والقاضي يرجع إلى الأمير، والأمير في بلد ما إذا ما استطاع يحل المسألة، فإنه يرجع إلى الدرعية - يعني إلى الإمام -، ثم بعد ذلك ينظر فيها الإمام، ويستشير في ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا، وكتب في هذا رسالة، وقال لهم: لا تستعجلوا بأن ترفعوا إلينا كل ما يحصل عندكم، بل راجعوا القاضي، والقاضي يبحث مع الأمير، فإن صلح الأمر

واستقام، وإلا فيرفع الأمير إلى الإمام، وحينئذ ينظر في الأمر - إن شاء الله- وهذا الترتيب الإداري هو نواة لترتيب جديد لم تعهده المنطقة قبل ذلك، وهذا هيأ أن تكون الإدارة - إدارة الدولة في ذلك الحين - إدارة منظمة وقوية، ليس فيها خلل.

الدَّعْوَةُ قَامَتْ بِالجِهَادِ

لم يكن انهيار الدولة السعودية الأولى بخلل في داخلها، وإنما كان بظلم من العباد، لما جاءت العساكر التركية في ذلك الوقت، وهدموا الدرعية، وقضوا على الدعوة في هذا الأمر، وثم ربط تاريخي ربطه المؤرخ الجبرتي في كتابه في التاريخ، ونقله عنه الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ربط ربطًا حسنًا بين بدء الحملة الفرنسية على مصر، وبين الحملة المصرية أو التركية على الدرعية أو على الدولة السعودية الأولى؛ حيث إن الحملة الفرنسية على مصر لما أتت بعد بضع سنوات فقط، ثم ولي محمد علي مصر - وكان ألبانيًا -، كان قائدًا ليس بالمشهور، أرسله الوالي التركي إلى مصر؛ لينظر في حال المماليك، وفي حال الولاية، ثم اتفق مع الفرنسيين في قصة معروفة تاريخيًا، المقصود أنه بعد مجيء الحملة الفرنسية على مصر، وتولي محمد علي ببضع سنوات، أربع أو خمس سنوات، بدأت الحملة على نجد وعلى الدولة السعودية الأولى، خلص منها - المؤرخ الجبرتي، والأستاذ محمود شاكر - بعبارة موجزة، لكنها منبئة، خلصا منها إلى أن الغرب درسوا أن هذه الحركة تتميز بشيء، وهو تخليص الناس من التقليد والتبعية، وتخليص الناس من التقليد والتبعية والصوفية،

ونحو ذلك يهيئ روح الجهاد عند الناس، وإذا قامت في المسلمين روح الجهاد، فإنه لابد أن يكون هناك توسع، وبالتالي فإن هذا فيه خطر على المصالح.

قَنَابِلُ ابْنِ تَيْمِيَةَ فَجَّرَهَا ابن عبد الوَهَّابِ

قال بعض المستشرقين من الكتاب لما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: (**لقد زرع ابن تيمية قنابل على طول العالم الإسلامي، أتى بعده ابن عبد الوهاب ففجرها**)، وهذه نظرة من مستشرق؛ لأنهم كانوا يدرسون، ويتأملون، ما السبب؟ ما يأخذون بالظواهر، بل يأخذون بالحقيقة، إذا كان الدعوة ليس فيها تقليد، فيها دعوة إلى الدليل، فيها دعوة إلى تحقيق الحق، فيها دعوة إلى توحيد الله ﷻ، ولابد من تحكيم الشريعة، ولابد من كذا وكذا، والأمر بذلك والجهاد فيه، فإذًا لن يكون هناك ولاء ولا موالاة مع الكفار، ولا خضوع أو ترك للجهاد في سبيل الله ﷻ.

لهذا تميزت الدعوة أنها قامت بالجهاد، وكان جهادًا ليس جهاد طلب، وإنما كان جهادًا لأجل دحض المظاهر الشركية، كانوا يراسلون أهل بلد معين قائلين: عندكم من المظاهر الشركية كذا وكذا، حتى إنه أرسل رسائل للوالي العثماني، أرسل رسائل لملك المغرب، في ذلك الوقت أرسل رسائل للعديد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام عبد العزيز بن محمد أرسلوا رسائل كثيرة في تبيين حقيقة الدعوة، ثم أتى الناس بعد ذلك، وجنوا عليها، ونسبوا إلى الشيخ وإلى الدعوة أشياء الله ﷻ تولى الدفاع عنهم ﷻ، ورحمهم الله تعالى.

المقصود من ذلك أن الدعوة تميزت بهذه الميزة، وهي: أنها حررت المجتمع، أحيت في الناس روحًا جديدة، قوة جديدة، نظرة للأشياء جديدة لم يكونوا يألفونها، ولذلك حوربت أتم حرب، وقضي عليها بالدولة السعودية الأولى.

الدعوة - أيضًا - مورست في الدولة السعودية الثانية، فقامت على دعوة، وكذلك الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ قام على دعوة، وكانت كلها مستمسكة بأصل هذه الدعوة، وهى دعوة الإمام المصلح السلفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، لم يأت بشيء جديد، وليس داعيًا إلى مذهب يخصه، ومن رأى في كلامه مسألة من المسائل يخالف بها المذاهب الأربعة، فإنه حينئذ يدلي بها، ولكن الشيخ يقول: أنا ما خالفت أحدًا - من يعني؟ - ما خالفت الأئمة الأربعة، وإنما دعوت إلى ما دعا إليه الأئمة، إلى ما دعا إليه الإمام مالك، والشافعي، وأحمد في أصول الاعتقاد، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والإمام ابن جرير، وإسحاق، ونحوهم من الأئمة، وفي الفروع أنا على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إلا فيما خالفوا فيه الدليل، فإن كلام الله عَجَلَّ وكلام رسول الله ﷺ أحق أن يطاع.

افْتِرَاءَاتٌ عَلَى الدَّعْوَةِ

وهذا الأصل مهم أن يعرف، وهو أن من يسمون الدعوة بأنها دعوة وهابية أو مذهب وهابي، هذا فيه جناية، وهناك من جنى جناية أكبر من ذلك، ممن كتبوا في عصر الشيخ وفيما بعده، جنوا أكبر جناية حينما كتبوا في بعض رسائلهم؛ كما في رسالة مثلًا: الدرر السنية في الرد على الوهابية، قالوا عن

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ: إن الظاهر من حاله أنه كان يدَّعِي النبوة، وقال: الظاهر أنه كان يأخذ من النساء أكثر من أربع، وكان يأمر من اتبعه أن يحلقوا رؤوسهم عنده، حتى قال بعضهم في كتاب له: وجاء في حديث عن الرسول ﷺ يقول: «**يخرج في ثاني عشر قرنًا من الزمان رجل كهيئة الثور، لا يزال يلعق براطمه، يحدث فتنة، يعتز فيه الأراذل والسفل، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»، قال بعدها: وهذا الحديث - وأنا لم أعرف من خرجه - يعني: هو الذي وضعه، لكن شواهد الصحة تدل عليه، ومع ذلك كان الإمام ﷺ صابرًا محتسبًا، وما التفت إلى هذه الأقوال التي تعترض إلى شخصه، لا تجد في رسالة منه إلا أنه يدافع عن الدين، حتى أنه قيل له مرة: (**إنك تقول لو قدرت على القبة التي على قبر رسول الله ﷺ، لهدمتها، فقال: جوابي أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم**)(١)، وهذا ولا شك ينبئ للدارس للدعوة، ولسيرة الشيخ أنه كان في دعوته يريد الحق، وهو أن يدعو الناس إلى ما كان عليه السلف الصالح من عبادة الله وحده لا شريك له، ومن عدم التعلق بالأموات والاستغاثة بالأولياء، والاعتقاد فيمن ذهبوا إلى ربهم ﷻ، ونرجو لهم عنده المنزلة العليا والزلفى برحمة الله ﷻ فيمن كانوا يعتقدون أن في كل بلد وليًا، وكل بلد فيها قبر، وكل بلد فيها قبة، حتى في وقت قريب، ربما رأيتم بعض الصور في مكة، كان مقبرة المعلاة، كانت كلها قبابًا: قبر السيدة خديجة، وقبر السيد فلان في كل بلد، حتى آمنة أم النبي ﷺ رأيت بعض الصور الفوتوغرافية إلى أن الحجاج يذهبون يمكثون عند قبرها، كان عليه قبة كبيرة، يمكثون عنده عدة أيامًا،

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٣٤).

لابد يومًا أو يومين أو ثلاثة، يمكثون عند القبر، وفعل الجهال هذا لا شك أنه ليس بمرضي شرعًا، بل هو الشرك المحقق الذي أخبر الله ﷻ به، ونهى عنه عباده، وأمر المرسلين بالنهي عنه.

دَعْوَةٌ نَاصَرَتْهَا دَوْلَةٌ

الحديث عن الدعوة وعن سيرة الإمام المصلح المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؒ يتنوع، ويتشعب، لكن نختم بسمة مهمة من سمات تلك الدعوة: أن الدعوة تميزت عن كل الدعوات التي سبقتها بأنها دعوة ناصرتها دولة، وأنها دعوة لم تكن دعوة نظرية أو علمية، وإنما كانت دعوة استجابت لها دولة، وقام لها كيان، وأثرت في الجزيرة، وأثرت في بلاد كثيرة، حتى إن عددًا من الباحثين - سواء من المسلمين أو غير المسلمين - أرجعوا كثيرًا من الحركات الإصلاحية - سواء كانت السلفية، أو غير السلفية - في العالم الإسلامي إلى التأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقالوا مثلًا: إن الشيخ محمد عبده المصري، وجمال الدين الأفغاني ممن تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقالوا: إن السنوسي ممن تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقالوا: إنه في السودان المهدي ممن تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقالوا، وقالوا . . . في دعوات لا يمكن أن توصف بأنها دعوات سلفية بتمامها، ولكن كل الحركات الإصلاحية نراها جاءت بعد الدعوة والدولة، وهذا يبين لك حقيقة أن البداية أو سن السُّنة الحسنة، التي سنَّها الإمام محمد بن عبد الوهاب ؒ في دعوته أنها كانت سنة حسنة، كان لها الخير الكبير في الجزيرة وفي غيرها.

من علماء الجزيرة مثلًا في مكة، في نحو زمن الشريف غالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هناك اتفاق كبير معروف، صك وثيقة كبيرة اجتمع علماء الدعوة، أتوا من الدرعية، منهم الشيخ حمد بن معمر، وجماعة من العلماء، وعدد من علماء مكة عن المذاهب الأربعة، واتفقوا فيها على أُصول التوحيد، وهي موجودة بأختام الجميع، واتفقوا فيه على أن هذا هو الحق، وهذا كان - أيضًا - موافقًا عليه من قبل عدد من علماء اليمن مثل: الأمير محمد الصنعاني صاحب سبل السلام، وصاحب رسالة تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، وصاحب القصيدة المعروفة في مدح الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدالية المشهورة، كذلك الشوكاني، وعدد من العلماء، وفي جنوب الجزيرة - أيضًا -، في عسير، والمخلاف السليماني في ذلك الوقت، عدد من العلماء تأثروا بالدعوة قبل وصولها إليهم - يعني: كدولة -، وكذلك في الخليج، وفي الشام، وفي مصر وغيرها.

أَثَرُ الدَّعْوَةِ فِي أَمْصَارٍ كَثِيرَةٍ

فالدعوة - لا شك - كان لها الأثر الكبير في أمصار كثيرة، لكن لم يكن لها الأثر إلا بفضل الله عَجَّلَ أولًا وآخرًا، ثم مساندة الدولة، وكل فضل يُنسب إلى الدعوة لابد أن ينسب قبل ذلك إلى الأئمة من آل سعود الذين أيدوا هذه الدولة وهذه الدعوة، وإذا نظرنا إلى الدعوات السالفة لعدد من العلماء، وجدنا أنهم لما لم يصن دعوتهم، ويسند دعوتهم سيف وسنان، كانت دعواتهم قاصرة، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية مثلًا، وهو أعلم وأفقه وأكثر اجتهادًا، وإنما الشيخ محمد بن عبد الوهاب حسنة من حسنات

شيخ الإسلام ابن تيمية، لكن لم يكن لدعوته من التأثير العام والفعلي، حتى في بلده مات رَحِمَهُ اللهُ، ولا زالت القبور الشركية موجودة، ولا زالت عدد من الأشياء في بلده، وفي مصر التي ذهب إليها لم يستطع أن يخلص الناس؛ لأنه ما مده السلطان، بل كان السلطان في زمنه ضده، فسجن في مصر، وسجن في الشام - كما هو معلوم -، ومات في سجن القلعة رَحِمَهُ اللهُ.

وعدد من العلماء الذين لهم مؤلفات قوية، ولهم إنكار، ولهم معرفة بالسنة وتأليف في التوحيد، لكن أين أثرهم العام في الناس؟ تجد أن الأثر العام كان قليلًا، كان محصورًا في طلبة العلم الذين تأثروا بهم أو في مصنفاتهم، أما أثر الدعوة الإصلاحية كان أكبر الأثر - كما ترون اليوم دولة -، وهناك من تأثر، ودعوات كثيرة في عدد من البلاد، حتى وجد في جزيرة بعيدة تدرس كتب السنة والتوحيد والدعوة إلى نبذ الشرك والخرافة وأنواع البدع والمحدثات، ووجد ولله الحمد الأثر الكبير، هذا الأثر لا يكون إلا بدولة.

الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ

من السمات البارزة لهذه الدعوة أن الدعوة نظرت إلى سنة النبي ﷺ في أن النبي ﷺ إنما قوي لما هاجر إلى المدينة، ولما تعهد الأنصار في بيعة العقبة الأولى وفي بيعة العقبة الثانية بأن ينصروه وأن يؤيدوه، حتى قالوا له ما قالوا، ثم قال النبي ﷺ: «بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ»، يعني: لن أستبدل بكم يا أهل المدينة من الأوس والخزرج أحدًا، قالوا: نخشى أنه إذا نصرك الله

أن ترجع إلى مكة. قال: (**بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ**)[١]؛ كما هو معروف في السيرة، وبقي في المدينة ﷺ؛ لأنها دار هجرته، ولأن أهلها أهل نصرة دعوته، الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما اتفق مع الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية إذ ذاك، قال له الأمير محمد: أخشى أنك تترك البلد بعد أن يُظهر الله هذه الدعوة. فقال له - وهو مدون في كتب السير - نفس الكلمة التي قالها إمامه وقدوته محمد بن عبد الله ﷺ: (**بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ**)، وفعلًا مكث في الدرعية، حتى توفاه الله ﷻ فيها، وهذا مما نأخذ منه درسًا مهمًا في أن كل مصلح ومخلص لله ﷻ ولهذا الدين، فإنه لابد أن يضع يده في يد من يساند الدعوة، والآن أنتم تنظرون، وتعلمون الخير الوفير، والعلم الجم، ونشر العقيدة الصالحة، وما حصل من تحقيق التوحيد ومن نبذ الخرافة والشرك بأثر الدولة - المملكة العربية السعودية -، وما قام به الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نشر هذه الدعوة في الداخل وفي الخارج، واستقطاب من هم على الدعوة من السلفيين في أماكن مختلفة، ومدهم ونصرتهم، مما حصل منه هذا الخير الكثير.

على كل حال هذه سمات متفرقة لهذه الدعوة، ولا شك أن حديثي قاصر عن الشيخ وعن دعوته، ولكن هي كلمات تفتح الباب لمن أراد المزيد في دراسة سيرة هذا الإمام المصلح، ودراسة أثر الدعوة والدولة على الناس في هذه البلاد وفي خارجها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ٩٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٧، ٢٥٠)، عن عروة ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن كتب له القبول، وأصلح له علمه وعمله، وبارك له في قوله وفي عمله، ونماه له.

كما أسأل الله ﷻ أن يغفر لأئمتنا ولعلمائنا ولعلماء المسلمين السالفين، وأن يرضى عن صحابة نبيه ﷺ أجمعين وعن التابعين لهم بإحسان، وأن يجزل المثوبة، وأن يرفع درجة أئمة الإسلام الذين جاهدوا في الله حق الجهاد، وبينوا، وجددوا لهذه الأمة أمر دينها حقًا، فتركوها على أمر بيِّن.

ويتوالى العلماء والمصلحون، فنسأل الله ﷻ لهم الرفعة في الدرجات، والمغفرة في الزلات، كما أسأل المولى ﷻ أن يخص برحمته، وأن يزيد من فضله الإمام المصلح الأوَّاب محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى رحمة واسعة -، ورحم ورفع درجة من نصره وأيده وساعده في دعوته من الأئمة المصلحين من أُسرة آل سعود، ومن نصر دعوته من تلامذته وأبنائه وأحفاده، ومن تأثر بهم؛ إنه جواد كريم.

كما أسأل المولى ﷻ بأسمائه وصفاته أن يرينا دائمًا الحق حقًا، وأن يمن علينا باتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا، وأن يمن علينا باجتنابه، وأن يجعلنا من المتحرين للحق، المنصفين في أقوالهم وفي أعمالهم؛ إنه سبحانه جواد كريم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

محاضرة معالم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وشبهات المناوئين لها ١٤٢٤/١١/٩هـ بالجامع الكبير بالرياض

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، نشهد بأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

وإني لأحمد الله ﷻ حمدًا كثيرًا متواليًا أن جعل هذه الأمة على الخير والهدى إلى قيام الساعة، وأن منها طائفة منصورة ينصرها الله ﷻ بالحجة والبيان في كل حال وأوان، فلا يمكن لأحد أن يقاوم ويغلب حجة القرآن وحجة سيد ولد عدنان ﷺ، فمن كان معه السيف - سيف الحجة والبرهان

والآية والبيان -، فهو المنصور والمهتدي: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

وأحمد الله ﷻ أن ورثنا هذا الخير بطريق حمله أئمة تلو أئمة، ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، ونافحوا عنها، والحمد لله أن الأمر كما وصفه النبي ﷺ بقوله: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»(١). فحقيقة الأمر أن الملة بيِّنة واضحة، وأن الهدى لا التباس فيه، ولكن الله ﷻ ابتلى الناس بأنواع من الابتلاء، ومنها أنه ابتلى صاحب الحق بصاحب الباطل، وابتلى أهل الهدى بأهل النفاق.

وهذا قديم قِدَم الحق والباطل؛ ولهذا لا تستغربوا أن القرآن - في سوره وآيه - فيه ذكر هذا الصراع بين الحق والباطل، وبين الأنبياء والرسل ومن ناوأهم وعاداهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، والحظ في هذه الآية أن الله ﷻ بيَّن أنه جعل لكل نبي - لا يُستثنى من ذلك أحد - عدوًا من المجرمين، الذين خرجوا عن ما يقتضيه الحق، وعادوا الأنبياء والرسل، فكانت عداوتهم واضحة بيِّنة، لكن هذه سنة الله، ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والله ﷻ هو الكافي في الهداية، فمن كان معه هداية ربه بحجة القرآن وحجة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فهو مُكتفٍ، لا يحتاج إلى زيادة، ثم كفى بربك نصيرًا،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه واللفظ له (٤٣)، وأحمد (١٢٦/٤)، من حديث العرباض بن سارية ؓ.

فلا يظنن أحدٌ - مع قلة النصير أو مع قلة الموافق له فيما قام عليه البرهان والدليل، ومشى عليه الأئمة خالفًا عن سالف - أنه وحده في هذا السبيل؛ فطريق الهدى ماضٍ، والله ﷻ كفى به نصيرًا لأوليائه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وإذا كان إبراهيم أمة، وليس بواحد عليه السلام، بل هو أمة من الأمم، فكل من سلك طريقه، فلا يستوحشنَّ من قلة السالكين.

واختُتمت الرسالات برسالة محمد ﷺ، التي هي رسالة الإسلام الخاتمة ونبينا ﷺ جاء أهل الجاهلية، وهم على أنواع من الاعتقادات والعبادات، وأحوال في الاجتماع والسلوك، فحملهم على أكمل هدى، وجاءهم بأكرم طريق، حتى اشتهر الإسلام، وظهر، ونصر الله عبده، وفتح له الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١]، ثم جاء الناس أفواجًا أفواجًا؛ ليدخلوا في دين الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣].

ثم مضى على ذلك النهج الصحابة الكرام رضي الله عنهم، لم يظهر فيهم ضلال ولا نحلة باطلة؛ لأنهم استمسكوا بالأمر الأول، ثم بزغ نجم الفتن - والعياذ بالله -، وظهرت الفتن بين الناس، وكان من أول الفتن ظهورًا في الناس الطعن في عثمان بن عفان رضي الله عنه في أمرين:

الأول: تعيينه لأقاربه في الأمصار.

والثاني: تصرفه في المال العام كيف شاء.

فظهرت الخوارج، وقُتل عثمان رضي الله عنه بسبب ذلك، ثم قُتل علي رضي الله عنه بسبب

ذلك، ثم ظهرت فرق كثيرة من السبئية الغلاة، ثم الروافض، ثم ظهر القدرية والمرجئة، وافترقت الخوارج على فرق - أيضًا -، ثم أتى الأمر، وزاد حتى ظهرت فرق مختلفة، نحت نحو عقائد موجودة في فارس والهند وفي غيرها، كاليونان وغيرها، فآل الأمر في أمة الإسلام إلى أنها فارقت في كثير من أنحائها - إلا من هدى الله ﷻ - ما كان عليه الصحابة ﷺ، وما كان عليه الهدى في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في انحرافات شتى.

وكان من الانحرافات التي ظهرت في القرن الثالث الهجري: التوجه إلى قبور الأولياء، واعتقاد أن لهم تصرفًا في الكون، وأن من أتاهم يطلب منهم شيئًا، فإنه قد أتى الله ﷻ بطلب حاجته؛ لأنهم وسائط يوصلون الأمور إلى الله ﷻ، وكان ممن قرر هذا في كتبه أصحاب رسائل (**إخوان الصفا**)، فبينوا أن إتيان قبور الأولياء إنما هو إتيان للأرواح التي لها منزلة عند الله ﷻ، ثم آل بهم الأمر في تعظيم هؤلاء الأولياء إلى أن يعظموا قبورهم، وأن يبنوا عليها، ويتخذوا عليها المساجد، وأن يحجوا إليها، وأن يوجهوا الناس لذلك.

فقام أئمة الإسلام منذ القرن الثالث - في أواخره - والرابع بإنكار ذلك أشد النكير، وتكلموا في ذلك ببيان حق الله ﷻ، وسطروه في أن هؤلاء الأولياء لهم مكانتهم عند الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم في ولايتهم وكرامتهم عند الله ﷻ ليس لهم التصرف في الكون في ذلك، فبين أهل العلم في القرن الرابع الهجري

والخامس أن من أتى إلى قبر ولي، أو من أتى إلى مكان معظم؛ ليعظمه، وليتوسل به، فإنه قد ولج بابًا من أبواب الشرك بالله ﷻ، ثم ازداد الأمر مع ازدياد الجهل، والعلماء يبينون، ويسطرون ذلك في مؤلفاتهم - مؤلفات الاعتقاد -، حتى جاء انحراف كبير في تاريخ الإسلام، وهو مأخوذ من نظر المنطق اليوناني وعلوم الكلام، وهو أن الابتلاء وتحقيق العبودية لله ﷻ إنما يكون بالإيمان بأن الله ﷻ هو الرب، الخالق، الرازق، المغيث، الذي يُستجار به، وأنه من آمن بأنه لا خالق، ولا رازق، ولا مُعطي، ولا مانع إلا الله ﷻ، فإنه قد حقق لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ كما قال أحدهم في عقائده، حيث قال: معنى لا إله إلا الله: لا مستغنيًا عن ما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله، قال: فمعنى الإله هو المستغني عن ما سواه، المفتقر إليه كل من عداه، وهذا بداية افتراق كبير في فهم معنى لا إله إلا الله، فظن فئام من الناس لما جاءت طوائف، فعرَّفوا الإله والرب بهذا المعنى، والإله بمعنى الرب، ظنوا أنه حينئذٍ لا أثر للتوجه إلى غير الله ﷻ بعبادة أو دعاء؛ لأنه ما دام أن لا إله إلا الله معناها: لا خالق، ولا رازق، ولا مستغني عن ما سواه، ولا قادر إلا الله، فالجميع يؤمن بذلك، فلا يؤثر أن يتوجه إلى ولي، أو إلى قبر، أو إلى شجرة، أو إلى حجر، فإن المقصود بالإيمان هو الإيمان بربوبية الله ﷻ، وأن معنى الإلهية هي الربوبية.

والله ﷻ قد فرق في القرآن العظيم بين الرب والإله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]. فالربوبية غير الألوهية، والرب غير الإله.

ولذلك فإن الأمر لما التبس على هذا النحو، ظل العلماء يبينون هذا الأمر، ولم يكن في كثرته في القرن الخامس والسادس الهجري كثرة في كل مصر، وإنما زاد شيئًا فشيئًا مع ازدياد الجهل، ومع ازدياد الشبه، حتى أتى إلى القرون التي ضعف فيها العلم في القرن العاشر الهجري والحادي عشر الهجري، فكثر ذلك الأمر في الناس؛ لضعف من ينبههم من أهل العلم، ويبين لهم ذلك، وكان الأمر في القرون التي قبل ذلك أنه يُنكر، والعلماء يبينون ذلك، ويقل هذا الأمر كلما أُنكر، وبُيِّن الأمر، فضعف، وخبا ولله الحمد، ثم لما ازداد الجهل، وضعف المُنبه، كثرت هذه الأمور في أمصار المسلمين، فكثرت الشبه العلمية والاعتقادية، وكذلك كثر التوجه إلى غير الله ﷻ في العبادة، حتى أتى القرن الثاني عشر، فقيض الله ﷻ عالمًا أخذ العلم عن عدد من علماء المسلمين في بلده وفي غيره أوابًا تقيًا نشأ نشأة صالحة، هو الإمام الأواب: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المشرفي الوهابي التميمي، المولود سنة ألف ومائة وخمس عشرة والمتوفى سنة ست ومائتين وألف، فلما بلغ من العمر نحوًا من ثلاثين سنة بدأ بإظهار ما تعلمه من إنكار هذه الأمور التي فشت في الناس، وقام بدعوته شيئًا فشيئًا في بلده، وعرضها على أمراء وقته، فاستجاب له بعض، ونكص بعض، حتى آل الأمر إلى أنه استجاب لدعوته في توحيد الله ﷻ الأمير الصابر محمد ابن سعود بن مقرن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكان العهد المعروف سنة سبع وخمسين ومائة وألف، ثم بدأت الدعوة بالانتشار لما التقى السيف والقلم في بيانٍ للناس وظهور.

الوَهَّابِيَّةُ لَيسَتْ فِرْقَةً جَدِيدَةً

هذه الدعوة الإصلاحية لا يصح أن تُسمى وهابية، وكلمة وهابية هذه إنما هي من أعداء هذه الدعوة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري؛ لأجل تنفير الناس منها، ولكي يقولوا لهم: إن هذه جاءت بمذهب جديد، وعقيدة جديدة، وبشيء لم يكن معروفًا، فسموها بالوهابية؛ حتى يظن الظان أنها نحلة وفرقة جديدة ظهرت في المسلمين.

وحقيقة هذه الدعوة الإصلاحية التجديدية التي أتى بها الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أنها هي دعوة أئمة الإسلام: الإمام أبي حنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن حجاج النيسابوري، وابن خزيمة، وأحمد، وابن تيمية، وابن القيم، وغير هؤلاء من علماء الإسلام، بل كل علماء الإسلام في الحديث والفقه يقرون بها وبأصولها، بل شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب أخذ عنهم؛ كما هو موجود في مؤلفات الإمام.

المقصود من هذا أنها دعوة تجديدية، أخذ الإمام ما تفرق في كلام أهل العلم على مدى قرون من الزمان، فسطَّره في كتبه ودعا الناس إليه.

مَعَالِمُ الدَّعْوَةِ

وكانت معالم دعوته رحمه الله قائمة على أمور:

الأول: أنها دعوة يراد منها تجديد أمر الدين في حياة الناس، وتبيين ما خفي عليهم، فكانت معتمدةً أولًا على كلام الأئمة (أئمة الإسلام ممن هم قبل الشيخ رحمه الله)، ومعتمدة على العلم، فهي ليست بدعًا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وليست وليدة جديدة، بل على أثر دعوة أئمة ودعوة تجديدية سابقة.

ثم هي معتمدة على العلم النافع، على (**قال الله، وقال رسوله ﷺ**)، فأول ما تتميز به الدعوة: أنها دعوة معتمدة على علم من سبق، وليست بقول جديد.

ثم معتمدة على العلم، والبرهان، والدليل؛ ولذلك كان من الطعون في الدعوة - كما سيأتي - أنها حاربت التقليد، وأحيت الاجتهاد، وكان الناس في ذلك الزمن يقولون: إن باب الاجتهاد قد أُغْلق، فلا بد من أن يكون الناس على نصوص العلماء دون أن يرجعوا إلى نصوص الكتاب والسنة؛ لعدم وجود المجتهد الذي يفهم معاني القرآن والسنة.

الثاني: من معالم هذه الدعوة وأساسياتها: أنها قامت على تحقيق التوحيد لله ﷻ، فبيَّنت أن أعظم حق لله ﷻ أن يوحد في العبادة، كما أنه الواحد سبحانه في الربوبية، فهو ﷻ الرب وحده، هو الخالق، والرازق، فكذلك يجب أن يُتوجه إليه في العبادة وحده، دونما سواه، فالتوجه إلى

مخلوق بالعبادة: بالدعاء، والاستغاثة، أو بذبح، أو نذر، أو بتعظيمه، أو بخلع بعض صفات الله ﷻ عليه، ونحو ذلك، هذا شرك بالله ﷻ، وهو قدح في الحقيقة في لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فكان من أعظم معالم هذه الدعوة التفريق بين نوعي التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية.

وطُعن في الدعوة بأنها فرقت بين نوعي التوحيد، وهذا لا يُعرف عن أحد من أهل العلم؛ كما قال المناوئون: بأن التفريق في التوحيد بين الربوبية والإلهية والأسماء والصفات إنما هو شيء اخترعه محمد بن عبد الوهاب، ولم يُعرف عن أحد من أهل العلم، وسيأتي جواب عن هذه الشبهة - إن شاء الله تعالى -، وحقيقة التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية هو ما ذكره الإمام حينما سُئل: ما الفرق بين توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية؟

فقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: الرب والإله مختلفان في القرآن، والربوبية والإلهية إذا اجتمعا تفرقا وإذا افترقا اجتمعا[(١)]، فهما كلفظ الإسلام والإيمان، والفقير والمسكين.

وهذا الذي قاله هو الحق الذي تدل عليه النصوص؛ لأن من آمن بأن الله هو الواحد المستحق للعبادة، فإنه يتضمن ذلك أنه مؤمن بأن الله ﷻ هو الرب وحده، وهو المالك للأمر، وهو المتصرف، وهو الخالق والرازق؛ لأنه لما توجه في عبادته، ورجائه، وخوفه، وإقباله، وإخباته، ودعائه، واستغاثته، وإنابته، وإعانته إلى الله ﷻ الواحد الأحد في استحقاق العبادة، فهو متضمن

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ١٠٦).

بأنه موقن بأن هذا الإله هو الخالق الرازق وحده، وهو المحيي والمميت وحده، وهو الذي يُجير، ولا يُجار عليه وحده ﷻ.

فكل من آمن بتوحيد الإلهية، فإنه متضمن ذلك أنه مؤمن بتوحيد الربوبية، وأما العكس، فإن من آمن بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق وحده، فإنه لا يتضمن ذلك أنه يتوجه إلى الله ﷻ بالعبادة وحده، فهناك المشركون في كل زمان ومكان يؤمنون بأنه لا خالق إلا الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]

قل من بيده ملكوت السماوات والأرض؟! يقرون بأنه الله، من الذي خلقهم ورزقهم؟ يقرون بأنه الله، من الذي يُجير ولا يُجار عليه؟ يقرون بأنه الله ﷻ، لكنهم يعبدون غيره؛ ولذلك تجد في القرآن الاحتجاج على المشركين - مشركي قريش - في عبادتهم لغير الله بإيمانهم بالربوبية، فإذا كانوا قد آمنوا بأن الله هو الرب وحده، فمعنى ذلك أنه يستلزم ذلك، ويستوجب أنكم لا تعبدون إلا الله.

فإذًا فَرَّق هنا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية؛ لأن النصوص دلت على التفريق بين الرب وبين الإله، وأن المشركين - مشركي قريش - الذين واجههم النبي ﷺ بالدعوة كانوا يؤمنون بالربوبية، ولا يؤمنون بتوحيد الله ﷻ في الإلهية؛ لذلك قال الله ﷻ عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فلم يكونوا يوقنون بأن الألوهية لا تتوجب إلا لواحد، وهو الله ﷻ، وإنما الربوبية هي لله ﷻ.

فكان من معالم دعوته أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصَّل، وقرر بالحجة والبيان أن هناك فرقًا

واضحًا بين الرب والإله، وبين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وأن أولئك الذين عرفوا الإله بأنه الخالق الرازق، أو الذي له قدرة على الاختراع، أن هذا باطل وانحراف عن ما دل عليه القرآن والسنة في تعريف الإله وتعريف الرب.

المعلم الثالث من معالم هذه الدعوة: أن الواجب عند التنازع الرد إلى كتاب الله ﷻ وإلى سنة رسوله ﷺ، وأنه عند الاختلاف لا يجوز أن نرجع إلى أقوال المختلفين، بل ننظر في نصوص الكتاب والسنة؛ لأنها هي الهدى، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩]، ومعلوم أنه وقع النزاع في معاني التوحيد، سواء في الربوبية والإلهية، أو في الأسماء والصفات، وكذلك وقع النزاع في بعض مسائل الاعتقاد، ووقع النزاع في مسائل في الفقه والسلوك والعمل فحين التنازع إلى أي شيء نرجع إلى نصوص الكتاب والسنة.

فحارب رحمه الله البدع، وأوجب على أهلها أن يرجعوا إلى هدي النبي ﷺ؛ فإن فيه القضاء على كل البدع الاعتقادية والعملية، والبدع شاعت، وانتشرت في الاعتقاد، والعلم، والعمل، والعبادة، وكان دواء ذلك أن يُرجع إلى الكتاب والسنة وإلى هدي السلف الصالح في ذلك، وهذا من الأصول العظيمة: أنه فيما اختلف الناس فيه، فإنه يجب أن نرجع إلى ركن ركين وثيق، وهو الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح.

تعلمون أن الكثير من الناس يقول: نرجع إلى الكتاب والسنة، ثم يؤول

الآي والأحاديث إلى فهم بعض العلماء، لكن الواجب أن نفهم القرآن والسنة على أي فهم؟ هل هو على فهم المتأخرين، أو على فهم السلف الصالحين؟ فكانت السمة البارزة في الدعوة أن فهم الكتاب والسنة، والرجوع إليهما في الحجة متعين على فهم الصحابة والسلف الصالح والتابعين لهم بإحسان؛ لأن الفهوم كثرت، وتنوعت، فنفهم على أي شيء؟ إذا أتى آتٍ، وقال: الآية هذه تدل على كذا وكذا، فنقول: هل هذا كان موجودًا في زمن السلف؟

يقولون - مثلًا - في قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]: البشرى في الحياة الدنيا، منها أن يُسأل، وأن يُطلب منه، وأن يُتوسل به. فنقول: هذا فهم في الآية، هل فهمه السلف؟ هل فهمه الصحابة ﷺ؟ لا نجد عندهم هذا الفهم، ألم يكن أبو بكر رضي الله عنه من أولياء الله ﷻ؟ فلماذا لم يعتقد الصحابة ﷺ فيه هذا الاعتقاد، فيتوسلوا به؟! ألم يكن عمر رضي الله عنه من أولياء الله؟! بلى، ولم يكن الصحابة ﷺ يعتقدون فيهم هذه المعتقدات ويأتون إلى قبورهم، ويسألونهم، ويرجون ما عندهم، وكذلك عثمان وعلي رضي الله عنهما والصحابة العشرة المبشرون بالجنة ومن بعدهم ﷺ.

فإذًا الميزان هو الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، وأما إذا كان فهم فلان وفلان ممن أتى بعد ذلك، فإن هذا ليس بحجة على فهم السلف؛ ولذلك قال الشاطبي رحمه الله في (الاعتصام) - لما عرض لمسألة التبرك، وأن

الصالحين يُتبرك بهم -، فقال في (الاعتصام)[١]: إلا أنه عرض لهذا أمر قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، ألا وهو: أن الصحابة ﷺ لم يكونوا يفعلون بأبي بكر ﷺ شيئًا من هذا النوع من التبرك، ولم يكونوا يفعلون بعمر ﷺ في حياته ولا بعد مماته شيئًا من هذا التبرك، ولم يكونوا يفعلون بعثمان ولا علي، ولا العشرة شيئًا من هذا التبرك، فدل هذا - كما هو كلام الشاطبي - على أن هذا الفهم للتوسل والتبرك مقطوع ببطلانه؛ لعدم فهم السلف له.

وهذا أصل أصيل في دعوة الإمام المصلح في أن الفهم في المسائل المشتبهة يجب أن يرجع الناس فيه إلى فهم السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، فإذا كانوا أجمعوا على شيء، ولم يُعرف في زمنهم، فإنه في الحقيقة باطل أن يُذهب إلى غير فهمهم، وكذلك في المسائل العلمية، فإنه يجب أن نرجع إلى إجماع الناس.

من معالم هذه الدعوة (دعوة الإمام المصلح): أنها اعتمدت على ما أجمع عليه العلماء، ولم تذهب إلى ما اختلفوا فيه؛ قال ﷺ في رسالة أرسلها، بل في عدة رسائل، قال: وإنما دعوت الناس إلى ما أجمع عليه العلماء، ولم أُكفر أحدًا من الناس إلا بما أجمع العلماء على التكفير به، وأما ما اختلفوا فيه، فلم أتكلم فيه.

---

(١) انظر: الاعتصام (ص٢٩٣): (إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله وهو أن الصحابة ﷺ بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق ﷺ فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك ولا عمر ﷺ وهو كان في الأمة ثم كذلك عثمان ثم علي ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركًا تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها).

وسُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول أمره: هل أنت تقول إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وأن التوسل بالجاه ونحو ذلك أنه كفر، وأن المسلمين الذين لم يتبعوك أنهم كفار، ونحو ذلك؟ فأجاب في رسالة على عدد من الشبه، قال: (أقول سبحانك، هذا بهتان عظيم، فأنا لم أتكلم في هذه المسائل التي ذكرتم أصلًا، **وإذا كنا لا نُكفر من عند قبة الكواز أو عند قبة البدوي؛ لأجل عدم وجود من ينبههم، فكيف أتكلم في مثل هذه المسائل؟**)(١)، وهذه من أساسيات الدعوة: أنها قامت على الدعوة إلى ما أجمع عليه العلماء وبينوه من حق الله عَزَّ وَجَلَّ في توحيده، والإنابة إليه، وعبادته وحده لا شريك له.

من معالم هذه الدعوة: أنها قامت على تحقيق المتابعة للنبي ﷺ، وأن حقيقة الشهادة بأن محمدًا رسول الله هي أن يُطاع ﷺ، أن يُطاع فيما أمر، وأن يُجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرعه ﷺ، معلوم أن العبادة قد تخطر على بال إنسان أن يتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بنوع من العبادة، كأن يسجد مثلًا بنوع من السجود، أو أن يركع على نحو ما، أو أن يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ على نحو ما، ونحو ذلك بأنواع من العبادة.

فحقيقة طاعة النبي ﷺ هي في اتباعه، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ١٠٤): (**وإذا كنا: لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر؛ والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم**).

فإذًا الدعوة قامت على أن الاتباع للنبي ﷺ هو حقيقة طاعته، فإذا كان الشيء في سنته ﷺ، فإن العمل به متعين، فإن العمل به دين ومشروع، سواء أكان مأمورًا به أمر إيجاب، أو أمر استحباب، أو كان عمله النبي ﷺ عملًا؛ ولهذا كان في الكثير من الأمور السلوكية التي كانت في وقت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عُطلت؛ لأنها لم تكن من سنة النبي ﷺ، ولا من هديه.

من معالم دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنها دعوة جاءت لجمع المسلمين، وليست لتفريقهم، بل كان حريصًا على جمع الكلمة ووحدة الصف، فكان الناس في نجد بخصوصها، كل بلد وكل قرية لها أمير، ولها والٍ، ولها من يأمر وينهى فيها، وكان القاضي موجودًا والمفتي الواحد يفتي على مذاهب شتى، فيأتيه السائل، ويسأله، فيقول: تريد الفتوى على أي مذهب؟ فإذا قال: أريد فتوى على المذهب الحنفي. أفتاه، هو نفس العالم، أريد فتوى على المذهب المالكي. أفتاه، أريد الطريقة النقشبندية، قال: هذه الطريقة النقشبندية، أريد الطريقة القادرية، قال: هذه الطريقة القادرية، . . .، وهكذا.

فكان الناس مختلفين في الولاية، ومختلفين في الدين بعبادة آلهة مختلفة، وأشجار، وأحجار، و. . .، إلى آخره، وكانوا أيضًا مختلفين، حتى في المذاهب التي يتبعونها، وفي السلوك، والعمل، فأتاهم بأمر عظيم، وهو جمع الكلمة، وعدم التفرق في دين الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [الشورى: ١٣]، وهذا هو الأصل العظيم من أصول الإسلام: أن يكون هناك اجتماع على الدين الحق.

فدعا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الجماعة والنهي عن الفرقة، الجماعة بمعنييها: الجماعة في الدين، والجماعة في الأبدان، أن يكون الدين واحدًا، وأن يكون الولاية والاجتماع عليها واحدًا، وكذلك نهى عن الفرقة (الفرقة في الدين) بأخذ المذاهب والأقوال، كلٌ كما يريد، دون رجوع إلى نور من الهدى: من كلام الله عَجَّلَ، وكلام النبوة، وسيرة السلف الصالحين، أو التفرق في الأبدان، بأن يكون كل فئة لا إمام لها، أو يذهبون إلى أي نحو كان، وهذا من أعظم ركائز الإسلام التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية في أن يكون هناك اجتماع وعدم افتراق، فاجتمع الناس على ولاية واحدة، دعا الناس إلى أن يجتمعوا عليها وإلى دين واحد، فاجتمع الناس بعد زمن في هذه المنطقة الكبيرة الشاسعة من الأرض بقراها وبلادها وأناسها على دين واحد، والله عَجَّلَ يرضى لنا أن نعبده، ولا نشرك بك به شيئًا: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**...»(١)، ويرضى لنا أن نجتمع على ولاة أمرنا.

من معالم هذه الدعوة: أنها ألغت الإمارات المختلفة، وألغت الاختلاف، وجمعت الناس على كلمة واحدة؛ ولهذا كان في رسائل الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه راسل أهل الأمصار المختلفين، دعاهم إلى ما آمن به في هذا الأمر، وإلى الاجتماع على كلمة واحدة، وعدم التفرق في الدين والأبدان.

من معالم هذه الدعوة المباركة: أنها دعوة قامت على محبة الناس

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

محبة المسلمين في البلاد هذه، في الجزيرة العربية (الدولة السعودية الأولى) كان الناس مختلفين - كما هو معلوم -، فيهم النعرات القبلية، والنعرات الطائفية، والنعرات الإقليمية، فأرسى فيهم رحمه الله المحبة فيما بينهم؛ امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

فأقام فيهم حب بعضهم بعضًا، وأن ينصر بعضهم بعضًا، وأزال تلك الجاهليات التي كانت في الرجوع في كل قوم إلى شيخ قبيلتهم، أو إلى العصبية لبلدهم، أو إلى ما هم عليه، بل دعاهم إلى أن يتحدوا، فكانوا فعلًا متحدين بعد أن كانوا مختلفين على اختلاف القبائل والبلاد والأمصار، بل تآخى لأجل هذه العقيدة من في الهند، ومن في نجد، ومن في الحجاز، ومن في اليمن، كلهم على محبة واحدة، السبب في ذلك أن الدعوة قامت على المحبة في الله ﷻ، وعلى الحب في الله والبغض في الله، فالمؤمنون يحب بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا.

فهذه الدعوة لم تقم على أساس تفريق الناس، بل كان الناس متفرقين، فقام الإمام المصلح رحمه الله إلى إحياء النصوص الشرعية في نفوس الناس التي تجعلهم يجتمعون، ولا يتفرقون.

ولهذا أئمة الدعوة وعلماء الدعوة من بعد الشيخ رحمه الله إلى وقتنا الحاضر من علمائنا الموجودين - حفظهم الله تعالى - الجميع يدعو إلى هذا الاجتماع - اجتماع المسلمين -، وإلى محبتهم، وإلى مناصرتهم، وإلى أن تكون

الكلمة واحدة، وأن لا يتفرق الناس، بل أن يجتمعوا في أمر الدين وفي أمر الدنيا؛ حتى يكونوا أقوياء في عقيدتهم، وأقوياء على أعدائهم.

لا يُعرف أنه ناصر المسلمين إلا من آثار هذه الدعوة السلفية الصالحة؟ مناصرة المسلمين واجتماعهم ومحبتهم وموالاتهم إنما كانت من آثار هذه الدعوة.

هذه الدعوة من معالمها: أنها قامت على الفقه الصحيح في دين الله ﷻ، الفقه في الكتاب والسنة باحترام المذاهب الإسلامية، وعدم الطعن في مذهب من المذاهب: (المذاهب مذاهب الأئمة المتبوعين) مذاهب حق وهدى في نفسها؛ لأن أئمة الإسلام ما منهم أحد إلا وقد أراد الحق والهدى فيما نحاه من الفقه والحكم في المسائل الشرعية، لكن الصواب المُطلق مع النبي ﷺ، وأما العلماء، فمنهم من يصيب، ومنهم من يُخطئ، والصواب الكامل مع النبي ﷺ.

ولذلك ما من إمام من الأئمة إلا وقد قال قولته المشهورة: (**إذا صح الحديث، فهو مذهبي، ولا تُقلدني، وتقلد سفيان ومالكًا، وإنما خذ من حيث أخذوا؛ كما قال الإمام أحمد**).

فإذًا هذه الدعوة من معالمها أنها لم تطعن في مذاهب المسلمين الفقهية، وإنما أخذت منها واحترمتها، وأجلت العلماء والأئمة، وعظمتهم التعظيم اللائق بهم، وأخذت عنهم، وترحمت عليهم، وترضت عنهم، وقالت بما قالوا في ذلك، لكن إذا اختلف العلماء في هذا الأمر، فإنه يؤخذ بما رجحه الدليل من الكتاب والسنة؛ لأن الحق في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ،

وإذا وقع الاختلاف - والدليل - أيضًا - يقبل هذا الاختلاف -، فيعذر بعضنا بعضًا فيما قبل الدليل فيه الاختلاف.

ولهذا تجد أن الدعوة السلفية هي كما سطر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النفيس (**رفع الملام عن الأئمة الأعلام**) - يعني: لا يُلام العلماء في اختلافهم -، ولكن نُلام نحن إذا تعصبنا مع ظهور الحق في قول من الأقوال، ونقول: لا يهمني الدليل، ولكن يهمني ما قال به فلان؛ كما قال بعضهم: إنه إذا كان قول الإمام مخالفًا للحديث، فإن الحديث إما أن يكون مؤولًا أو منسوخًا، هذا ليس بصحيح، فالعلماء - رحمهم الله تعالى - على الحق والهدى.

فهذه الدعوة من أساسياتها احترام العلماء، واحترام أئمة الإسلام: الأئمة المتبوعين الأربعة وغيرهم؛ كالليث، وسفيان، وابن جرير ﵀، وأئمة الحديث، فلا نطعن في أحد منهم، بل نحبهم، ونتولاهم، ونطعن فيمن طعن فيهم، وكذلك شُرَّاح الأحاديث كالنووي ﵀، والذهبي، وابن حجر، ونحو ذلك من العلماء، لا نرضى أن يأتي أحد ويطعن في العالم، بل العالم إن كان مصيبًا، فله أجران، وإن أخطأ، فله أجرٌ واحد على اجتهاده، والعالم لا يُتبع في زلته، كما أنه لا يُتبع بزلته، فلا يُقدح في أحد من أهل العلم، فكان من أساسيات هذه الدعوة احترام المذاهب والعلماء، وعدم الطعن في أحد منهم، ولذلك لا يُعرف عن أحد من علماء الدعوة السلفية في الماضي، وفي زمن ابن تيمية وابن القيم، وفي زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى يومنا هذا ممن تحقق بهذه الدعوة السلفية أنه يطعن في أحد من أهل العلم، ولا من علماء المذاهب، بل نحن معهم على الحق والهدى،

وما اختلفوا فيه، فيُرجح فيه الراجح بالدليل، رحمة الله على الجميع، وجمعنا بهم في دار كرامته.

هذه بعض المعالم الأساسية للدعوة، اقتضاها الواقع الآن وما يُثار، وإلا فإن البحث العلمي أو النظر في الدعوة من جهة تفصيلية علمية، فله أنحاء كثيرة، وكل من سيتكلم في ذلك، فسيأتي بأشياء كثيرة، لكن اقتضاها المقام الذي نحن فيه اليوم، وما يُثار على هذه الدعوة.

هذه الدعوة خصومها ومناوئوها في أول وقتها طعنوا فيها بطعون كثيرة جدًا، بل منهم من كَفَّر الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ تبعًا لمن كَفَّر الإمام أحمد بن تيمية، وهنا لا نقضي العجب من أناس إذا أتوا، وقالوا هذه الدعوة تُكَفِّر الناس، ولا يتكلمون عن من كَفَّر الصحابة أو بعضًا منهم، ولا يتكلمون على من كَفَّر ابن تيمية، ولا يتكلمون على من كَفَّر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، لا يتكلمون على من كَفَّر الإمام أحمد بن حنبل؛ كبعض المعتزلة والرافضة ونحوهم، كيف يكون ذلك؟!

شُبُهَاتُ المُنَاوِئِين

هذه الدعوة أُتهمت بأشياء، ومن أعظم ما أُتهمت به في وقت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وإلى هذا الوقت: أنها تدعو إلى التكفير بغير ضابط - تكفير المسلمين -، وأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: من لم يتبعني، فهو كافر. وأن من لم يؤمن بما أتى به، فهو كافر حلال الدم والمال. . . ، إلى آخره. وهذا من أعظم الباطل، بل قد قال بعضهم: إن هذه الدعوة متعطشة للتكفير - والعياذ بالله -، يعني أنها

لا ترتوي، حتى تُكفر، وهذا من أبطل الباطل، وبيانه:

أولًا: أن المسلم الذي شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإنه لا يجوز إخراجه من هذا الدين، حتى يقوم به مُخرج من الدين ظاهر بيِّن، بمثل ظهور وبيِّنة ما أدخله في الإسلام، النبي ﷺ قال لأسامة: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»(١)، فمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وشهد بها شهادة حق، فلا يُخرج من الدين بتأويل، أو بخطأ، أو بإكراه، أو بجهل، أو بغلط، كيف يكون ذلك؟!

الأمر الثاني: أن المسلم قد يقع منه الردة، وذلك بنص القرآن؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٩٠]، وقال: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

إذًا الحكم بأنه يمكن أن يخرج مسلم من دين الإسلام إلى غيره، أو يكفر بعد إيمانه، هذا بنص القرآن والسنة أنه يقع، لكن العلماء بحثوا ذلك، فما من كتاب من كتب الفقه إلا وتجد فيه - في كل مذهب: المذهب الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، والظاهري، وغير ذلك - إلا وتجد فيه باب حكم المرتد، لماذا؟ لأن النصوص دلت على أن المسلم قد يعرض له من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات، أو الشكوك، والريب ما يسلب عنه اسم الإسلام.

هذه الدعوة السلفية لكثرة ما جاء في كتب الفقهاء من الحكم بالردة ضيقت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦)، من حديث أسامة بن زيد ﵄.

هذا الباب، وتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب، تكلموا - رحمهم الله - في أن باب التكفير ليس بابًا يلجه كل أحد، بل لا يُكفر أحد إلا بقيام الشروط وانتفاء الموانع، ما هذه الشروط؟ لا يمكن أن نُطبق هذا الأمر بأن هذا كافر، أو هذا يكفر، أو هذا كفر من الدين؛ لأنه اعتقد كذا، أو لأنه حكم بغير ما أنزل الله، أو لأنه حصل منه قول شركي، أو عمل شركي، أو ما أشبه ذلك، هكذا بمجرد القول، أو الفعل، أو الاعتقاد، أو الشك، بل لا بد من وجود الشرائط وانتفاء الموانع، من الذي فَصَّل من أهل العلم وجود الشرائط وانتفاء الموانع؟ لا تجد التفصيلات إلا عند الدعوة السلفية، فتجد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام ابن القيم، وكلام الإمام محمد بن عبد الوهاب، وكلام أئمة الدعوة تجده مفصلًا في هذه الأمور، لكن الكلام على التكفير موجود في كتب أهل العلم، وفي كتب الفقهاء.

فإذًا هذه الدعوة حدَّت من دخول الناس في هذا الأمر، أو تطبيق الفقهاء له بالتفصيل في الشروط والموانع، من الشرائط في ذلك:

أنه لا تكفير إلا بقيام الحجة، ما يُكفر أحدٌ إلا بعد البيان: شخص عمل عملًا كفريًا، لابد من التنبيه والبيان؛ لذلك الإمام قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه على من يعبد البدوي، وعند قبة الكواز - كما ذكر -، قال: **وإن كنا لا نُكفر من عند قبة الكواز أو عند قبة البدوي، لماذا؟ قال: لأجل عدم وجود من ينبههم**[1]، **فإذا كان ليس هناك بيان، فكيف يكون هناك حكم بغير قيام الحجة؟! ثم**

---

(١) سبق (ص ١٧٣).

العلماء بينوا - أيضًا - هذه الحجة التي تقام، ما المقصود منها؟ ومن الذي يقيمها؟ هل أي أحد يقيم الحجة؟ لا، يقيمها عالم يعلم كيف يقيم الحجة، يعرف كيف يجلي الشبه، ويوضح الحجة في التوحيد، ويبين الشرك، وينهى عنه، أي واحد يقيم الحجة؟! حتى قيام الحجة بيَّن العلماء من يقيمها؛ تضييقًا لدائرة التكفير.

من الشرائط: أنه لابد من العلم، هل يمكن واحد يكفر، وهو لا يعلم؟ يكفرون وهم لا يعلمون؟ ليس كذلك، ليس هناك انتفاع بالشهادة إلا بالعلم: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وكذلك سلب الشهادة لا يكون إلا بالعلم، فلا يمكن لأحد أن يُقال: فلان كفر، وهو لا يعلم، خرج من الملة وهو لا يعلم، لابد من العلم عنده بأن هذا الأمر الذي فعله، أو قاله، أو كذا، أنه يُخرجه من الملة، لابد من العلم؛ لهذا بيَّن علماء الدعوة السلفية، وبيَّنت الدعوة الإصلاحية التجديدية أهمية العلم، أنه لابد من وجود شرط العلم، وأما الجاهل - كما سيأتي في الموانع - لو كان عدم العلم كافيًا في الكفر، لكفر الذي قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**»(١) خطأً، ما علم ماذا خرج منه، أو واحد فعل فعلًا، وهو لا يعلم مثل: بعض الصحابة الذين كانوا حديثي عهد بكفر، وقالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط؛ كما لهم ذات أنواط، قال: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾»(٢)، القول كقول أصحاب موسى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦)، وابن حبان (١٥/ ٩٤)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، قال علماء الدعوة: لكنهم لم يكفروا؛ لأنه نبههم، علمهم، فتعلموا، وتنبهوا.

انتفاء الموانع، ما يُمكن أحد يُكَفَّر إلا بانتفاء الموانع، ما هي الموانع؟ الخطأ، الجهل، ما يكون هو قاله عن طريق الخطأ، عن طريق الجهل، عن طريق التأويل، عن طريق الإكراه، الموانع أربعة: الخطأ، الجهل، التأويل الإكراه؛ شخص متأوِّل في شيء، لابد من البيان حتى يُنزع عنه، جاهل مُكره، أُكره في شيء، قال قولًا خطأً، أو عمل على خطأ، أو نحو ذلك.

فإذًا الدعوة حدت من التكفير بوجود الشرائط والموانع، وضيقت ما قاله الفقهاء - رحمهم الله تعالى - ببيان هذا الأمر تفصيلًا.

ثم - أيضًا - من الذي يحكم؟ هل أحكم أنا وأنت والثاني والثالث من طلبة العلم، أو المستمعون، أو عموم الشباب، أو الذين فهموا الدين، وغاروا عليه، هم الذين يحكمون بأن هذا كفر، وهذا ارتد أو غيره؟ لا؛ لأجل لزوم وجود الشرائط وانتفاء الموانع؛ فإن الذي يحكم هو من يقيم الشرائط، وينفي الموانع، وهو القاضي أو من يصلح للقضاء؛ لأن هذا حكم يترتب عليه سلب الإيمان، وهناك أحكام تفصيلية كثيرة تترتب على الردة، من الذي يحكم بذلك؟ يحكم بها القاضي، ليس لآحاد الناس، ليس لي ولا لك، ما الذي علينا نحن من الدور إذا رأينا مثل هذه الأغلاط، رأينا الشركيات، رأينا بعض الموبقات، رأينا بعض الأقوال الكفرية؟ علينا النصيحة، الدعوة، لكن الحكم ليس لنا، الحكم إنما هو للقاضي، وهذا هو الذي أصلته هذه الدعوة تضييقًا لباب التكفير.

مما أُتهمت به الدعوة - والوقت يضيق عن مزيد بسط -: أنها فتحت باب الاجتهاد، وادعت أن كل أحد يحق له الاجتهاد، وأن التقليد مُحرم، حتى قالوا في الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ادعى لنفسه الاجتهاد، والاجتهاد والتقليد مسألة معروفة عند أهل العلم، لا يجوز لأحد من الناس أن يُغلق باب الاجتهاد، في القرن التاسع والعاشر الهجري كثير من الفقهاء قالوا: الاجتهاد أُغلق بابه، وإنما على الناس أن يتبعوا كلام من سبقهم من العلماء، وأن لا يجتهدوا في الكتاب والسنة، الكتاب والسنة أُنزلت ليتعبد الناس بهما، وليتبعوا كلام الله ﷻ وكلام رسوله، فكان من معالم الدعوة: أنها أحيت الاجتهاد، والفقه في الكتاب والسنة، وفعلًا التقليد ضيقت نطاقه، وهذا من مميزات الدعوة، وليس مما يؤخذ عليها.

مما رُميت به الدعوة: أن هذه الدعوة كانت متعطشة للدماء وللقتل ولقتال الناس. وهذا باطل في نفسه، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة له: ونحن لم نبتدئ أحدًا بالقتال، وإنما قاتلنا من قاتلنا؛ لأن الدفع عنا واجب. قالوا عن الدعوة: إنها متعطشة للقتال والدماء، وأنها قاتلت المسلمين بغير وجه حق. وهذه قديمة، وقد أجاب عنها الإمام محمد بن عبد الوهاب في رسالة له، وقال: نحن لم نقاتل إلا من قاتلنا، فالدفع عنا واجب. والذين أتوه، أو أغروا به، أو أرادوا الدولة الأولى، وهاجموها، فقتالهم لابد منه، فكيف يُترك من قاتل، أو لم يصل للدين الحق؟

القتال والجهاد لابد فيه من فهم لمعنى القتال والجهاد في الإسلام، الجهاد في الشريعة جهاد للنفس، وجهاد للعدو، فمن صال على النفس، أو أراد الدولة، أو أراد المسلمين بسوء، فلابد من مجاهدته، لابد من قتاله،

سواء أكان قاتلًا بالفعل، أو كان مضمرًا للقتال؛ كما كان النبي ﷺ يفعل مع الناس، فإنه ﷺ دافع، جاهد مدافعًا، وتارة اتبع أُناسًا لأنهم كانوا يضمرون له ذلك، ويريدونه، وهكذا كان حال الدولة السعودية الأولى ودعوة الإمام المصلح رحمه الله، فإنهم من أرادهم فعلًا، أو أرادهم نية، فإنهم قاتلوه، وجاهدوه؛ لأجل حماية الدين وحماية الناس. لهذا تجد أنها في كثير من الأنحاء في تاريخ الدعوة - تاريخ الدولة السعودية الأولى والثانية وما بعدها - كثير من الأنحاء يكون إقرار الحق ببعث علماء من الدرعية إلى مكة - مثلًا - أو إلى غيرها؛ ليشرحوا الدين، ويبينوه، فصار هناك فتوح بدون قتال، هل سُفك في مكة دم؟ هل سُفك في المدينة دم؟ هل سُفك في مكان كذا دم ودم؟ لا . . . لماذا؟ لأنهم اقتنعوا بكلام أهل العلم، وصارت مناظرات علمية، مدونة في الكتب كما هو معلوم، وختم عليها حتى علماء المذاهب.

وهناك وثيقة موجودة لعلماء الدعوة مع علماء مكة، تناظروا في مكة والوالي عليهم الشريف في ذلك الوقت، تناظروا في الحق، أقر الجميع على أن ما جاءت به الدعوة حق، وختموه بأختامهم، والوثيقة موجودة محفوظة اليوم، موجودة هنا في الرياض بأختام علماء للمذاهب جميعًا في مكة وعلماء الدعوة؛ ولذلك لم يحصل هناك أي نوع من القتال ولا من المباينات؛ لأجل حصول مناقشة أهل العلم لأهل العلم، أما إذا آل الأمر إلى أُناس جهلة أو إلى أمراء جهلة، فقاتلوا الدعوة، وقاتلوا المسلمين من أتباع هذه الدعوة، أو أرادوا أن يوقعوا شرًا بالناس، فهنا قتالهم واجب، والدفع عنهم واجب، أو لم يستجيبوا لأن يكون الدين لله ﷻ وحده، وأن

تُهدم مظاهر الشرك والوثنية، وتُقر وحدانية الله ﷻ وعبوديته، فإن هؤلاء - أيضًا - يبين لهم، وتقام عليهم الحجة؛ حتى إذا لم يرضوا بذلك، جوهدوا في ذلك، وهذا اتفق عليه أهل العلم؛ كما هو معلوم في الفقه.

مما رُميت به الدعوة - أيضًا - : أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرج على الدولة العثمانية، ولم يُقر بولاية الدولة العثمانية، بل أتى بأمير بديل، أو بايع أميرًا جديدًا، أو نحو ذلك، وخرجوا في إمارة عن طاعة الدولة العثمانية. وهذا الكلام قيل، وإن كان ليس بمنتشر؛ لأجل عدم قوته في الحق؛ لأن علماء وقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما رموه بذلك، وإنما جاء من بعض المعاصرين؛ لأنه معروف في ذلك الوقت أن هذا ليس بحجة صحيحة.

الجواب عنها واضح، وهو: أن نجد بعمومها لم تكن خاضعة لسلطان دولة، ولم يُطلب أن تخضع لسلطان دولة منذ القرن الخامس الهجري؛ لأنها أولًا قرى صغيرة، لا يُلتفت لها، وليس عندها خيرات، إنما هي بعض النخيل والتمر، ولا يرغب فيها الولاة، وصعبة في مسلكها، وجوها، ووعورتها، . . . إلى آخره، وإنما كانوا يطلبون الولاية من الأحساء أو من جهة الحرمين الشريفين، وأما نجد، فاستقلت بها دولة عن الدولة العباسية الأولى، دولة كانت مستقلة عن الدولة العباسية، مشت في نجد نحو قرنين من الزمان من نحو سنة مائتين وستين إلى سنة خمسمائة هجري، ثم بعد ذلك اندثرت، ثم آل الأمر إلى أنه لا ولاية فيها، وإنما كل بلد لها إمارة.

فلما أتى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لم تكن الولايات تتبع دولة، فقام وبايع أمير الدرعية

ثم اجتمعت الإمارات الصغيرة في دولة واحدة، وهي لم تكن تحت ولاية أصلًا في ذلك الزمان، ثم لما كان الأمر كذلك انتشرت الدولة؛ لأجل صحة الإمامة وإمامة مستقلة ليست تحت ولاية.

فإذًا لم يكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ خارجًا عن الدولة العثمانية؛ لأن نجدًا في ذلك الوقت لم تكن تحت الولاية العثمانية، ولم يُطلب منها ذلك، ولم تكن تحت الولاية العباسية قبل ذلك - كما هو معروف -، وإنما هي متروكة لأمرائها، لم يُطلب منها شيء من هذا.

هذه بعض الشبه التي ذُكرت في هذا الأمر، وهي شُبه متعلقة بالدعوة كحركة، وهي دعوة إصلاحية، وأما الشبه المتعلقة بالعقيدة وتفصيلات الدعوة هذه أكثر من أن تُبسط في هذا الوقت، ولعل فيما ذكرنا من الإشارة ما يُنبئ عن ما طُوي، ولم يتسع له المقام.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرحم الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب وأسلافه العلماء المصلحين المجددين، وأن يرفع لهم منارًا عنده عَزَّ وَجَلَّ، وأن يجعلنا وإياكم ممن مَنّ عليهم باستماع القول، فاتبع أحسنه.

اللهم اجمعنا بهم في جنات النعيم، اللهم اجز الإمام المصلح عن هذه البلاد خيرًا، واجز من آواه ونصره وأقام دولته عنا خير الجزاء، ووفق الجميع لما فيه رضاك، ووفق العلماء وولاة الأمور إلى النهوض بهذه الدعوة؛ إنك جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة دروس وعبر من سيرة إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بجامع الراجحي بالرياض ١٤١٨/٧/١٨هـ

مُقَدِّمَة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد...

فأسأل الله ﷻ أن يهبني وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، والتوفيق لما يحب ويرضى، وأن يجعلنا ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهذه الثلاث - كما يقول إمام الدعوة - عنوان السعادة، هذه المحاضرة يمكن أن تكون عميقة، حتى تتسع لما يخدم الدعوة في جميع مجالاتها، ولما توجه به جموع الدعاة والجماعات والأفراد في هذا البلد وفي غيره، ويمكن أن تختصر بما ينفع الحاضرين والمستمعين، بما يكون إشارة وعبارة لما طوي من الكلام.

مَعْنَى إِمَامِ الدَّعْوَةِ

ولا شك أن الأول يحتاج إلى استعداد خاص من المتلقي، ووضع الشيء في موضعه، يوجه بأن يؤخر ذلك؛ ولهذا ستكون الإشارات لما كان عليه إمام الدعوة من النهج في سيرته الدعوية، إذا قيل إمام الدعوة، فالمعني به الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، المولود سنة خمس عشرة ومائة وألف، والمتوفى سنة ست ومائتين وألف، والدعوة التي في اسمه - إمام الدعوة - هي الدعوة الخاصة التي قامت في هذه البلاد في القرن الثاني عشر الهجري، وإلا فإمام الدعوة - دعوة الإسلام - هو محمد بن عبد الله ﷺ.

فإذًا إطلاق لفظ إمام الدعوة يُعنى بها المعنى الأخص في هذا البلد، ومن تأثر بدعوته السلفية النقية الصالحة المصلحة في أمصار الإسلام، ولهذا تتابع علماؤنا على هذا اللقب على الإمام المصلح؛ لأن هذه البلاد ليس فيها إلا دعوة واحدة في الماضي وفي الحاضر، وكل دعوة لا تتصل بسبب وثيق في العقيدة والمنهج مع منهج إمام الدعوة في دعوته، فهي غريبة عن هذه البلاد.

العِلْمُ هُوَ القَاعِدَةُ الأُوَلى

يقول القائل: إمام الدعوة يعني: وكأنه ليس عندنا إلا هذه الدعوة وحدها التي أثرت في الماضي، والتي تؤثر في الحاضر، والتي يرجى أن يبقى نفعها وأثرها في المستقبل.

إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ محمد بن عبد الوهاب كان رجلًا من الرجال الذين وهبهم الله ﷻ العلم النافع، طلب العلم في بلده على والده وعلى غيره، ثم رحل إلى مكة، وأخذ علمًا عن عدد من علمائها، ورحل إلى المدينة، فأخذ علمًا كثيرًا عن عدد من علمائها، ورحل إلى البصرة، وأخذ العلم عن عدد من علمائها، ورجع إلى الأحساء، وأخذ العلم - أيضًا-، حتى استقر به المطاف، وقام بدعوته؛ فإذا هو متأهل للدعوة؛ لما حصل على العلم الواسع من أهله، ورحل فيه، وتتبع العلم من مظانه، وهذا القدر معروف في سيرته، ولا يحتاج إلى بسط، لكنه قاعدة مهمة، وعبرة عظيمة من العبر، وهو أن الداعية لا يصلح للدعوة التي تؤثر حتى يكون علمه راسخًا، فإذا ضعف العلم، ضعفت الدعوة، وربما نتج عن الدعوة أشياء لا تحمد، لهذا يقول أهل العلم: إن العلم قبل الدعوة؛ كما أمر الله ﷻ في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، والعلم والعمل هما الدعوة، فالعلم إذن هو القاعدة التي بنى عليها الإمام المصلح دعوته، وإذا نظرنا إلى هذا الأمر، وجدنا إن هذه البلاد كان فيها نوع من العلوم واحد فقط، وهو الفقه على المذهب بفهم المتأخرين، وأما العلوم الأخرى، فإنها لم تكن موجودة في هذه البلاد، ونعني بها نجدًا وما حولها، فلم يكن ثم من يتكلم في التفسير ومن يحسنه، ولم يكن ثم من يتكلم في العقيدة والتوحيد على طريقة السلف الصالح ويحسن ذلك، ولم يكن ثم من يتكلم في السيرة - سيرة النبي ﷺ - بعلم ونظر، ويحسن ذلك، ولم يكن ثم من يعتني بعلم الحديث ألبتة في هذه الديار، فلما أتى الإمام المصلح بدعوته، بث هذه العلوم، بث علم التفسير

والعناية به، وبث علم الحديث والعناية به، وبث علم الفقه - كما كان -، وزاد عليه بمعرفة الخلاف ومعرفة الراجح في المسائل، وبث فقه السيرة، وهذه الأربعة له فيها مؤلفات.

فألف في التفسير، ولكن بما ينفع، لم يكرر صنيع من قبله، ولكن ألف كفوائد من كتب التفسير، وألف في الحديث مجموعًا في الأحكام، ومجموعًا في التوحيد، والفقه، والسنة، فكتب كتاب التوحيد، وكتب أصول الإيمان، وكتب فضل الإسلام، وكتب مجموعًا في أحاديث الأحكام، طبع في أربعة مجلدات، . . . وهكذا، بل إن أبناء الشيخ رحمه الله جميعهم كانوا يشار إليهم بالبنان في الحديث، ورجاله، وفقهه، ونشر في الناس علم السلف الصالح فيما يتصل بالسنة والتوحيد بخاصة، ودعا إلى ذلك، وألف فيه.

إذًا: الدعوة - دعوة الإمام المصلح رحمه الله - لم تنتشر في الناس بمواعظ، لم تنشر في الناس بقوة مجردة، لم تنتشر في الناس إلا بالعلم، فالعلم كان هو الذي نفذ في الناس، قبل أن تنفذ الجيوش، وتنتشر، وتمتد الدولة، ولهذا ترى أن الإمام المصلح رحمه الله في كتبه يهتم بالعلم، ويركز على العلم، انظر - مثلًا - في ثلاثة الأصول: اعلم - رحمني الله وإياك - أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم أربع مسائل.

إذًا نبدأ بالعلم، وذكر كلام البخاري في الصحيح أن العلم قبل القول والعمل[١]، هذا العلم ما هو؟ هل هو العلم التفصيلي الذي يدرس في

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٦٠).

الجامعات اليوم؟ أو هو العلم النافع؟ نقول: الدعوة في العلم لا بد أن تنظر إلى واقع المجتمع الذي تعيش فيه، وكل مجتمع له مستوى من العلم يعيشه، وكلما زاد العلم، زادت الدعوة، فليس الطرح العلمي في دعوة الإمام المصلح واحدًا في جميع المجالات، بل اختلف ذلك، وتنوع بحسب المجتمع الذي فيه الدعوة، فتجد أن خطاب الإمام المصلح تنوع، فخطابه للعلماء بلهجة علمية عالية، خطابه للعامة بلهجة علمية نافعة؛ لأن المقصود من العلم التعليم.

وليس المقصود من نشر العلم أن يظهر العالم بأنه يعلم، لا، (**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ**)، لا بد أن يواكب العالم مستوى المتلقي، إن لم يواكب مستوى المتلقي، كان فيه عي علمي؛ لأنه كما أن في الخطابة عيًا، فكذلك في العلم عي - أيضًا -، ويكون العي في العلم بأن تحدث الناس بما هو فوق مستواهم، والكلام إذا مر فوق الرؤوس -كما يقال-، لا يصل إلى القلوب، وكيف يصل؟

لهذا تجد بعض الناس أنه ذكر في كلام الشيخ الإمام في الدعوة - يعني في كتبه ومؤلفاته - بأنه يستعمل ألفاظًا عامية مثلًا، وهذا نادر، وأنه في عبارته ليست تلك العبارة التي ترى في كتب أهل العلم المتوسعين كالحافظ ابن حجر، أو النووي، . . . إلى آخره من التفصيلات والتحريرات الطويلة، وهذا لا شك له سبب؛ لأن التصنيف له غرض، واستخدام العلم للدعوة له غرض آخر.

فإذا وضع العلم في موضوعه وبالمستوى المناسب للمتلقين كان عليه

الإمام المصلح، وهذا من أسباب نجاح دعوته، فإذًا مما يستفاد، ويؤخذ عبرة من دعوة الإمام المصلح أنه جعل العلم قاعدة الدعوة، والذين حملوا الدعوة من بعده طلبة علم، ليس ثم جاهل حمل الدعوة من بعده، وليس ثم جاهل كان يرسل في الدعوة، وإنما كانوا أهل علم، لكن يدعون إلى ما علموا، وكان علمهم قناعة - عن دليل -، رباهم الإمام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على قبول الحق، والقناعة بما جاء في الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، مهما خالف المخالفون.

ذات مرة ذهب أحد أتباع الدعوة إلى أحد البلاد المجاورة - إلى اليمن -، فقال له بعض علمائها: إنكم تقولون ما تقولون تقليدًا للشيخ محمد ابن عبد الوهاب في التوحيد والشرك، والسنة والبدعة، . . . إلى آخره. فأجابه، قال: لو خرج محمد بن عبد الوهاب من قبره، وقال لنا: اتركوا الذي قلت لكم، لما تركناه، يعني: لاحظ (خرج من قبره) هذه الشبه قوية، ماذا رأى في القبر؟ وما الذي تبين له أنه على حق؟ لماذا؟ لأنهم أخذوه عن دليل وبرهان ويقين، وهذا هو الذي يبقي صف الدعوة قويًا، أما الدعوة التي تقوم على انفعالات وعلى عواطف، فليست مهيأة لامتداد، ولذلك ترى أن دعوة الإمام المصلح في نجد وفي الأمكنة التي انتشرت فيها تزداد يومًا بعد يوم، من وقت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى وقتنا الحاضر، حتى رؤي من أزمنة في أمكنةٍ بعيدة: في روسيا، وفي جزر القمر، وفي شمال، وفي جنوب، وفي شرق، وفي غرب وجدت كتب الإمام المصلح، تدرس، وتعلم.

هذا المنهج العلمي لا شك أنه يحتاجه الدعاة؛ لتكون دعوتهم صالحة مثمرة على قاعدة سوية؛ كما كانت عليه دعوة الإمام المصلح رَحِمَهُ اللَّهُ، وأبناء

الإمام جميعًا طلبة علم، تلامذة الإمام طلبة علم، لهم رسائل وكتب سارت وشرقت وغربت، وهذه تجعل الناظر في هذه المسألة يتيقن أن الصف الثاني والثالث والرابع في دعوة الحق - الدعوة السلفية الصالحة - لا بد أن يكون الامتداد علميًا، إذا كان الامتداد قناعات عقلية أو تبعية تقليدية، فإنه لن تستمر الدعوة.

ولهذا يجب على كل من يعتني بأمور الدعوة أن يعتني بالعلم؛ لأنه الأرضية للاستمرار؛ العلم لا ينقطع، والعواطف تنقطع، العواطف تأتي وتذهب، الفهم والآراء عرض يطرأ ويزول، يذهب ويأتي، لكن العلم يرتكز فيه على أصول ثابتة، لا تتغير مهما تغير الوقت، العلم الذي كان عند سعيد ابن جبير، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وأصحاب ابن مسعود هو العلم الآن الذي نراه لم يحجب عنا شيء من ميراث المصطفى ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. العلماء ورثه الأنبياء «**وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(١)] هذه هي المسألة الأولى.

مُتَابَعَتُهُ للنَّبِيِّ ﷺ

مما يستفاد من سيرة الإمام المصلح رحمه الله: أن إمام الدعوة رعى في دعوته متابعة النبي الكريم، إمام المرسلين، وقدوة المؤمنين محمد بن عبد الله ﷺ سار في نهجه في الدعوة سير محمد ﷺ حذو القذة بالقذة، حتى أنه لما

(١) سبق تخريجه (ص ٢٤).

تعاهد مع الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما تعاهد معه عبر بالكلمة التي قالها ﷺ، فقال له الإمام محمد بن سعود: يا شيخ نخشى أنه إن فتح الله علينا أن تستبدل بنا غيرنا، وأن تنتقل من الدرعية، وترجع إلى بلدك، قال له الإمام: «**الدم الدم، والهدم الهدم**»[١] وهي الكلمة التي استعملها، وقالها نبينا الكريم ﷺ للأنصار، والدعوة في مراحلها كان مقتديًا فيها سيرة النبي ﷺ، ثم بعد ذلك عرضت الهجرة، ثم مكث فترة، ثم بدأ يجاهد من حوله أول الأمر دفاعًا، ثم جهادًا، ثم امتدادًا على ما كانت عليه سيرة النبي ﷺ تمامًا، ودعوة النبي ﷺ هي دعوة الإسلام، هي دعوة الأنبياء والمرسلين جميعًا، الدعوة إلى التوحيد، وهذه الدعوة هي التي جعلها الإمام المصلح أول ما دعا إليه.

تَرْتِيبُ الأَوْلَوِيَّاتِ

وأَوَّلُهَا التَّوْحِيد، نرى في دعوة الإمام أنه - كما يقال في التعبير العصري - رتب الأولويات، يعني: جعل للدعوة أولويات، وهذه الأولويات يمكن أن تكون بنظر مصلحي دعوي تطرح فيه الأطروحات العقلية، ما هو الأولى؟ ما الذي يقدم على الآخر؟ يمكن أن ينظر إلى هذه الأولويات، إلى الدليل البحت، وهذا هو الذي حصل مع الإمام المصلح، فلم تكن الأولويات التي طرحها، وبدأ بدعوته، وأخر ما أخر، لم تكن محض رأي واجتهاد له، وآراء مصلحية، وإنما كان فيها على ما كان عليه المصطفى ﷺ، فالمصطفى ﷺ

---

(١) سبق عزوه (ص ١٥٧).

بدأ بالدعوة إلى التوحيد - لهذا ذكرها الإمام في ثلاثة الأصول - فمكث عشر سنين يدعو إلى التوحيد، الدعوة إلى التوحيد هي أولى الأولويات بلا شك، ولا يقدم عليها شيء، حتى إن الإمام المصلح سئل عن مسائل من السنة ومن إنكار بعض البدع، فقال: أنا لم أتكلم في هذه المسائل بشيء، لماذا قال ذلك؟ لأنها ليست هي أول ما دعا إليه، مثل الكلام على مسألة التوسل بالذوات ونحو ذلك، هي بدعة عند أهل العلم، يعني: كأن يقول: اللهم إني أسألك بجاه نبيك، أسألك بمحمد، أسألك بأبي بكر إلى آخره، هذه بدعة، ووسيلة إلى الشرك، سئل عنها، فقال: أنا لم أتكلم في هذه بشيء، وإنما تكلمت فيما أجمع عليه العلماء، وهو الدعوة إلى التوحيد والبراءة من الشرك وأهله، تكلمت عن أن ينهى عن دعوة غير الله معه، هذا الذي دعوت إليه، وهذا يحتاجه الداعية؛ لأن الشريعة كبيرة، ولأن المصلحة يجب أن تكون تبعًا للشرع، وليس الشرع تبعًا للمصالح.

ونحن أمامنا سنة في الدعوة، وهي أن الناس لا بد أن تقر في قلوبهم دعوة التوحيد، أن تكون قلوبهم ذليلة خاضعة للرب ﷻ، وألا يرغبوا إلا إليه، متوكلين عليه، محبين له، والولاء والبراء فيه ﷻ، إذا جاءت هذه القاعدة، وهذا أصل قيام القلوب؛ فإن القلب لا يصلح إلا بتوحيد الله ﷻ.

إذًا فدعوة الإمام المصلح أتت على الشريعة بأنواعها، لكن كان هناك منهج في أن الدعوة للتوحيد، فلما قبل المجتمع ذلك، وصار موحدًا خاضعًا، جاء بعد ذلك أشياء كثيرة: من الوسائل، ومن العلم، ومن الإلزام بأحكام كثيرة في المجتمع، وهذا لا بد منه؛ لأن الأمور تكثر، والداعية

لا يصلح أن يتشتت، لا بد أن يركز؛ حتى ينتج، والتركيز لا يكون على هواه، على معطيات نظرية أو سياسية أو نحو ذلك، إنما على ما يصلح الناس؛ لأن دعوة الإسلام ليست لتحقيق مصالح دنيوية، وإنما المصالح الدنيوية تبعٌ، الدعوة أولًا، والدنيا تبع، قد ترى الدنيا، وقد لا تراها، لكن المهم الدعوة، وهذا هو الذي فعله الإمام المصلح ﷺ.

إذًا فأولى الأولويات التي اعتنى بها الإمام المصلح: أن يدعو إلى التوحيد، أن يعلم الناس التوحيد؛ لهذا كان في هذه البلاد كل يوم يمسك واحد من جماعة المسجد، ويعلمه الإمام الأصول الثلاثة، ويحفظ ذلك ويردده؛ لأن التوحيد لا ينفع فيه التقليد، فيعرف ذلك بأدلته، هذا نشر للعلم النافع، الإمام عليه دور، الدعوة جعلت كل إمام في مسجده يمارس هذا الدور، الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وإصلاح القلوب.

مَا فَهِمُوا التَّوْحِيدَ

مرة في الدرس عرضوا للشيخ في القصة المعروفة:

قالوا له: يا أبا علي، أو يا شيخنا: دائمًا ندرس العقيدة والتوحيد. . . التوحيد والعقيدة إلى متى؟! نريد الفقه، نريد أن نعرف - هذا كلام الطلاب - نريد أن نعرف الفقه. يعني: يريدون أن يتسعوا في العلوم.

فقال لهم الإمام: دعونا نتأمل، فلما أتى من الغد، وقد رأوا في وجهه التغير.

فقالوا له: ما الذي أزعجك يا شيخ؟

فقال: أخبرت بخبر أزعجني، وهو أن أحد البيوت في الدرعية قيل لأصحابه وقع الرجل فيه على أمه، يعني: - والعياذ بالله - زنى بأمه.

قال الطلاب: أعوذ بالله، كيف يكون هذا؟!

قال: ذاهبون لنتأكد من هذا الأمر، ثم بعد ذلك نرى، فلما أتى المرسل - طبعًا الشيخ عملها للتعليم -، وأسر إليه، فقال: الأمر ليس كذلك: وجدنا أن في بيت من البيوت الأم كان فيها بعض الحالة، وأن أحدًا قال: لهم اذبحوا خروفًا عند الباب يسيل دمه، فتكفون الشر.

فقالوا: الله يبشرك بالخير يا شيخ.

قامت القيامة عندهم، أو أخذتهم الغيرة لما كانت مسألة الوقوع على المحارم، لكن لما أتت مسألة الشرك الأكبر، هذه الصورة ما تغيظت لها القلوب، معنى ذلك أن التوحيد ما رسخ؛ مثل ما يكون الآن بعض الناس يأتي، ويرى امرأة متبرجة، فيقوم قلبه، لكن يرى بدعة أو شركًا أكبر في بلد من البلاد، لا يتغير قلبه، أو يرى قبة على قبر، ولا كأن شيئًا حصل، لا يتحرك قلبه.

إذًا القلوب لم تتعلم التوحيد بعد، ولهذا قال الشيخ رحمه الله في رسالة كشف الشبهات - ومنه بعد كلام ما معناه - **ومعرفة أن قول الجاهل: (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان**[1].

(١) انظر: رسالة كشف الشبهات بتعليق العلامة ابن عثيمين رحمه الله (ص٨٠).

إذًا لا بد من وجود هذه الأولويات، بعض الناس يقول: المجتمع عندنا - الحمد لله - ما نحتاج إلى التوحيد، نحتاج إلى بيان المنكرات، نحتاج إلى بيان الفقه، نحتاج إلى تعليم أشياء.

حَرِّكْ تَرَى

لا، الواقع ليس كذلك، حرك ترى، فترى أن الولاء والبراء في القلوب ليس كما ينبغي، حرك ترى أن معرفة التوحيد والحب فيه وحب أهل السنة في أي مكان ليس كما ينبغي، حرك ترى في أن إكرام الرجل لما فيه من التوحيد ونصرة التوحيد ليس كما ينبغي، وهكذا في أمور كثيرة.

إذًا الإمام المصلح حينما علَّم التوحيد؛ ليحدث قاعدة يكون الترابط فيها على هذا، والمجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على التوحيد، لا يمكن أن يقوم المجتمع، وأن تكون ثم رابطة في مثل هذه البلاد وفي غيرها متنازعة متشتتة إلا بشيء يجمعها، وهو حبل الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، حتى أنه في هذا الدرس استفاد بعض الخبثاء - ماركس الشيوعي - في مراسلة بينه وبين إنجلز، لما عرضوا لبعض المسائل في مد البروليتاريا والمستقبل الشيوعي في التنظير، قبل أن يحدث أمر عملي، تكلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة له، وقال: (**انظر إلى ذلك الثعلب - يسميه: الثعلب الصحراوي - كيف استطاع - طبعًا بتصوره - أن يلبس ثوب الزهد والعلم والدين، ويوحد هذه الجزيرة على كلمة واحدة، ويسعى في الانتشار خارجها**)، لماذا نقول: العقيدة، التوحيد، العلم،

المنهج الواحد؟ لأنه لا يمكن أن تقوم للبلاد قوة، ولا للدعوة قوة، ولا للأمر والنهي قوة إلا بعصبية واجتماع على شيء، وهذا الشيء هو توحيد الله ﷻ، لا يصلح غيره مهما كان؛ لأن غيره يقبل الخلاف، والتوحيد لا يقبل الخلاف، التوحيد يسري في النفوس؛ لأنه الفطرة.

فلذلك التجمع على توحيد الله ﷻ فيه القوة، وفيه القدرة على الانتشار، وهذا هو الذي رآه الإمام المصلح، لم يره مصلحة دعوية خطط لها، ولكن أتى نتيجة طبيعية لاتباعه لدعوة محمد ﷺ، فإذًا ترتيب الأولويات كانت عند الإمام المصلح في دعوته واضحة جلية، بدأ بالدعوة للتوحيد، العلم؛ بدأ في تنمية المجتمع، تنوع الخطاب عنده لطبقات المجتمع... إلى آخر ذلك.

مَا طَلَبَ الإِمَارَةَ

إن الإمام المصلح لم يطلب أن يكون أميرًا أو صاحب دولة، وإنما هو صاحب دعوة، عرض دعوته على أمراء الوقت، فعرضها على أمير العيينة، نصره فترة، ثم خذله، وأمر بالرحيل منها؛ حتى لا يقتل، إلى أن قيض الله ﷻ لنصرة دعوته الإمام المصلح محمد بن سعود بن مقرن - رحمه الله تعالى، ورحم عقبه، وأصلح الحاضرين -، هذا الإمام نصر الدعوة، الإمام محمد بن عبد الوهاب ما كان يطمع في أن يكون هو الأمير، إنما كان صاحب دعوة، وهذه مسألة مهمة في سيرة الدعوة - دعوة الإمام المصلح -، حتى دعوة الإمام لما وصلت إلى مكة ما طلب الإمام في حينها أن يتولى أحد

من أهل نجد، وإنما دخلوا، وقالوا: الدعوة كذا، وناظروا علماء مكة، ولما أقروا بذلك، كتب الإمام لهم بأن يبقى أمير مكة كما هو، الذي هو الشريف غالب.

فإذًا دعوة الإمام المصلح لم يكن الهدف منها الإمارة في نفسه، وإنما كان الهدف التوحيد، كان الهدف نشر الدعوة، هذا هيأ له السبل، وبحث له عن نصير، وبحث عن السبل التي بها يكون الوالي نصيرًا للدعوة، ونجح؛ لأن الوالي لا يمكن أن يقبل - في أي بلد - بمنافس؛ لأن المنافس يحول المسألة عنده من دعوة إلى ولاية، وهذا معناه أنه اختلف الطريق، فصار بدلًا من أن ينصر الدعوة يكون معاديًا للدعوة، الإمام المصلح صار المرجع، ومنه يصدر الأمر في أمور الشريعة، ويستشار في الأمور... إلى آخره، وكان هو ومن بعده من أبنائه وتلامذته يعون هذا الأمر، في أن طلبة العلم وأن أئمة الدعوة إنما هم للدعوة، إنما هم للإصلاح، يصلحون الناس، يصلحون الرعية، يصلحون المجتمع، يصلحون الراعي، يكونون محتسبين في هذا الأمر، ونصحة، ودعاة، وطلبة علم، ينشرون الخير، ويجاهدون في ذلك، وهذا لا شك درس مهم تحته تفصيلات وفروع.

ثَلاثُ رَكَائِزَ

إن الإمام المصلح في دعوته لما أقام الدعوة، جعل هذه الدعوة التي نصرتها الدولة - دولة السعودية - جعلها قائمة على ثلاثة أمور، وعلى ثلاثِ ركائز، ثلاث لازمة لا محيد عنها، هي الدعوة من أول يوم إلى اليوم.

الأصل الأول: الدعوة إلى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتحكيم الشرع في اختلاف المختلفين، يعني: تحقيق التوحيد والحكم بالشريعة، هذا الأصل الأول.

الأصل الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح الناس.

الأصل الثالث: الارتباط بالولاية الشرعية القائمة: ولاية الدولة السعودية الأولى، الدولة السعودية الثانية، والدولة السعودية الثالثة، كل هذه امتداد لدعوة واحدة، فهذه العناصر الثلاثة عليها إمام الدعوة ومن تبعه إلى يومنا هذا، ثلاث مسائل يكون عليها مدار الدعوة، ومنها المنفذ، وإليها المرجع.

أولًا: تحقيق التوحيد، والسعي في ذلك، وبذل الوسائل فيه في ما يتاح من ذلك في أي مكان: في الداخل، في الخارج، في أي مكان، تحقيق التوحيد، والدعوة إليه، والدعوة إلى تحكيم الشريعة.

والثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولهذا أسست الهيئات . . . إلى آخره، زاد الله قوتها، ونصر أهلها، ووفق ولاة الأمور في أمرها لما يحب ويرضى.

الثالث: الارتباط بالولاية؛ ولذلك كل متبع لدعوة الإمام المصلح نجد عنده هذه الثلاثة، تجد عنده التوحيد وتحكيم الشريعة، تجد عنده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجد عنده الارتباط بالولاية، هذه انظرها في سيرة العلماء السابقين والحاضرين ومن نهج نهجهم، وهذا الدرس، وهذا الموقف، وهذا الأمر هو الذي به تصلح البلاد؛ لأن غير التوحيد لا يصلح،

ولأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوقع البلاء في الناس والاختلاف والفرقة والوبال، ولأن ترك الارتباط بالولاية يفرق الناس، ويحدث مفاسد الله بها عليم، وكل هذه المسائل مسائل شرعية.

فالتوحيد هو أساس الدين، ولا خير فيمن لا توحيد عنده، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند بعض أهل العلم هو الركن السادس من أركان الإسلام، يعني: أن أمره في الإسلام عظيم: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، هذا أمر فرض، واجب على الولاة، وواجب على أهل العلم، وواجب أيضًا على الناس بحسب الاستطاعة.

الأمر الثالث: الارتباط بالولاية - ولاية الدولة - يعني: الارتباط بالحكومة، الارتباط بالمملكة، سمها ما شئت من التسميات الحاضرة، وهذه الثلاث بها اجتمعت القوة في الماضي، وبقيت القوة إلى الآن في الدعوة، وإذا تخلخل واحد من هذه الثلاث، ستخلخل قوة الدعوة، ولهذا كل محب للإسلام وللتوحيد ولهذه البلاد ولأئمة المسلمين في هذه البلاد ولعامتهم يسعى في تحقيق هذه الثلاث ما استطاع، فهذا إذًا نهج، وهذا النهج مضى وبقي.

مُرَاعَاةُ الحِكْمَةِ فِي أُمُورِهِ

قد يرى الناظر فرقًا ما بين وضع لأتباع الدعوة في وقت ووقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فيقول: لا، العلماء بعده تركوا طريقة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، والإمام المصلح نفسه - في دعوته - تنوعت مواقفه بحسب المراحل.

فمرحلة كان له فيها خطاب وموقف، ومرحلة كان له فيها خطاب وموقف مع الولاية ومع العامة، وهذا مهم، وهكذا فَهْمُ أئمة الدعوة ومن نهج نهجهم من العلماء إلى يومنا الحاضر في أن الدعوة في أصولها لا يعني أن تطبق في كل حين، بمثل ما طبقت به في وقت الدولة السعودية الأولى، قد لا يتاح، فهل نقول: إما يكون أولا يكون؟ ليس هذا من الحكمة، بل العالم هو الذي يرعى القاعدة الشرعية، وهي التي رعاها الشيخ ﷺ في سيرته وفي حياته، ورعاها تلامذته من بعده، وهي أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.

خذ مثلًا: الإمام ﷺ كان يعاقب على شرب الدخان أول ما ظهر - يعني: من مائتين وخمسين سنة -، كان هناك من يشربه، فكان يعزر من يشربه؛ حتى لا ينتشر في الناس، مرة طلب عددًا من قبيلة من القبائل، حصل بينهم وبين قبيلة أخرى محن وثارات، وربما أدى إلى مقتلة، فأتى مشايخ البدو إلى الدرعية، وكلمهم الإمام محمد بن عبد الوهاب، وألزمهم، فالتزموا بأن يكفوا عن القتال، وأن يصلحوا ذات بينهم، وأرسل معهم أحدًا، فقبلوا،

وهم يصلون، وهذا الرئيس من رؤساء البادية، وهو يصلي سقط منه أنبوب الدخان الذي كان يشرب فيه في ذاك الوقت، أنا لا أعرف هيئته، لكن هكذا قرأت هيئته: أنبوب يحشى فيه الدخان - يعني: المادة -، ثم بعد ذلك يشعل فيه، سقط منه الأنبوب في المسجد، الناس رأوه، الإمام محمد بن عبد الوهاب لما رآها، التفت، فقالوا - ذاك أخذ الأنبوب وأدخله في جيبه - فقالوا للإمام: الرجل معه أنبوب يشرب الدخان، يعزر، هذا الأصل، كيف تترك تعزيره؟ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ما رأينا شيئًا. قالوا: رأيناه يا شيخ. وتركه، ولم يقل له شيئًا، بل حمل بالهدايا الرجل.

هذا الموقف لو كان في غير هذه الظروف، لعزر، لكن لما كان في هذه الظروف، قال الإمام المصلح: ما يناسب الآن، ما يناسب الآن، قَبِلَ حقن الدماء، وقَبِلَ ألا تحصل مقتلة، فأقابله أعزره على شرب الدخان، هذه ليست من صنيع الأئمة، ولا من صنيع من يفهم المقاصد الشرعية في الأمور.

فإذًا الدعوة لم تتنوع في مواقفها من علمائها السابقين من الدولة السعودية الأولى، ولا الدولة السعودية الثانية، ولا الدولة السعودية الثالثة، هي مدرسة واحدة، لكن ترعى فيها المصالح؛ لأن الإمام المصلح في حياته تنوع خطابه، وليس تقليدًا له، ولكن لأجل أن المصلحة الشرعية تقضي بذلك، وكما قلنا: أئمة الدعوة بعده على وضوح، وعلى أمر بين بما تقتضي به الأوامر الشرعية والأدلة المرعية.

وَسَائِلُ الدَّعْوَةِ

إن الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله استعمل في دعوته وسائل مختلفة:

الوسيلة الأولى: استعمل الكتاب، فألف، وكان تأليفه بحسب المصلحة، بحسب ما يصلح الناس، لم يؤلف شرحًا للبخاري، ولا شرحًا لمسلم، ولا تفسيرًا كتفسير الطبري، ونحو ذلك، ولم يؤلف كتابًا عظيمًا في الرد على أهل الفرق من المعتزلة والخوارج. . . إلى آخره، ولكنه جعل كتبه مشتملة على العقيدة النافعة في دليلها، وعلى المنهج الصحيح في السنة والبدع، وهذا بحسب مستوى الناس، الإمام المصلح في دعوته استخدم الوسائل جميعًا، ووسيلة الكتاب التي تناسب المخاطب، هذا واحد.

الوسيلة الثانية: وسيلة المراسلة، والمراسلة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، تجد أن كثيرًا من رسائل الشيخ مراسلات بينه وبين أناس يريد أن يصلحهم، والمراسلة فيها فائدة في الدعوة.

ما هي الفائدة؟ الفائدة في المراسلة: أنك تلقي ما عندك بهدوء، تأتي المؤثرات العاطفية في الرسالة، والمؤثرات العلمية، وتكون ميدانًا للتأمل والنظر، وباب الرسائل - اليوم - أظنه قل من يعمله من أهل العلم أو من طلبة العلم أو من الدعاة، وهو وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، مراسلة فيها بيان الحق، حتى أنه في رسالة من رسائله أرسلها إلى أحد العلماء الذين خالفوا

في بعض المسائل، وهو عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي، قال له:

(كنت زرتك من عشرين سنة - أو كما قال -، فرأيتك علقت على مسائل في كتاب الإيمان في أول البخاري، بأن كلام البخاري فيها حق، ففرحت بذلك؛ لأنه يخالف ما عليه أهل بلدك - يعني في مسألة الإرجاء -، وأن الإيمان قول وعمل، وكنت أرجو أن تكون فاروقًا لدين الله في آخر هذه الأمة، كما كان عمر بن الخطاب فاروقًا لدين الله في أول هذه الأمة، وإني لأدعو لك في صلاتي)[١]، ورسالة طويلة فيها مناقشة علمية، وفيها تأثير عاطفي، وفيها أمر ونهي، وترغيب وترهيب.

المراسلات عملها الشيخ، وأخذ بهذه الوسيلة بقوة، لا يقال: اليوم جاء الهاتف، جاء الشريط، جاء، جاء.. لا. الرسالة لها أثر؛ لأنه يتلقاها المتلقي، ويقرؤها في هدوء، وأنت تكتب في هدوء، ويمكن أن تملي فيها أشياء جيدة، وأن تقنع بها الناس من الحق.

الوسيلة الثالثة: الإرساليات، كان الإمام يرسل العلماء للبادية، يرسلهم للقرى؛ ليعظوا، وليذكروا، وما كان أهل العلم - في وقت الشيخ - ينتظرون أن يأتيهم الناس، فكانوا يذهبون، بل كان الناس يذهبون، يعني: كان طلبة العلم والعلماء يذهبون، ويدعون.

الوسيلة الرابعة: وسيلة الولاية، يعني أن من خالف، ألزم بالولاية، حتى إنه في رسالة له - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - عتب على

---

(١) سبق عزوه (ص ١٣٩).

بعض الناس بأنه نشر ما عنده في بلده من المنكرات، وقال له: كان الواجب عليك أن تكتب إلينا في ذلك، ونحن نسعى فيه بما يجب، وأما حديثك بين الناس بما ينكر، فإن هذا لا يحقق مصلحة، أو كما قال.

الاستفادة من ولاية، الولايات على أنواعها هذا مطلب من المطالب، والشيخ رحمه الله استفاد منه في دعوته، القاضي في بلده له ولاية يستفاد منها، القاضي لا بد أن يشعر بهذه الولاية، ويقرر الحق والتوحيد والسنة، ويرد على الباطل، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى ربط الناس بالولاية من خلال ولايته الصغرى؛ لأن القاضي نائب الإمام فيما أنابه فيه، رجل الحسبة كذلك عنده سلطة، وعنده نوع ولاية، العالم عنده نوع ولاية، المسؤول عنده نوع من الولاية، والولاية العظمى هي التي بها يقوى الحق وينفذ، ولهذا كل من دعا إلى انفصال ما بين أهل العلم والولاية، سواء كانت ولاية عظمى أم ولاية صغرى، الولاية العظمى يعني: الإيمان بالملك المسؤول الأعظم، أو الولاية الصغرى: مسؤول، قاضٍ، رئيس هيئة، وزير...، إلى آخره.

ولا شك كل من دعا إلى هذا الانفصال والتشكيك، فهذا لا يخدم الدعوة، ولا يخدم نصرة الحق، بل يسعى إلى التفكيك، ولاشك؛ لأن الدعوة مشت من قرون، وقويت البلاد؛ لأنه بقي هذا التواصل الأعظم وهذه الوسيلة من وسائل الدعوة في التأثير.

إذًا الإمام المصلح ما اقتصر على وسيلة، وإنما طرق الوسائل جميعًا، التي فيها إصلاح الناس، لكن لا بد من أن تكون الوسيلة مشروعة، وهذا يقيمه أهل العلم.

هذه كلمات موجزة في دروس مختصرة تناسب الحاضرين، ولا شك أن دروس الإمام المصلح متنوعة في دعوته، وكلما نظرت إلى دعوته استخرجت فوائد؛ لأنها دعوة ناجحة، ولم ير في العصر الحديث - بل ما بعد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - دعوة نجحت كنجاح دعوة الإمام المصلح، وقامت عليها دولة، وبقيت هذه الدولة قرونًا.

لهذا أوصي في الختام أن يكون لنا من هذه الدروس عظة وعبرة، فلا بد من الاهتمام بالعلم، لا بد من طرق وسائل الدعوة، بحسب المتاح والمتيسر بما يقره أهل العلم، لابد من تعليم الناس ما ينفعهم، ونشر الدعوة والتوحيد؛ حتى تكون القلوب ذات عبادة، لا بد من قيام الأمر على الثلاث التي ذكرتها لك: التوحيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الارتباط بالولاية. هذا به نجحت في الماضي، وبه يرجى الاستمرار، ونعود في الختام لما بدأنا، بأن هذه البلاد قامت على دعوة، ولا يصلح لها إلا هذه الدعوة، فأي دعوة أخرى، فإنها تفسد - في هذه البلاد -؛ لأن البلاد فيها دعوة، وأي مجيء آخر معناه يفرق الناس عن الدعوة الأصلية، وهذا - ولا شك - يحدث انفصالًا في الناس، وتعدد الولاء من جديد، وتعدد العصبيات، وهذا تفرقة للناس.

الدعوة بمناصرة الأئمة من آل سعود، كونت مجتمعًا قويًا، وبه انتشر خير كثير في البلاد وفي غيرها، وهذه القوة والرابط كان على أساس العصبية للتوحيد، ليست عصبية وطنية، وليست عصبية إقليمية، إنما كانت عصبية على الدين، عصبية على التوحيد، فكلما سعي في تقوية هذه العصبية على

التوحيد وقوتها، بقينا أقوياء، وهذا - ولا شك - درس عظيم من دروس هذه الدعوة، فاستمرار هذه البلاد وهذه الدعوة هذه المدة الطويلة كان بسبب مهم، وهو بقاء العصبية العظيمة العصبية الشرعية، وهي العصبية للدين، يعني الولاء للدين، نرى أن الدولة السعودية الأولى ذهبت، لكن رجعت مرة أخرى، ذهبت الدولة السعودية الثانية، لكنها رجعت ثالثة، لم؟

لأن الأساس الذي بنيت عليه الدول السعودية الأولى والثانية والثالثة هو أساس واحد، وهو العصبية للتوحيد، العصبية للدين، فإذا زالت الدولة بظلم من الأعداء، فإن الأساس إذا بقي، فإن التجمع عليه سهل وميسور، فإذًا: العدو يدخل لهذه البلاد من مدخل عظيم، وهو تفتيت العصبية التي قامت عليها هذه البلاد، فإذا فتت العصبية ضعفت الدولة، ولذلك كل محب للتوحيد ولدعوة الإمام المصلح يسعى في بقاء العصبية؛ لأن بقاء العصبية على التوحيد بقاء لهذه البلاد مجتمعة على القوة وعلى السنة وعلى التوحيد.

أسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلىٰ أن يرفع درجة الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب ﷺ، ودرجة من آواه ونصره الإمام محمد بن سعود، وأن يصلح في عقبهما، وأن يجعل عقب الأسرتين هداة مهتدين، وكل من نصر هذه الدعوة من الناس جميعًا.

اللهم أصلح الجميع، وألهمهم رشدهم، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وأسأله ﷻ أن يقينا الفتن، وأن يجعلنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، رافعين لواء التوحيد، لا تأخذنا في ذلك لومة لائم.

وأسأله ﷻ أن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجعلنا متكاتفين

متعاونين على البر والتقوى، من ذوي النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين ولعامتهم.

وأسأله ﷻ أن يبقي في قلوبنا الحق حقًا، وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا، وأن يمن علينا باجتنابه، وأن يمن علينا بالحكمة في القول والعمل، وأن نضع الأمور مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها؛ إنه ﷻ جواد كريم. أصلح الله لي ولكم السر والعلن والظاهر والباطن، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة منهج الإمام المجدد في العقيدة

١٤٢١/٨/١٤هـ بمسجد شيخ الإسلام بالرياض

الحمد لله الذي بعث في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون بكتاب الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه! وكم ضال تائه قد هدوه! فما أحسن أثرهم على الناس! وما أسوأ أثر الناس عليهم! ينفون عن دين الله تحريف الغالين وتأويل المبطلين ونزعات الجاهلين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد...

فيا أيها الإخوة في الله - طلبة العلم، ومن يحرص على كل خير -:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...، وأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، كما أسأله ﷻ أن يجعلنا حملة العلم ومحصليه، حتى يتوفانا الله ﷻ إليه كما أرغب إليه ﷻ أن يثبتنا على طريقة أهل السنة والجماعة - أئمة السلف الصالح - ومن نهج نهجهم، وسار على منوالهم؛ إنه ﷻ سميع مجيب.

بَيْنَ الغُلاةِ وَالجُفَاةِ

إن موضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه يمثل لبنة في فهم هذه الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في نجد، وشع نورها في تجديد أمر الدين في بلاد كثيرة: في الجزيرة؛ وفي غيرها، وذلك لأن كثيرين في هذا الزمن من رغبوا عن العقيدة الصحيحة ومنهج السلف الصالح فيها، وأيضًا كثيرون في هذا الزمن من رغب في الدعوة السلفية، وفي اقتفاء السلف الصالح، لكنهم لم ينهجوا نهج أئمة هذه الدعوة في دعوتهم، وفي صِلاتِهم، وفي ما يقررون، أو يكتفون.

وأيضًا تتضح أهمية هذا الموضوع أن الانتساب لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في هذا الزمن رغب فيه أناس غلاة، ولا يصح لهم هذا الشرف؛ لأنهم لم يأخذوا بكل منهج أئمة الدعوة في ذلك، الذي اقتفوا به أثر السلف الصالح في ذلك، بل غلوا في ذلك، وأخذوا جملًا من كلامهم، وأنزلوها على مرادات الأهواء.

وهناك -أيضًا- طائفة أخرى جفت، وانتسبت إلى دعوة السلف، لكنها تساهلت في أمر التوحيد والاعتقاد، بل وفي أمر الدين، حتى صاروا مفرطين في انتسابهم لهذه الدعوة التي هي في الواقع دعوة إصلاحية في أمر ديننا، هدى الله عَجَّلَ إليها في تجديد أمر الدين الإمام المصلح شيخ الإسلام أبا عبد الله وأبا علي محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على المشرفي التميمي، المولود سنة خمس عشرة ومائة ألف، والمتوفى سنة ست ومائتين وألف في الدرعية.

وكلكم يعلم سيرة هذا الإمام، وطرفًا كثيرًا أو قليلًا من مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن الشأن في أن منهج هذا الإمام لم يبسط للناس في تعرف مفرداته، في كيفية تقريره لمسائل العلم في العقيدة أولًا والتوحيد، وفي مسائل الفقه والخلاف وفي الاستدلال، وأيضًا في السير، وأيضًا في مسائل العمل والسلوك والتربية، وأيضًا في مسائل العلاقة مع ولاة الأمور، وواجبات كل أحد بحسبه في ذلك.

تَحْذِيرٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ

ونحمد الله عَزَّ وَجَلَّ أن جعل الأكثرين في هذه البلاد وفي غيرها يحرصون على تعرف سمات منهج السلف الصالح في مسائل العقيدة، وفي المسائل التي ذكرنا، وعلى طريقة أئمة السنة والجماعة في هذه المسائل، ولا شك أن هذا من المطالب المهمة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذر، وأنذر، فقال: «**وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**». قالوا من هي يا رسول الله قال: «**هي الجماعة**»[(١)]، وفي رواية قال: «**هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[(٢)].

وأيضًا حذرًا وخوفًا من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وحذرًا من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨].

(١) سبق تخريجه (ص ١٤١).
(٢) سبق تخريجه (ص ١٤١).

النَّجَاةُ فِي اِتِّبَاعِ السَّلَفِ

ولهذا فإن الحريص على آخرته، والحريص على النجاة لا بد له أن يرجع إلى ما كان عليه أئمة السلف الصالح، فيأخذه بلا غلو ولا جفاء، فيأخذه بلا شدة ولا ارتخاء، بل على نهج وسط، فيه ظهور الحق، وفيه الرحمة بالخلق؛ كما كان على ذلك أئمتنا - رحمهم الله تعالى -.

وأيضًا تظهر أهمية هذا الموضوع في هذا الزمن في أن عمق العلم والنظر قد غلب عليه العاطفة والحماس عند الأكثرين، فإن يُتلمس شيء من هدي أئمة السلف، أو مما كان عليه أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى - جميعًا، فيقال: إن هذا هو منهج أئمة الدعوة، وهذا هو الذي قرره أئمة الدعوة، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ونحو ذلك، في مسائل قد يتقاصر كثيرون حين يقرونها عن تفرس النهج وتتبعه، وهذا من الاستعجال، ومن القضاء بغير علم.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ قال: «**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ**»(١)، والقضاء كما يكون في مسائل الخصومات كذلك أعظم منه القضاء في المسائل العلمية والبت فيها، فإذا كان القضاة ثلاثة: قاضيين في النار، وقاضيًا في الجنة، فإن في المسائل العلمية تكون التبعة أكثر؛ لأن البينات والدلائل في المسألة الفردية، فيما يقع من خصومة فردية هذا هين، أو هذا قليل، أما في المسائل العلمية، فيحتاج إلى جهد أكبر وجمع أكبر،

---

(١) سبق تخريجه (ص ٦١).

ولهذا قال عليه ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»(١) .

والقضاء في المسائل العلمية والنظر فيها يحتاج إلى تفرس وإلى تأمل، وخاصة إذا كان سيترتب على هذا النظر منهج، أو سيترتب عليه عمل، أو سيترتب عليه افتراق، أو سيترتب عليه دعوة، أو سيترتب عليه نسبة أشياء إلى السلف الصالح ﵃، وإذا اختلفت الأمور، واشتبهت، فإن الواجب على العلماء وعلى طلاب العلم أن يدعوا المشكوك فيه إلى اليقين؛ لأن الله ﷻ قال في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فتأمل قول الله ﷻ في هذه الآية العظيمة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فدلت الآية على أن الزيغ وجد في القلوب أولًا، ثم صار الاتباع للمتشابه، وليس المتشابه في نفسه سببًا للزيغ، ولكن الزيغ وجد لأسباب كثيرة، فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه، وأما الذين لا يوجد في قلوبهم زيغ ولا هوى، وإنما يحبون الحق، ويبحثون عنه، فإنهم يؤمنون بالمحكم، ويعملون به، ويردون المتشابه إلى عالمه ﷻ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم(١٧١٣)، من حديث أم سلمة ﵂.

وهذا هو الواجب في هذه المسائل؛ لهذا نرى في هذا الزمن كثرة الكلام على منهج أئمة الدعوة: هذا هو الذي يقرره أئمة الدعوة، يقرره الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، هذا هو منهج ابن تيمية، هذا هو منهج ابن القيم، هذا منهج السلف، وكثير منها قضاء بغير علم؛ كما يعرفه المتبصر في هذه المسائل.

والناس في ذلك ما بين غالٍ فيها وما بين جاف، وهذه الأمة وسط ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهي وسط بين طرفي الغلو والتقصير.

إذا تبين هذا، فإن الإمام المصلح مجدد أمر الدين في زمانه محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كان مقتفيًا لأثر من قبله، حتى أنه لا يعرف له في مسألة أنه تكلم فيها من غير سابق له من أئمة الإسلام، وإنما كان يتبع من قبله من الأئمة، وخاصة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله المتوفى سنة إحدى وأربعين ومائتين، والإمام ابن تيمية رحمه الله المتوفى سنة سبعمائة وثمان وعشرين، والعلامة ابن القيم، والحافظ الذهبي، وابن كثير... ونحو ذلك من العلماء الذين قرروا منهج السلف بوضوح.

فإذًا هو في منهجه متبع لأئمة الإسلام من أئمة السلف الصالح، فمن بعدهم، ولم يكن في منهجه مبتدعًا منهجًا جديدًا، لا في العقيدة، ولا في العلم، ولا في التعامل في أي نوع من التعامل؛ لهذا إذا تكلمنا عن منهجه الواقع في تقرير العقيدة، فإنه منهج للسلف الصالح، لكنه ظهر أكثر في كلام الإمام؛ لأجل أنه صاحب دعوة وجهاد ونشر للخير، وهذا ستظهر فيه معالم المنهج أكثر من أنه يحتاج إلى تطبيق على بعض الوقائع.

العَقِيدَةُ وَالتَّوْحِيدُ

ما هي العقيدة أو التوحيد الذي نبحث في منهجهم فيه؟

العقيدة والتوحيد علم يبحث في حق الله ﷻ على عباده، وما يتصل بنعوت الرب ﷻ، وأسمائه سبحانه وتعالى، والأمور الغيبية، وهذا يدخل في أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، والعقيدة والتوحيد بينهما تلازم، لكن بينهما فرق، وذلك أن العقيدة تشمل شرح أركان الإيمان وما يتصل بتوحيد الله سبحانه وتعالى والإيمان به، توحيده بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، والإيمان ببقية أركان الإيمان الستة، وما يتصل بذلك مما خالف فيه أهل السنة والجماعة الفرق الضالة بأنواعها: في مسائل التلقي، ومسائل التعامل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة ولاة الأمور، وفي الموقف من زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين، والصحابة، . . . ، إلى آخر ذلك، وفي الأخلاق، والسلوك التي يكون عليها أهل هذا الاعتقاد؛ كما قرره ابن تيمية في الواسطية؛ حيث جعلها ثلاثة أقسام كما هو معلوم للدارس.

أما التوحيد، فهو أخص من العقيدة، ويعنى به: تقرير حق الله ﷻ على عباده، وهو ما يستحقه سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأعظم هذا وأفضله هو عبادة العبد للواحد الأحد وحده دونما سواه، وهو المسمى بتوحيد العبادة.

والتوحيد من أهل العلم من قسمه إلى ثلاثة أقسام في كلامه؛ كالحافظ ابن جرير الطبري[١]، وكابن بطة الحنبلي، وجماعات، وابن تيمية وابن القيم، ومن سار على هذا النهج، ومنهم من قسمه إلى قسمين: وهو توحيد بالمعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب[٢].

فالأول ثلاثة أقسام: ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات.

والتقسيم الثاني: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد في القصد والطلب، وهو توحيد العبادة أو توحيد الإلهية، وهذا القسم - أعني توحيد القصد والطلب - هو الذي شحذ همة الإمام المصلح رحمه الله في دعوته الإصلاحية لتجديد أمر الدين.

كذلك يدخل في العقيدة والتوحيد اتباع النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، اتباع سنته، والحض عليها، والنهي عن البدع ومحدثات الأمور.

إذا تبين هذا، فما هي معالم هذا المنهج على الإجمال؟

---

(١) لمعرفة أقوال أهل العلم في أقسام التوحيد، انظر على سبيل المثال: (تفسير الطبري) (٣/ ٢١٤)، (٤/ ٤١)، و(اعتقاد أئمة الحديث) لأبي بكر الإسماعيلي (ص٤٠ وما بعدها)، و(الإيمان) لابن منده (١/ ٣٧٩)، و(التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاته على الاتفاق والتفرد) لابن منده - أيضًا - (١/ ٦١ - ١١٦)، (٣/ ٧ وما بعدها)، و(شرح الطحاوية) لابن أبي العز (ص٧٦ - ٨٨)، و(المنتقى من منهاج الاعتدال) للذهبي (ص١٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٣٦، ٣٨)، و(الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد) لشيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، و(القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد) للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

(٢) انظر: مدارج السالكين(٣/ ٤٤٩).

لا تُؤْخَذُ العَقِيدَةُ إلا مِنْ كِتَابِ اللهِ

أولًا: منهج الأئمة جميعًا - ومنهم الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ - أنَّ العقيدة والتوحيد أمر متصل بالغيب، فلا يقرر إلا بالنصوص أو بما أجمع عليه السلف الصالح، يقرر بالكتاب وبالسنة وبما أجمع عليه السلف الصالح، وذلك لأن أمور الغيب ليست كأمور الشهادة، فمنهج التلقي في ذلك في تقرير العقيدة واضح، وهو أن العقيدة والتوحيد لا يقرر إلا بنص من القرآن أو من السنة، أو مما أجمع عليه السلف، أو فهمه الصحابة - رضوان الله عليهم - من النص من القرآن أو من السنة، وحينئذ يكون تقرير هذا منطلقًا من أن العقل لا مدخل له في أي مسألة من مسائل الاعتقاد والتوحيد والإيمان، وإنما هي مسألة تسليم بحت، العقل تابع للنقل في فهم دلالته، وفي فهم ما دل عليه النص، أما النص، فهو الذي يؤخذ منه تقرير الاعتقاد.

فإذًا أول معلم من معالم المنهج أن منهج السلف الصالح ومنهج أئمة الإسلام في تقرير العقيدة هو أنه لا يصح أن تؤخذ العقيدة إلا من كتاب الله ﷻ، ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن ما أجمع عليه السلف، فحينئذ لا يكون الاستدلال بالعقل في مسائل الاعتقاد دليلًا ولا منهجًا، وحينئذ لا يكون الاستدلال بالعقل، أو الاستحسان، أو ما يظهر لفلان، أو ما يستحسنه فلان من أنه له مدخل في ذلك، وأيضًا يبطل حينئذ أن تؤخذ مسألة من مسائل الاعتقاد من رجل تفرد بها، حتى ولو كان من أئمة الإسلام، أو كان ممن كان لهم الشأن من التابعين فمن بعدهم.

وإنما تؤخذ مسائل الاعتقاد كمنهج، ومسائل التوحيد من الأشياء المتفق عليها الظاهرة البينة التي دل عليها كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وأجمع عليها العلماء، كذلك لا مدخل حينئذ فيها لتقرير العقيدة بنقل عن عالم، حتى ولو كان من أبرز أهل العلم؛ لأنه أتى بكلفة لا يعرف لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، وهذا مرجعه أن هذه المسائل الغيبية لا يدخلها قياس ولا يُنظَّر عليها، ولا تلحق بمثلها، وإنما هذه المسائل الغيبية يجب فيها التسليم لما دل عليه الدليل، دون نظر في عقل يثبت شيئًا، أو يستحسنه، أو يلفظه.

العَقْلُ لا يُقَدَّمُ عَلَى الدَّلِيلِ

المخالفون لهذا المنهج ساروا في طرق ومناهج عدة: فمنهم الذين حكموا العقل على النص، وجعلوا في مسائل الاعتقاد العقل مقدمًا على الدليل؛ لأن العقل عندهم - كما يزعمون - قاطع، وأما الدليل عندهم، فليس بقاطع، يعني قطعي الدلالة، ليس قطعي الثبوت، إنما القصد قطعي الدلالة. العقل عندهم قاطع، وأما النص، فعندهم ليس بقاطع؛ فلذلك يحصل هذا وهذا، يبطل حينئذ استدلال الناس في مسائل الاعتقاد بالمنامات، أو بما يراه أو يقوله: جاءني شبه إلهام؛ كما يدعيه قوم من الصوفية ونحوهم في إثبات أشياء أو نفي أشياء عن طريق المنامات، وعن طريق الرؤى، وعن طريق الوجد، وعن طريق أشياء مشابهة؛ لذلك -أيضًا- يدخل في هذا سلوك أهل البدع في تقرير مذاهبهم: من الخوارج، ومن

المرجئة، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، والأشاعرة، ونحو ذلك ممن يثبتون عقائدهم بالاستدلال ببعض الأدلة دون بعض، ولا يأخذون كل ما جاء في المسألة من الأدلة، ولكن يأخذون ببعض، ويتركون بعضًا، ولهم نصيب من قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، والواجب أن تؤخذ مسائل العقيدة من الكتاب والسنة في جميع ما ورد فيها؛ لأن مسائل العقيدة هي مسائل غيب، والغيب لا يدخله النسخ؛ لأنه خبر، لا يدخله النسخ، ولا يدخله - أيضًا - الإنساء: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

إن مسائل العقيدة محكمة، وإنما يقع التدرج في أشياء من الأمور العملية؛ لأن هذه أخبار متعلقة بالغيب، وعلى هذا كان منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه. مثلًا كتاب التوحيد تجد أول هذا الكتاب: كتاب التوحيد وقول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلم يجعل حتى خطبة لكتاب التوحيد، والواحد عندما يؤلف كتابًا يقول: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، فهذا كتاب أردت فيه بيان توحيد...

هذا الإمام المصلح لم يجعل ولا كلمة في مقدمة كتاب التوحيد؛ لأنه لا أحد يدل على التوحيد أعظم من رب العالمين، فكان من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ ومن الدلالة على أن المنهج في التوحيد في تقريره أنه لا يسبق كلام الله بكلام، ولا يسبق كلام رسوله ﷺ إلا بكلام الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لهذا تجد أن كتاب التوحيد - وهو في تقرير توحيد الإلهية وما يضاد توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وما يتصل بذلك من المباحث كما هو

معروف - هذا الكتاب ليس فيه إلا آية أو حديث، وأحيانًا يأتي بكلام يوضح معنى كلمة، أو جملة، أو حكم في الآية، أو في حديث من نقل عن بعض أهل العلم المعتبرين في ذلك، وعلى هذا جميع كتب الإمام رحمه الله.

قولهم افتراءً: الإِمَامُ لا يُطْنِبُ

عاب قوم الإمام رحمه الله، فقالوا: إنه لا يطنب في التأليف، ومعلوماته قليلة، لا يفصل، لا يستطرد. وهذا في الواقع من المنهج؛ لأن الدعوة - دعوة التوحيد - ليست دعوة لطلبة العلم، ليس علمًا خاصًا بفئة من الناس يتعلمونه.

التوحيد حق الله على العبيد للجميع: الصغير والكبير، والمرأة والرجل، وطالب العلم والبدوي، والقريب والبعيد يأخذه.

فإذا فصل فيه وأطال، فإن طول الكلام ينسي بعضه بعضًا؛ لهذا كان يختصر جدًا في تقرير التوحيد والعقيدة بالدليل من الكتاب والسنة؛ ليكون المتلقي لهذا المنهج معه الدليل الواضح البين من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، وليس معه تفصيل كلام يذهب قوة الاستدلال.

ومعلوم أن كثرة البحوث التي نشأت في زمن القرن الثاني والثالث أضعفت من أخذ العقيدة من مصدرها الأصيل الكتاب والسنة، وكثر الخلاف فيها؛ لأنه كثر الكلام، واليوم نرى لما كثر تقرير العقيدة في تفصيل الكلام وتنويع الجمل، حتى عند العامة وفي المحاضرات، عند الناس لما كثر الكلام، صار فيه هناك الآن إثارة للخلاف في مسائل، أصبح بعض طلبة

العلم يقول: بعض المسائل التي قررها الأئمة في التوحيد بعضها فيه خلاف، وهذه بعضها كذا. ويذهب عن النص ودلالته، وتجده يقول: قال ابن تيمية: إن دعاء، أو إن توسل كذا أنه بدعة، أو يقول إن الشفاعة كذا أنها بدعة، وليست شركًا. ويخرج الدلالة إلى قول فلان وقول فلان، وهذا في الحقيقة يخل بسلامة المنهج في أن النص إذا كان واضحًا محكمًا، واضح الدلالة، بين الدلالة، فإنه حينئذ يجب تقريره على هذا، ونقله إلى الناس، وبيان ذلك.

المعلم الثاني من معالم هذا المنهج المبارك: إن تقرير التوحيد والعقيدة بعامة هو أولى الأولويات، وأول المهمات، وذلك لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»(١)، وفي رواية أخرى عند البخاري في كتاب التوحيد: «**إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»(٢) وعند مسلم في أول صحيحه: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ**»(٣)، وهذا يدل على أن أولى الأولويات في الدعوة هو أن يدعى إلى التوحيد، والدعوة إلى التوحيد لا بد فيها من ترتيب - أيضًا - للأولويات في داخلها.

فإذًا عندنا مسألتان في تفرس هذا المنهج: الأولى أن الدعوة إلى توحيد الله ﷻ في ألوهيته وعبادة الناس للواحد الأحد دونما سواه، أن هذا هو منهج هذا الإمام المصلح في دعوته، فلم يبدأ دعوته بسلوكيات

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم(١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم(١٩).

ولا بزهديات، ولم يبدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المسائل التي يقع فيها الناس من الذنوب العامة، ولم يبدأ دعوته بكذا وكذا، وإنما صبر وصبر سنين، حتى يقرر توحيد العبادة وما يدل عليه من حق الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته ﷻ.

إذا تبين ذلك، أن التوحيد كان هو أهم المهمات والتوحيد والعقيدة أولًا، لو كانوا يعلمون، فإن مسائل التوحيد تختلف - أيضًا - في ترتيب أولوياتها؛ لهذا نجد أن الإمام في دعوته، وفي ما يقرره، وفي كتبه، وفي رسائله، تجد أنه لا يجعل المسائل المتصلة بالعقيدة والتوحيد في مرتبة واحدة، بل أخر بعض المسائل، حتى اتضحت الدعوة وانتشرت، وبدأ بالمسائل العظيمة.

المسألة العظيمة الأولى: أن دعوة غير الله ﷻ شرك، الاستغاثة بغير الله ﷻ شرك، طلب المدد والحاجات من الأموات، وشفاء الأمراض، وجعل مخلوق له صفات الخالق أن هذا كفر وشرك، وأخَّر بعض المسائل في مثل بعض مسائل تقرير الصفات، والرد على الأشاعرة، في بعض مسائل التوسل أخرها، في بعض مسائل التبرك لم يوردها، وذلك بين في منهجه.

فإذا قلنا: إن التوحيد أولًا، وهو أهم المهمات، فليس معنى ذلك أن يُعطى الناس كل مسائل التوحيد دفعة واحدة، يُؤتى لقوم يجهلون الأصول، وعندهم خلل في أصل التوحيد، عندهم وقوع في شركيات كبرى، فنبحث معهم مسألة التبرك بالصالحين الأحياء، أو التبرك بالماء، أو بالسؤر، أو بالتمسح ببعض الصالحين الأحياء، أو بعض تأويل الصفات، أو نحو ذلك، ليس الأمر هكذا.

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ دعوته في شيء عظيم واضح؛ لأن حجة الخصم فيه هي أضعف ما يكون، ولو ركز على بعض المسائل التي فيها من الكلام ما فيها من النقول عن العلماء مثل: مسائل التبرك، أو مسائل التوسل، أو بعض مسائل تأويل الصفات، أو نحو ذلك، لترك العلماء في وقته الذين ناهضوه وعادوه، لتركوا الكلام في المسائل المهمة، وركزوا على هذه المسائل ليطعنوا فيه، أو ليردوا عليه، فكان من الحكمة أنه أخذ بسنة النبي ﷺ في أنه قرر توحيد العبادة الأكبر، تعلمون مثلًا مسائل الحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ، ما جاء تحريم ذلك إلا في المدينة، أما في مكة ما كان التحريم في ذلك، كان الرجل يحلف بأبيه، ويحلف بالكعبة، ويحلف ببعض الأشياء - يعني غير الآلهة -، ولكنه لم ينه عنه إلا في ذلك[1]، قول: ما شاء الله وشئت، هذا إنما نهي عنه في المدينة، في قصة مع بعض أحبار اليهود، حيث قالوا لبعض الصحابة: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تنددون، تقولون ما شاء الله، وشاء محمد، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك، قال: «**قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**»[2]؛ لأن هذا كان في المدينة.

إن المسألة عقدية، ومتصلة بالتوحيد، لكن لم تقرر في هدي النبي ﷺ في مكة، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أخر الكلام عن كثير من هذه المسائل، بل إنه سُئل عن بعض أشياء تنسب إليه، استدل بها المعارضون، فقال فيها: (**أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، أنا ما قلت هذه الأشياء التي**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَلَا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللَّهِ فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا فَقَالَ لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُم**».

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٠).

تنسب إليّ، حتى قيل عنه أنه يقول: لا أنكر التوسل بالصالحين، وإنما أنكرت - هذا ثابت من كلامه -، وإنما أنكرت ما أجمع العلماء عليه، وهو دعوة غير الله معه)[١].

وهذا من الحكمة في أن التوحيد أولًا، لكن ليست كل مسائل التوحيد في نفس المرتبة، إذا قلنا التوحيد أولًا، لا يفهم منها الشباب، والذين يدعون إلى منهج السلف الصالح أنك تأتي في كل مكان وفي كل بلد وفي كل مجلس، فتأتي بكل مسألة في ذهنك أنها من التوحيد، وتعرضها على أساس أنها من المهمات والمطالب في الاعتقاد، لا، لا بد أن ينزل هذا بحسب تمكن الدعوة من النفوس، وعدم تمكنها، إذا كنا في قوم وثنيين في بلد من البلاد، أو في قوم يكون عندهم تقديس الأضرحة وعبادة غير الله والنذر لها والذبح والاستغاثة بالأموات ونحو ذلك، فمسائل البدع والوسائل إلى الشرك هذه يؤخر الكلام عنها، حتى تتقرر هذه المسألة العظيمة؛ لأن الناس إذا كثر عليهم الكلام بعضه ينسي بعضًا، مثلما قالت عائشة ﵂: فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، وهذا صحيح.

فإذًا نهج الإمام ﵀ أن الدعوة إلى التوحيد أولًا، ولكن هناك أولويات في مسائل التوحيد والعقيدة، لا بد أن ترتب، فليست المسائل كلها في نفس

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٩٠): **(ولا نكفر إلا ما أجمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان وأيضًا: نكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر)**.
الدرر السنية (١١/ ٣١٧): **(سألني الشريف عما نقاتل عليه، وما نكفّر به؟ فقال في الجواب: إنا لا نقاتل إلا على ما أجمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان بعد التعريف، إذا عرف ثم أنكر)**.

المنزلة، كذلك إذا تكلمنا - كما سيأتي - في السنة والبدعة، ليست مسائل السنة والبدعة واحدة، بعضها أغلب من بعض، فلا بد من التدرج في هذا الأمر؛ لأجل قبول الناس للحق في ذلك؛ (**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بها**)[١].

المعلم الثالث من معالم منهج هذا الدعوة المباركة: أن الإمام المصلح رَحِمَهُ اللَّهُ لم يفرق في دعوته ما بين أصناف الناس، لم يجعل دعوته خاصة بالشباب، لم يجعل دعوته للأذكياء أو النابغين، وإنما جعل دعوته لكل مكلف؛ لأنها دعوة ليست لحزب، وليست لسياسة، وليست لغرض دنيوي، وإنما هي لتعبيد الناس لرب العالمين، فتارة تتوجه الدعوة إلى شباب، تارة تتوجه الدعوة إلى فئة، وهذا لا يجوز؛ لأن المقصود تعبيد الناس لرب العالمين، فتخصيص الدعوة بطائفة من المكلفين دون طائفة، والتركيز عليهم، هذا ليس منهجًا نبويًا، وإنما الدعوة للجميع، سيكون الشباب في الغالب هم الأكثر تقبلًا، لكن لا لأجل تخصيصهم؛ بل لأجل أنهم هم الأكثر تقبلًا، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، وقال ابن كثير هنا: معنى ذرية من قومه أي: لأنهم كانوا شبابًا[٢]؛ لأن أكثر أتباع الأنبياء كانوا شبابًا، لا لأجل أن دعوة الأنبياء والمرسلين توجهت إلى الشباب، ولكن لأنهم الأسلم من جهة الأهواء في قبول الحق، فإذا كانت الدعوة عامة، فستقبلها

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وقال: غريب. وابن ماجه (٤١٦٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٢).

في الغالب هذه الفئة أكثر من غيرها من الفئات؛ لقلة الهوى فيهم في الغالب، فكان من منهج الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في دعوته أن دعوته خاطبت أمراء القرى في وقته، وخاطبت العلماء، وخاطبت العامة، وخاطبت الحضر، وخاطبت البادية، وخاطبت النساء والرجال، فكان العلم يبث في النساء كما يبث في الرجال.

وكان في الدرعية في ذلك الوقت مكان مخصص للدروس - كما ذكر -، يحضره الرجال، ويحضره النساء كل يوم في أواخر وقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فكانت الدعوة عامة، كان الأعراب والبادية توجه الدعوة لهم، وكان الكبار توجه الدعوة لهم، الأمراء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، العلماء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، حتى أنه تودد للعلماء الذين يرى أن فيهم خيرًا.

ومن أمثلة ذلك رسالته المشهورة لعبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي، أحد علماء الأحساء الأشاعرة في ذلك الوقت، ورد عليه عبد الله بن محمد هذا ينتقده في بعض المسائل، فأجابه الإمام برسالة طويلة، فيها منهج الأدب مع المخالف، فكتب إليه يبين له الصواب في هذه المسائل بعبارة علمية هادئة، وقال فيها بعد إجابة عن عدد من الأسئلة: **(والله إني لأدعو لك في صلاتي، وأرجو أن تكون فاروقًا لدين الله في آخر هذه الأمة، كما كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاروقًا لها في أولها؛ وذلك لما رأيت حين مجيئي إليك في الأحساء أنك كتبت على أول كتاب الإيمان في صحيح البخاري من أن الإيمان قول وعمل، كتبت عليه: «هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده»، فسرني هذا منك؛ لكونه يخالف المشايخ الذين أخذت عنهم - يعني بهم الأشاعرة -، الذين يقولون: إن الإيمان هو**

الاعتقاد والقول، أو الاعتقاد وحده)[١]، وهذا النوع من الخطاب فيه جمع، فيه توجيه الدعوة وجمع.

فإذًا هو لم يستعدِ الناس على الدعوة، وإنما كان الناس هم الذين عادوا الدعوة؛ لأنها لا توافق أغراضهم، وهذا مهم في منهج الدعوة وفي نشرها.

مثلًا بعض الناس يذهبون إلى بلد من البلاد، يريدون الدعوة في أي مكان: في أفريقيا، أو في آسيا، أو في الجزيرة، أو في أي مكان، ويرى أشياء، فهو يقول: هذا الحق، أنا لن يهمني أمير، ولا يهمني حاكم، ولا يهمني عالم. هذا ليس بصحيح، لا بد أن تضع الأمور في مواضعها، وأن تشرح الدعوة، وتبين الدعوة إذا عادوها؛ لأجل أنها حق، فبهذا أنت قد أبرأت ذمتك بأن تكون العداوة حينئذٍ منهم؛ لكراهتهم الحق؛ لأنه قد تأتي تهجو مثلًا الوالي، أو تهجو العالم، أو تسفه بهم، أو ترد عليهم، فإنه حينئذٍ يكون هناك مدخلٌ للشيطان على قبول هذه الدعوة.

والإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان سهلًا جدًا مع العلماء ومع الأمراء، حتى أنه قالوا له: اخرج من البلد. فخرج في قصة أن ابن معمر في العيينة قال: ما استطيع أنك تبقى في البلد. فخرج منها، فعوضه الله عَزَّ وَجَلَّ خيرًا مما ترك، وهذه مسألة مهمة في المنهج، أن الدعوة ليست خاصة، بل هي دعوة الإسلام عامة لكل المكلفين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] هي للجميع.

فإذًا التخصيص ليس من سمات هذه الدعوة، السرية ليست من سمات الدعوة، الانغلاق ليس من سمات هذه الدعوة، الدعوة واضحة من أول يوم

---

(١) سبق عزوه (ص ١٣٩).

ومنتشرة، فلم يكن الشيخ رحمه الله يهيئ - مع شدة الناس في زمنه، ومعاداة الأمراء والعلماء والواقع الصعب - لم يكن يهيئ الأمر بأمور سرية تمشي؛ حتى يريد التكثير، وإنما أوضح الحق من أول ما اعتقده بأسلوب حكيم، وتدرج مرض، يوافق السنة والكتاب.

المعلم الرابع: أن ما سبق الدعوة من أشياء من أقوال لعلماء أو من سلوكيات للناس، أو من أناس ماتوا، فإن أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى - سكتوا عن الماضي، ولم يقدحوا في المعظمين للناس فيما مضى، ما تجد أنه قدح في رؤساء الطرق في الماضين، أما الذين في وقته، فواجههم مثل: تاج، وشمسان، ومجموعة، والمريس، وفلان وفلان، ممن كانوا في وقته، واجههم، لكن من سبق، فإنه لم يتكلم عنهم، لماذا؟

لأنه تارة يأتي الداعية إلى التوحيد، ويظن أنه يصل إليه بإثبات فسق رجل يُدعى أنه من الصالحين، يتكلم مع شخص في دعوة البدوي، وسؤال البدوي، والاستغاثة به، أو نحو ذلك، تجده يقول: إن البدوي هذا أصلًا رجل فاسق، رجل كان لا يصلي كان، وكان، وكان، هذا ليس هو المقصود كان منهج الإمام رحمه الله أنه لا يتكلم عن سلوكيات من سبق، في الجملة لا يتكلم عنهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]. ولكن كان يقرر التوحيد، هل ذاك الرجل كان كذا، ولم يكن كذا؟ فهذا ليس من شأنه، والحكم على الأشخاص، أو أن هذا فيه وما فيه هذا يحجب الحق في الدعوة، وهذه مسألة مهمة اليوم؛ لأن مرة كان أحد الإخوة من أحد البلاد الإفريقية أتى يسأل عن بعض المسائل، وقال: نجد أن الدعاة إلى السلفية وإلى التوحيد عندنا يبدؤون ببيان أن

المعظمين عند قومنا أنهم لم يكونوا صالحين، وأنهم كانوا فسقة، يتكلم عن الميرغني، ويقول: كذا. ويتكلم عن فلان يسبه، ويقول: كذا. فهذا أوغر الصدور، فصار الناس ما يسمعون الدليل، ولا يسمعون الحق، وإنما ينتصرون لهذا الذي يعظمونه، وهذه من جبلة الإنسان.

إنك إذا تركت الحق، وطعنت في الشخص، فإن الناس يتجهون إلى من يعظمونه، ويدافعون عنه؛ لأنهم يكبرونه في نفوسهم، ولا يحبون أن أحدًا ينال منه، ولا ينظر أأنت قلت حقًا، أو قلت غير حق، أو يناقش، أو فيه دليل، لا ينظر. كيف تتكلم في فلان؟ هذا رجل صالح، هذا يأتي ويقول: لا، ليس بصالح، كان يفعل... هذه قضية ليست بشرعية، هو انتهى، وذهب إلى ربه، إن كان صالحًا، فله جزاء الحسنى، وإن كان غير صالح، فسيجد جزاءه عند الله.

المهم في الدعوة هو تبيين توحيد الله ﷻ، هو تبيين ما اشتملت عليه الأدلة من عبادة الله وحده دونما سواه، وترك الشرك ووسائل الشرك، والبعد عن البدع والمحدثات.

فإذًا كان من منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يكن يطعن في معظم الناس قبله، حتى إنك تجد أنه لم يتكلم في البوصيري، لم يتكلم في ابن الفارض، لم يتكلم في البدوي، لم يتكلم في الكواز، لم يتكلم في العيدروس، لا تجد كلامًا في هؤلاء، مع أنه ذكر أن ما اشتمل عليه كلامهم فيه، وفيه، لكن الكلام هل هم كانوا صالحين أم كانوا كذا؟ أو ليسوا بكذا؟ هذا ليس من منهج الدعوة، وهذا دعا إلى القبول، دعاها إلى الانتشار؛ لأنه ما تعرض لما تتعصب له

النفوس بالباطل، وهو الطعن في المقدمين، حتى أنه سئل مرة، فقيل له: إنك تقول: (إن الناس منذ أربعمائة سنة ليسوا على شيء، أو أنهم كفار، فقال في جوابه: (**أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم**)، حتى لما أتت مسألة البحث في القبة الموجودة على حجرة النبي ﷺ التي في وسطها قبر النبي ﷺ، هو كان ينكر البناء على القبور: بناء القباب، والقباب التي على قبور الصالحين يهدمها؛ لأنه لا يجوز ذلك، وهو وسيلة من وسائل تعظيمها إلى آخره.

والنبي ﷺ بعث عليًا رضي الله عنه أن لا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه «**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»(١) مشرف يعني: فيه علو، لكن لما قالوا له: القبة التي على حجرة النبي ﷺ إنك تقول: لو أقدر عليها لهدمتها، فقال: **سبحانك هذا بهتان عظيم**(٢)؛ ولهذا أفتى من جهة عملية، وعلماء

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) انظر: الدرر السنية (١/ ٣٣) (بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم، قد وصلت إليكم، وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم، والله يعلم أن الرجل افترى عليّ أمورًا لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالي، فمنها، قوله: إني مبطل كتب المذاهب الأربعة؛ وإني أقول: أن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء؛ وإني أدعي الاجتهاد وإني خارج عن التقليد، وإني أقول إن اختلاف العلماء نقمة؛ وإني أكفر من توسل بالصالحين؛ وإني أكفر البوصيري، لقوله: يا أكرم الخلق؛ وإني أقول: لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها؛ ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها، وجعلت لها ميزابًا من خشب؛ وإني أُحرم زيارة قبر النبي ﷺ وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما؛ وإني أكفر من خلف بغير الله؛ وإني أكفر ابن الفارض، وابن عربي؛ وإني أحرق دلائل الخيرات، وروض الرياحين، وأسميه روض الشياطين. جوابي عن هذه المسائل، أن أقول: سبحانك هذا ببهتان عظيم...).

الدعوة والولاة من آل سعود من الدولة السعودية الأولى إلى أنها لا تتعرض لشيء؛ وذلك لأن هذا من مصلحة الدعوة، ولئلا يفضي إلى ما هو أشد من رد التوحيد، والتعرض إلى أننا لا نحب النبي ﷺ وننتقصه، بل نهين النبي ﷺ، إنما هذه وسيلة من وسائل الشرك والتعظيم، فيمنع الشرك، وتمنع وسائله في أن يحصل شيء عند ذلك، والأمور تترك لرعاية المصالح والمفاسد في ذلك، أيضًا لما قيل له: إنك تكفر من عند قبة البدوي والكواز قال: **(أنا لا أكفر من عند قبة البدوي والكواز؛ لعدم وجود من ينبههم)**[1]، وهنا خاض قوم من المعاصرين خوضًا سيئًا في منهج الدعوة: هل كان علماء الدعوة - الشيخ محمد، وأئمة الدعوة - هل كانوا يعذرون بالجهل، أو لا يعذرون بالجهل، ونحو ذلك من الألفاظ؟ هذه مسألة لم تكن أصلًا عندهم بهذا اللفظ (نعذره بالجهل، أو لا نعذره)، وإنما كانت المسألة مرتبطة بأصل شرعي آخر، وهو: هل بلغته الحجة أو لم تبلغه الحجة؟ والحجة المناسبة وغير المناسبة، وهنا نستطرد فنقول: لم يجعل - أيضًا - علماء الدعوة في قيام الحجة وفهم الحجة لم يجعلوا المسألة واحدة، يعني أن كل مسائل التوحيد بنفس النسق، كلها بنفس الحجة، كلها بنفس البيان، لا تختلف، فهناك مسائل أعظم من مسائل في مسألة إقامة الحجة، قالوا: أما الاستغاثة بغير الله، فهي واضحة، والحجة فيها بينة قاطعة للخصم. وهناك مسائل قد يقع في إقامة الحجة فيها نوع اشتباه، فتحتاج إلى تكرار وبيان، مثل: مسألة الشفاعة، فالمسألة إذًا لا تستوي، فلا بد أن ينزل الأشخاص، وتنزل المسائل في موضعها، وأن لا يتعرض لأشخاص مضوا

---

(١) سبق عزوه (ص ١٧٣).

وانتهوا، أما رؤوس الضلالة في زمنه، فقد واجههم، وفضحهم، أما من مات وانتهى، وصار له معظمون. . . إلى آخره، فإن هذا يبين لهم الدعوة، ولا يتعرض للأشخاص، فهذه مسألة تحتاج إلى تفرس وعناية؛ لأن الواقع فيها اليوم قد يخالف ما كانوا عليه.

المعلم الخامس من معالم منهج الإمام ﷺ في تقرير العقيدة: أنه ﷺ كان يحمل العقيدة حملًا كاملًا على منهج السلف الصالح، فحملها في أبواب أركان الإيمان، توحيد الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته وفي الإيمان بالكتاب، وعدم تأويل الصفات، وتقرير ما قرره السلف، وعدم الدخول في الغيبيات بما ينفي عنها ظاهرها، ودخل - أيضًا - في مناهج في ما يسميه بعضهم المنهج، أو التعامل، دخل فيه على نحو ما كان عليه السلف الصالح، فقرر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشره بالطريقة الشرعية على ما توجبه الشريعة، دون غلو فيه، ودون تفريط، وقرر طاعة ولاة الأمور في ذلك، والسمع لهم والطاعة فيما لم يأمروا فيه بمعصية، والجهاد معهم ونصرة ذلك، وقرر المنهج في التعامل مع المخالف من المشركين والمبتدعة فكان له في كل مسألة الكلام الأوفى والتقرير البين، فتجد ليونته ورحمته في مسألة، وتجد قوته وشدته في مساكنة المشركين والنوم معهم وتكثير سواد المشركين في أي مكان، فنوع التعامل مشى فيه على ما دلت عليه النصوص، دون أهواء، أو نظر إلى ما لم يدل عليه الدليل، أو لم يكن عليه منهج للسلف الصالح، كذلك في مسائل السلوك والأخلاق، بعض الدعوات لم تؤثر العقيدة في سلوكهم، كانت العقيدة عندهم اسمًا.

نرجع إلى المعلم الخامس، وهو: أثر العقيدة أو المنهج في الاعتقاد

عند الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في تربية الناس من طلبة العلم ومن غيرهم، بل جميع الناس على السلوك الحسن والتعبد لله عَزَّوَجَلَّ، أقول: السلوك على المصطلح عند العلماء أنه يعنى بالسلوك ما يعمله العبد في سلوكه مع ربه عَزَّوَجَلَّ ومع الخلق، هناك دعوات تهتم بالعقيدة، لكن تجد أن العقيدة لا تؤثر في أصحابها من جهة التعبد، فيكونون ضعيفين في التعبد، حتى في الواجبات ربما كان إهمال، أو في التطوعات من باب أولى، أو كان هناك تساهل في السلوك فيما يتعلق برحمة الخلق والتعامل معهم، مع الوالدين، مع الأسرة، مع الأبناء، مع الزوجة، مع. . . إلى آخره.

وهذا خلاف أثر الاعتقاد الصحيح، لماذا؟ لأن حقيقة الاعتقاد أنه إيمان بالله، وبكتبه، وبالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه إيمان باليوم الآخر، فمن كان عنده إيمان بالله وما يستحقه عَزَّوَجَلَّ، وعنده إيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء به، وعنده إيمان بالقرآن وتطبيق لذلك، وعنده إيمان باليوم الآخر، وخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بد أن يؤثر هذا في سلوكه في:

أولًا: حرصه على عبادته لربه عَزَّوَجَلَّ.

وثانيًا: في حسن تعامله مع إخوانه والخلق.

ولهذا تجد أن العقيدة التي دعا إليها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ نقلت الناس - في نجد بالذات - إلى أنهم كانوا أكثر تعبدًا، أكثر إعمارًا للمساجد: العمارة المعنوية، والتبكير للصلوات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والبذل، فكان طالب العلم من طلبة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول له: نريد أن تكون في منطقة كذا، أبعد منطقة في القضاء، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، أو في الدعوة أو ما شابه ذلك، فيذهب؛ لأن عندهم الرغبة. العقيدة في تقريرها لها سمت يغلب على صاحبه في تعبده وفي سلوكه، وفي أنواع تعامله، وهذا مهم جدًا اليوم في كل دعوة تدعو إلى التوحيد، أما أن يكون طائفة ممن يهتمون بالعقيدة، أو يهتمون بالتوحيد، أو نحو ذلك، عندهم جفاء في تعاملهم، أو في سلوكهم، أو عندهم ضعف في التعبد، وتفريط في حق الله ﷻ، أو غشيان للذنوب والمعاصي، ويقول: أنا أدعو للتوحيد، أو أدعو للعقيدة، فهذا لم يرب على العقيدة الصحيحة، ولم يأخذها بحقها.

إذًا: فالذين يأخذون هذا المنهج ينقلون أنفسهم إلى منهج السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، والسلف الصالح كانوا أسلم الناس عقيدة، وكانوا أسلم الناس منهجًا بأنواع التعامل، وكانوا أسلم الناس سلوكًا في السلوك والتعبد، تركوا تفريط المفرطين، وأيضًا تركوا غلو الصوفية والذين تبتلوا إلى آخره فخالفوا السنة، وإنما أخذوا بالنهج الوسط، وهذا من ثمرات منهج تعليم العقيدة.

المعلم السادس في ذلك هو: أن تقرير التوحيد عند الإمام رحمه الله تقرير العقيدة كان ظاهرًا أتم ظهور في الحض والدعوة إلى الاتباع لسنة النبي ﷺ، الاتباع للسنة من حيث الأخذ بها، والاستدلال بها في العلميات، الاتباع للسنة من حيث العمل في العمليات، الاتباع للسنة في الرجوع بالهدى إلى ما كان عليه السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، فكان منهجه يعلمه العوام.

في المسائل المشتبهة التي تشتبه على كثير من العلماء يكون تقريره لها

أسهل تقرير، فيقول القائل في المسائل مثلًا: في بعض البدع العامي ممن تربوا، وأخذوا عن هذه الدعوة، يسأل في مسألة ما يستحسنها الناس، فقل: هل فعلها النبي ﷺ؟ هل فعلها الصحابة؟ فإذا قالوا: لا.

إذًا الجواب واضح، ولا ندخل في تفصيلات، مثلما دخل فيها طائفة حتى من الأذكياء والعلماء، مثلًا: المولد دخل فيه علماء، بحثوا فيه أكثر من مائة بحث، وكتب فيه كتب، لكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رباهم في اتباع السنة على كلمة واحدة: فعل النبي ﷺ؟ نعم فعل، نفعله. لم يفعل، لا نفعل. وهذه الوجازة في الأسلوب في الدعوة إلى السنة سهلة، وتقبلها الفطرة من أي فرد كان.

وإذا أتت عليها معارضة لكن تبقى في الفطرة مؤثرة، ما فعلها النبي ﷺ مثل: هذه الليلة - ليلة النصف من شعبان -، طائفة من الناس يحيون هذه الليلة، إما بحفلة، وإما باجتماع على عبادة، وإما بشد الرحل إلى مكان ليكون فيه كذا كذا، ويصومون، ويخصصون هذه الليلة بقيام واجتماع وحفل، هنا يسأل السائل: هل فعل النبي ﷺ أو لم يفعل؟ إذا قال: فعل. نفعل، وإذا قال: لا، لم يفعل، فإذًا هنا منهج تعليم الناس للسنة والبدعة لم يتبع فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ المنهج المعقد في تعريف البدع، وفي الأخذ بها، وإنما المسألة واضحة جدًا فيما علَّم الناس فيها؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كشف الشبهات: والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، لماذا؟ لأن معه الحق القليل الواضح، الذي لا يستطيع أن يجادل معه خصم.

فمنهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدعوة إلى الاتباع والاهتمام بالسنة، فالسنة في التعليم والتعلم، نجد في ذلك الوقت كان لا يوجد عند أحد في نجد قاطبة، لا يوجد

عند أحد نسخة كاملة من كتاب البخاري، وإنما يوجد أجزاء عند هذا، وجزء عند هذا، وجزء عند هذا... إلى آخره، وقد لا تكون وجدت مكتملة إلا لمن رحل للشام، وجاء بنسخة مكتملة، لكن طلبة العلم لا يعرفونه، وإنما عندهم مذهب، عندهم كتاب في مذهب ما: الحنبلي عنده كتاب في المذهب الحنبلي، والشافعي عنده كتاب في المذهب الشافعي... إلى آخره، فأحيا اتباع السنة والبحث عن الدليل، والحرص على ذلك في المسائل العلمية وفي المسائل العملية، ولكنه في ذلك لم يكن غاليًا، وبعض من أخذ بدعوته غلا في مسألة الدليل، وفي مسألة الاتباع، حتى خرج بها عن نهج السلف الصالح الوسط في هذه المسائل، حتى أبطل أو هجر، الأخذ أصلًا من كتب الفقه، قال: أصلًا هذه كتب الفقه كتب باطلة، وبلغ بهم إلى أنه لا يؤخذ العلم إلا من كتب السنة ونحو ذلك، خالفوا به منهج العلماء.

فإذًا: منهجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير العقيدة الاهتمام بالسنة القولية والعلمية، وتعليم الناس ذلك، وفي العلمية - أيضًا - حض الناس على الحرص على السنة تعلمًا، فشاعت كتب السنة في نجد، وتعلم الناس ذلك، وشرحت لهم كتب السنة بما لم يكن من قبل، لكن مع الاهتمام بكتب الفقه، والاهتمام بما قرره العلماء، دون غلو في ذلك.

في مسألة من المسائل سئل عنها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمهم الله تعالى جميعًا -، وهي مسألة الحاج إذا رمى جمرة العقبة، وقصر أو حلق، ثم لم يطف ذلك اليوم، لم يطف طواف الإفاضة ذلك اليوم. هل يرجع ويطوف في إحرامه، أم أنه يتحلل، ويبقى متحللًا، حتى يطوف، ولو بعد عدة أيام؟

هناك من أهل العلم من قال: يرجع إلى إحرامه إذا مضى عليه غروب الشمس، ثم بعد الغروب - يعني غروب الشمس - ولم يطف يرجع الإحرام إلى آخره، يرجع محرمًا كما كان إلى آخره، سئل عنها الشيخ عبد الله بن محمد، وفيها دليل، وهو حديث أم سلمة المعروف في سنن أبي داود(١)، فقال الإمام عبد الله(٢): هذا الحديث إسناده جيد، وقد قواه فلان إلى آخره، لكننا لم نتجاسر على العمل به؛ لأننا لا نعلم أحدًا من الأئمة عمل به، ولا يمكن أن تكون هناك مسألة في السنة لا يعمل بها الإمام أحمد، ولا مالك، ولا الشافعي، ولا يعمل بها أبو حنيفة، ولا يعمل بها سفيان، ولا يعمل بها الأوزاعي، ولا يعمل بها الليث، ولا يعمل إسحق، هذا فيه غرابة، كيف تمضي سنة على الصحابة لا يعملون بها؟! والأئمة - أيضًا -، فيقول: الحديث نعم ثابت، وظاهر الإسناد الصحة، وفيه بحث في متنه: هل هو شاذ، أو منكر. . . إلى آخره، ومعروف عند أهل العلم، لكنه لم يعمل به أئمة الإسلام، فقال: لم نتجاسر على العمل به.

وهذه مسألة مهمة اليوم في منهج اتباع السنة في الدليل. هل نأتي نستدل على مسألة بفهم نفهمه، أو بشيء دل عليه الدليل، لكن لم يعمل به أئمة

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٩٩)، وابن خزيمة (٢٩٥٨)، وأحمد (٦/ ٢٥٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها: «. . . **فَإِذَا أَمْسَيْتُمْ قَبْلَ أَنْ تَطُوفُوا هَذَا الْبَيْتَ صِرْتُمْ حُرُمًا كَهَيْئَتِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطُوفُوا بِهِ**».

(٢) انظر: الدرر السنية (٥/ ٣٨٧)، **(نحن ما جسرنا على الفتيا به؛ لأجل أنه خلاف أقوال العلماء من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم وهو ما روت أم سلمة. . . . . رواه أبو داود بإسناد صحيح؛ قال البيهقي: لا أعلم أحدًا من القدماء قال به).**

الإسلام؟ نحن نتبع منهج السلف الصالح، نتبع أئمة الإسلام، فإذا أتى في مسألة، نقول: الأئمة لم يعملوا بها، إذًا كيف نعمل بها؟ أوفى مسألة الأئمة عملوا بها، نقول: هي بدعة. وأئمة الإسلام عملوا بها؟

لذلك لما أتى الإمام المصلح في مسألة ختم القرآن - دعاء الختم في الصلاة -، نظر فيها، فوجد أن أئمة الإسلام يقولون بها، ويفعلونها - سفيان، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد رحمهم الله -، بل حض عليها، وقال: (**لا تجعل دعاء الختم في قنوت الوتر، اجعل لنا دعاءين**) - يعني دعاء الختم بعد الفراغ من القراءة -، وقال بها - أيضًا - ابن تيمية وابن القيم، ثم يأتي قائل يقول: لا، هذه بدعة. إذًا ماذا نفعل بصنيع الأئمة جميعًا؟ هناك من يغلو في الاتباع، فيفسر الأشياء بحسب ما ظهر له، حتى لو خالف الأئمة، يقول: لو الأئمة كلهم خالفوا المسألة، إذا كان هذا من طريقتهم، وأخذوا بذلك، وقالوه، فمخالفتهم في ذلك خروج عن الصراط، لماذا؟ لأنه لا يتصور في مسألة فيها ظهور أنها بدعة أو خلاف السنة، ويتتابع عليها أئمة الإسلام في قرون متعددة، ولا يفعلونها، بخلاف البدع التي يعملها أهل البدع، فإن أئمة الإسلام ينكرونها، حتى ولو تتابع الناس عليها، لكن تتابعوا مع إنكار المنكر، وهنا تتابعوا مع عدم الإنكار، فدل هذا على أن لها اعتبارًا، سيما وأنه قد نص عليها من نص عليها من الأئمة، فتجد أنه لم ينكر هذه، ومشى فيها، وعليه أئمة الدعوة - كما تعلمون - إلى وقتنا الحاضر، وهكذا في مسائل أخرى.

إذًا فالأخذ بالدليل في هذه المسائل من منهجه رحمه الله أن يؤخذ بالدليل في مسائل العقيدة، ولكن مسائل العقيدة لا مدخل فيها للعقليات، إذا جاء نص

من الكتاب أو من السنة، فإنه هو الحجة في هذا الباب، لكن نأخذ فيه بفهم السلف الصالح، في بعض الأحاديث فيها ذكر لصفة من الصفات، لكن هل تطلق الصفة أو لا تطلق؟ أو في آية هل تطلق الصفة أو لا تطلق؟ لا بد أن ننظر فهم السلف الصالح، ولا يأتي أحد يقول: أنا أفهم من الدليل إثبات كذا، إذًا فهم من سبق أين هو؟

لا بد أن يدعم الفهم بفهم من سبق من أئمة الإسلام؛ لأنهم - بالاتفاق - كانوا على الحق المبين.

المعلم الأخير من معالم منهجه في تقرير العقيدة: أنه - رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن سلك سبيله بعده في ذلك - اعتنى بالرد التفصيلي على من خالف العقيدة في مسألة، أو في أصل التوحيد والاعتقاد، ولأئمة الدعوة - كما تعلمون - الردود الكثيرة، فالرد على المخالف في مسائل التوحيد هذا فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: إنكار المنكر.

والفائدة الثانية: في تقرير الحق، وبيان المحجة، وإقامة الحجة؛ لهذا اهتموا بأنه من يهاجم الدعوة - دعوة الإسلام أو دعوة التوحيد - ومثلًا يحسن عبادة الأولياء، أو يحسن الذهاب إلى المشاهد، أو الاستغاثة بالصالحين، أو نحو ذلك - يعني: من الأموات - ردوا عليه، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأئمة الدعوة - أيضًا - ردوا على كل من خالف الدعوة في هذا، ولكن الرد يكون بعلم وبحلم، الرد يكون بعلم وبحلم، ولا يكون الرد خاليًا من العلم، وفيه قوة في الألفاظ، فيفهم منه المقابل أنك لست قويًا في الحجة، وإنما عندك نزاع، وشدة في الكلام . . . إلى آخره، وتتهجم دون قوة في الحجة

والبيان. . . ، فكانوا أقوياء في ردودهم، والردود مهمة، الردود مهمة في تبيين ما عليه تبيين الملة، وتبيين الحق، إذا تبينت هذه المعالم، فنمر مرورًا سريعًا على بعض كتب الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، ونأخذ أمثلة، أو بيان معالم هذا المنهج في هذه الكتب، وأشهر الكتب كتاب التوحيد، ظاهر فيه المنهج.

أولًا: في تقرير التوحيد في الكتاب والسنة.

الثاني: في أنه رعى إجماع السلف، حتى لما أتت مسألة التمائم من القرآن، قال: وأما إذا كانت التمائم من القرآن، فقد إلى آخره، فذكر فيها: قد رخص فيها جماعة[1]. . . إلى آخره، هنا راعى ما اتفقوا عليه، وراعى أيضًا ما اختلفوا فيه.

الثالث: ننظر في كتاب التوحيد إلى أنه قرر الأولويات فيما قرره في المسائل، بيَّن أن أول ما يدعى إليه التوحيد، وأنه أهم من الفرائض، وبيَّن كيف يعامل المخالف.

أيضًا فيما ذكره في المسائل إذا أخذت كتاب ثلاثة الأصول مثلًا، أو الأصول الثلاثة وأدلتها، يعني: ثم كتابان، كتاب سهل تعليم العقيدة للعامة قد يسمى الأصول الثلاثة، أو ثلاثة الأصول، والكتاب الكبير المعروف ثلاثة الأصول وأدلتها أو الأصول الثلاثة وأدلتها.

تجد أن هذا الكتاب مبني على شرح ما يهم المتعلم المبتدئ في بيان واجب العلم، وواجب العمل، وواجب الدعوة، وواجب الصبر، وفي بيان أصول الدين الثلاثة: معرفة العبد ربه ﷻ، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة

(١) انظر: فتح المجيد (ص١٢٠).

العبد نبيه ﷺ، وأوضح ذلك باختصار، كل مسألة بدليلها، وهنا ننبه تنبيهًا في هذا الكتاب إلى أن بعض الناس قالوا: الشيخ في قوله: أنه يؤخذ دين الإسلام بالأدلة، أن هذا وافق فيه المعتزلة؛ كما قال بعض طلبة العلم عندنا، وهذا غلط كبير على الشيخ رحمه الله.

المعتزلة ومن نحا نحوهم في المنهج العقلي لا يصح عندهم الإسلام إلا بالدليل العقلي، يعني بمعنى لا بد أن يثبت الدليل العقلي: إما بالنظر عندهم، وبتحرٍ، . . . إلى آخره، والدليل عندهم هنا: النظر في الكونيات، أو النظر في النفس. أما أئمة الإسلام، أما علماء السلف، فهنا ينظرون إلى معرفة دين الإسلام بالدليل الشرعي، يعني: من الكتاب والسنة، ليس من الدليل العقلي.

المعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم والأشاعرة عندهم الدليل العقلي، أول واجب عندهم هو: النظر، أو القصد للنظر، أو الشك - على أقوال عندهم في ذلك - بمعنى النظر في الملكوت، حتى تثبت بالعقل أن الله ﷻ واحد في خلقه، وأنه هو الذي يعبد بالعقل، لكن عندنا ليس الأمر كذلك، وإنما هو بالدليل الشرعي، يعني: أن يعرف الدليل على هذه المسألة؛ لذلك مثلًا: إذا أتى لمسألة من المسائل، يقول: وأما النذر، فدليله قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، كذلك: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠] كتاب فضل الإسلام: كل كتب الشيخ يسيرة، أوراقها قليلة، لكن منهجها واضح، وهي تصلح للجميع في التعريف على المنهج، فضل الإسلام كتاب في منهج الاتباع، منهج السلوك، منهج العمل، منهج التسمية، الموقف من البدع، وذم البدع

والابتداع وأهله، حتى في مسائل المسميات تكلم عنها رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب؛ لأجل أن لا يظن الظان أنه يدعو إلى أن يسمى هو باسم خاص، مثل: ما فعل الظلمة، فسموا الشيخ وأتباعه بالوهابيين، هذه تسمية لا نقرها؛ لأننا إنما نتبع السلف الصالح، إذا جاءت المسألة من جهة العقيدة، فنحن سلفيون نتبع السلف الصالح مع أهل السنة والجماعة، وفي مسألة الفروع نقول: نحن حنابلة، أما إحداث هذه التسمية، فهذا يراد منه الصد عن الحق، وهي تسميات باطلة؛ لأن المقصود منها معروف، جاء الشيخ في كتاب فضل الإسلام بالدليل من الكتاب أو السنة، ثم بعض كلام السلف من الصحابة في هذه المسائل.

إذا أخذت - مثلًا - كتاب مسائل الجاهلية، وجدت أنه رَحِمَهُ اللَّهُ عدد مسائل خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، لماذا؟ لأن الضد - كما ذكر في أوله - لأن الضد لا يظهر حسنه إلا بضده؛ كما يقال:

والضدّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِدُّ وبضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأَشْياءُ[1]

وهذا صحيح؛ لأنك تعلم من هذا الكتاب ما كان عليه أهل الجاهلية، وما أمر به الله ﷻ في كتابه أو جاء في السنة لمخالفة أهل الجاهلية في أعظم شيء، في عبادة الله وحده دونما سواه، وما كان عليه أهل الجاهلية في ذلك في الاتباع في كل المسائل التي كانوا عليها: سواء في التوحيد، أو في مسائل العمل والسلوك، فكان من منهجه هنا في هذا الكتاب أنه قرر العقيدة

---

(١) انظر: مسائل الجاهلية (ص٥)، ولشيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله- شرح ممتع على هذا الكتاب، عجل الله بطبعه.

- طبعًا - بالكتاب والسنة، لكن قرر العقيدة بمعرفة الضد؛ لأنه كيف تتصور ما جاء به الإسلام إلا بمعرفة ما كان عليه أهل الجاهلية؟

وقد قال بعض السلف: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**»(١)، وإذا لم تعرف الجاهلية كيف كانت، وكيف نقل النبي ﷺ الناس من الجاهلية إلى الإسلام، إذًا لن تتعرف إلى الأحوال المشابهة لأحوال الجاهلية، وتظن أن كل شيء جائز في الإسلام.

الذين علقوا الصور - صور المعظمين -، والذين عبدوا غير الله ﷻ، وبنوا القباب على الكنائس وعلى القبور، وجعلوها معابد، هذا كان عليه أهل الجاهلية، فحذر منها النبي ﷺ.

إذا أتى آت اليوم، وقال: لا، هذا شيء طيب.

إذًا إذا عُرف التاريخ، وما كان عليه، وما يقابله، فإنه حينئذٍ تتبين له دلالات النصوص، وكيف يوقع النص على الواقع، أو كيف ينزل النص على الواقع.

هذه كلمات موجزة في هذا الباب، تفتح آفاقًا دعوية في فهم دعوة الإمام المصلح، والمنهج إذ ذاك في تقرير هذه العقيدة والتوحيد.

ولا شك أننا نرى أن هذه الدعوة بفضل الله ﷻ ورحمته ومنته وعونه أنها تنتشر، وتنتشر، فاليوم لا تكاد تذهب إلى بلد إلا وتجد فيه طائفة ينافحون عن

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١)، ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٣٩٨)، ومدارج السالكين (١/ ٣٤٣)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذه الدعوة، ويدعون إلى ما كان عليه السلف الصالح، ويقررونها في ذلك، لكن الواجب عليهم زيادة العلم، وزيادة تعرف هَدْي العلماء، وما كانوا يسيرون عليه في طريقة تقريرهم في التوحيد والعقيدة والسلوك؛ لنكون شبيهين أو مشابهين لمن سلفنا، فكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

أسأل الله ﷻ أن يرفع درجة الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب في أعلى الجنان، وأن يجزيه عنا خير ما جزى به مصلحًا مخلصًا عن إصلاحه، وداعية عن دعوته، وأسأله سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع ممن يسيرون على منهاج هذه الدعوة إلى تحري الحق والنظر فيه، وعدم التسرع في ذلك؛ إنه سبحانه وتعالى جواد كريم، وبالإجابة جدير، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

محاضرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم دعوته وحياته رَحِمَهُ اللَّهُ وأجزل له المثوبة والمغفرة محاضرة في مكة المكرمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضل إلى الهدى، ويبصرونهم من العمى، ويحيون بكتاب الله الموتى.

فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد المجتبى الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة: . . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وإنه لمما يفرح أعظم الفرح أن يكون الحديث متواصلًا عن العلماء؛ تبصيرًا بسيرهم، وتعريفًا بحياتهم، وتذكيرًا بما كان لهم من فضائل؛ بما

أنتج الأثر العظيم الذي يعيشه أهل العلم متواصلًا بجهد وجهاد من كان قبلهم.

وإن هذا الأمر - أعني: نشر تراجم العلماء، والتذكير بفضائلهم، والتعريف بسير حياتهم، وجهادهم وما بذلوه - لمما يكون له الأثر الأكبر في الأمة؛ لأن الأمة إن لم يتصل حاضرها بماضيها، وإن لم يقتد شبابها بكهولها العلماء منهم، وإن لم يتصل أولئك بخبر من تقدم، فبمن يتصلون؟ وعمَّن يأخذون؟ وبمن يقتدون؟

لا شك أن اقتفاء سير من كان قبلنا من أهل العلم الذين قد شهد لهم بالتحقيق، وشهد لهم بالإمامة في السنة، وعرفوا بنقل العلم صافيًا عن السلف الأول، لاشك أن معرفة أخبارهم، ومعرفة سيرهم، وما بذلوه، لاشك أن ذلك سيعقبه الأثر في نفوس الناشئة؛ لأننا نجد أن كثيرًا من الناشئة اليوم لا يعلمون أخبار من مضى، لا يعلمون أخبار علمائهم، ويظنون أن الإسلام الصحيح وأن التوحيد الذي ينعمون به، وأن هذا الخير الذي يرفلون فيه وبه يظنون أنه وصلهم بدون جهاد أئمة مضوا، وبدون علم ونشر للعلم والسنة من أناس قد تقدموهم، فإن لم يعرفوا أولئك، فبماذا يكون اقتداؤهم؟

لاشك أننا في هذه البلاد قد سبقنا بأئمة دعوةٍ وإصلاح نشروا العلم، ونشروا الحق، ودعوا إلى التوحيد؛ فلهذا جاءت هذه السلسلة التي أرجو من الله ﷻ وأسأله أن يجعلها مباركة في جميعها، وأن يكون الشباب يعرفون ما وراء تلك السلسلة من أن يكتفوا بعلمائهم، يكتفوا بمن كان في هذه البلاد

من علماء السنة؛ لأنهم حققوا نصرًا للإسلام فيما مضى، وإذا أخذت الركبة بالركبة توصلنا إلى نصر للإسلام فيما بقي.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا منتفعين بما سنسمع وبما يقال، وأن نكون على يقظة وبصيرة من ذلك.

إن سلسلة تراجم أهل العلم الذين ستعرض تراجمهم في هذه السلسلة، بدأت تلك السلسلة بترجمة الإمام العلامة الشيخ/ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الإمام محمد بن عبد الوهاب[(١)] - رحمهم الله تعالى أجمعين -.

هذا الإمام العلم أخباره لا تفي بها هذه العجالة، لا يفي بها محاضرة، ولا يفي بها أكثر من محاضرة، ولكن يفي بها أن يتواصل الناس بالحديث عن ذلك العَلَم، وهذا أمر له مبرراته؛ وذلك لأن هذا الإمام - أعني: العلامة الشيخ، شيخ المشايخ، وعلم المحققين في هذا الزمان المتأخر، الشيخ محمد بن إبراهيم - كان أمة في قلب رجل واحد.

إذا نظرت إلى القضاء بما فيه بمدارسه المختلفة وبمشكلاته، كان هو الذي يرعاه بمشاكله، ويحل عويص مسائله، ويرشد القضاة الصغار منهم والكبار.

إذا نظرت إلى الفتوى وتأصيلاتها في هذه البلاد، وجدت مرجعها إليه.

---

(١) انظر: علماء نجد خلال ستة قرون (١/ ١٢٥ - ١٦٨)، مشاهير علماء نجد (٢/ ١٣٤)، وفتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٩).

إذا نظرت إلى العلم الذي نشر وينشر اليوم من قبل تلامذة الشيخ، وجدت أن الذي أمسك بزمامه قرابة نصف قرن من الزمان هو: الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذا نظرت إلى إصلاح الأمة، ومجاهدة أهل المنكرات، ونشر الفضائل، ونشر الخير في الناس والدعوة، وجدت أن الذي كان يرعاها نصف قرن من الزمان هو: الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهكذا في جوانب كثيرة.

إذًا فليس من الإنصاف في حق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تفرد له محاضرة، هل نعرف الناس بحياته الشخصية، التي هي مهمة في التعريف بتراجم العلماء؟

أم نعرف الناس بمواقفه؟

أم نعرف الناس بمدرسته في القضاء؟

أم بمدرسته في الفتوى؟

أم بمدرسته في الفقه؟

أم بمدرسته في الدعوة؟

أم بمدرسته في جهاد المنكرات؟

أم بمدرسته في كيف يكون التعامل السلفي الصحيح مع ولاة الأمر؟

أم كيف وبم نعرف الناس؟

لا شك أن هذا يحتاج إلى محاضرات متصلة الواحدة تلو الأخرى؛ حتى تأخذ طرفًا من حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لهذا سأجعل هذه المحاضرة كنبذة موجزة مختصرة عن حياته؛ تعريفًا للشباب الناشئة بحياة ذلك الإمام الجهبذ - رحمه الله رحمة واسعة -.

مولده ونشأته وأسرته:

ولد الشيخ رحمه الله في مدينة الرياض في حي دخنة المعروف، سنة إحدى عشر وثلاثمائة وألف، وأخواله من أسرة الهلالي المعروفة، أسرة تسكن عرقة، نشأ رحمه الله في بيت علم ومجتمع عبادة.

أبوه وأعمامه أهل علم ودعوة وجهاد، وصف ذلك الشيخ عبد الله بن بسام رحمه الله - لأني أحرج كثيرًا أن يكون الوصف عن حياته من قِبَلي في كل حال، لكن شهد بذلك تلامذته، والأمر كالشمس ظهورًا، ولكن أعزو هذه الأقوال إلى من قالها من أهل العلم الذين شهدوه، ولهم في زمننا هذا المقام الذي لا يجهل - وصفه الشيخ عبد الله بن بسام رحمه الله بقوله: كان مولده في بيت علم وفضل وزعامة دينية، نشأ على عادة أهله وآبائه محبًا للعلم، طموحًا إلى الفضل، وينشأ الناشئ يقتبس من أخلاق وأوصاف من حوله، فوالد الشيخ هو الشيخ الورع إبراهيم بن عبد اللطيف قاضي مدينة الرياض، وله رسائل وفتاوى، كان رحمه الله - يعني: الشيخ إبراهيم - متميزًا بالعدل الظاهر في قضائه ومعاملة الخصوم، وكان من أهل الصدع بالحق، وكان ممن لا يدارون، وله في هذا أحوال وقصص، وكان ناظمًا للشعر مجيدًا له؛ كأبيه عبد اللطيف.

وأما أعمام الشيخ محمد، فأكبرهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، عالم نجد بعد أبيه، وقائدها وكريمها، بهر الرجال بحنكته وعقله، وأدهشهم

بعلمه وفضله، خشي منه أمراء المدن والأقاليم الذين عقبوا آل سعود فيما بين الدولتين السعودية الثانية والثالثة، فأظهروا محبة تارة، وأضافوه في بلادهم وأكرموه، ثم خشوا منه؛ لأنه ما حل ببلد ولا قرية إلا نشر دعوة التوحيد والعلم النافع، فيكثر المتأثرون به وبعلمه. كلام الشيخ عبد الله بن بسام انتهى قبل جمل؛ لأنه ما حل ببلدة ولا قرية إلا كان صاحب دعوة، نشر دعوة التوحيد، ونشر العلم النافع في البلد التي يحل بها.

وهكذا يكون أهل العلم، لا يفرحون بالعزلة، وإنما يفرحون بأن يوجهوا الناس، وبأن يختلطوا بهم؛ حتى يؤثروا فيهم؛ لأن العالم الحق همه أن يوجه الناس إلى دين الله، خاصة أصل الدين، أعني توحيد الله ﷻ.

رجع بعد ذلك الشيخ عبد الله إلى الرياض، ثم لما قدم الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرياض، كان سنده وعضده بعقل وحكمة، بل إن كثيرًا من جند الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانوا من المتأثرين بالشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، الذين كانوا يحضرون دروسه رحمه الله رحمة واسعة.

كذلك بقية أعمام المترجم له كانوا أهل علم وفضل؛ كالمشايخ: محمد ابن عبد اللطيف، وعبد الرحمن، وعمر، وعبد العزيز، ولهم أخبار وأحوال كالعبير رحيقًا، وصفهم الواصفون بنعوت أشبهوا بها الأوائل سمتًا، وهديًا وعبادة، وصلاحًا، وعلمًا رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

إذًا نشأ الشيخ في هذه الأسرة، فلا غرو أن أثرت عليه، لا غرو أن نهل، واحتذى حذو أسرته، فتوجه من أثر هذه البيئة، ومن أثر هذا المجتمع الذي

حوله إلى العلم، قابسًا من عقل ذوي العقل، قابسًا من تقى ذوي التقى، قابسًا من غيرة ذوي الغيرة، وكلهم ذاك الرجل، فطلب العلم على قاعدة الدين والعمل والعقل والغيرة لله، فكان ذلك معلمًا بارزًا لنبوغه وتهيئته للقيادة والريادة، التي ظهرت فيما بعد رَحِمَهُ اللَّهُ.

لما بلغ الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ السابعة من العمر - أي: سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف - شرع يتعلم القرآن بتجويده، نظرًا على المقرئ ذي الصوت العذب المؤثر عبد الرحمن بن مفيريج رَحِمَهُ اللَّهُ، فأجاده نظرًا، ثم ابتدأ حفظه في سن الحادية عشرة، وتعلم الكتابة، وكان آنذاك مبصرًا، وكتابته في صغره حسنة على أصولها؛ كما ينبئ عن ذلك ورقة وجدت فيها كتابته رَحِمَهُ اللَّهُ.

بعد هذا الأساس الأول - أعني حفظ القرآن - لمن يريد طلب العلم الشرعي بحق لابد أن يبتدئ بحفظ القرآن، فلما حفظ القرآن رَحِمَهُ اللَّهُ شرع يقرأ العلم على مشايخه، فكان أولهم والده الشيخ إبراهيم، قرأ في مختصرات رسائل أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى -.

كان يحفظ المتن، ثم يقرأ على والده، على عادة المشايخ في تلقيهم للعلم، وهكذا العلم النافع يبدأ بقراءة المتون المختصرة؛ لأن المتون المختصرة عنها تتفرع شجرة العلم؛ فهي شجرة أصلها ثابت - أعني: أصل العلم هي تلك المتون -، وعنها يتفرع العلم، ولم يكونوا يبتدئون بقراءة المطولات من الكتب؛ لأن قراءة تلك المطولات لا تعطي العلم الأصيل، العلم المنهجي المؤسس، وإنما يكون العلم بقراءة المتون، وهكذا كان الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأ رسائل أئمة الدعوة، وحفظها، وقرأ نبذ إمام الدعوة

الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وشرح له والده أول الأمر ما يفهم مرامي كلامهم وأصول مسائلهم، وهكذا ينبغي أن يكون التوحيد هو أول ما يتعلمه طالب العلم، ويحرص عليه، ويتنبه له، وإنما يفهم، ويضبط بضبط متونه قبل شروطه؛ إذ من حفظ المتون، حاز الفنون.

كف بصره: لما بلغ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قريبًا من السنة السادسة عشرة من عمره مرض بالرمد في عينيه، وطال معه إلى قرابة سنة، فنتج عنه أن كف بصره - عوضه الله عن ذلك بالجنة -، بعد هذا شرع في تأكيد حفظ القرآن وتثبيته، وتنوعت قراءته على مشايخه؛ كما سيأتي فيما بعد.

وفاة والده: وفي السادس من شهر ذي الحجة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف توفي والده عن عمر يقارب تسعًا وأربعين سنة، إذ مولد الشيخ إبراهيم كان سنة ثمانين ومائتين وألف للهجرة، كان للشيخ إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة أبناء، كبيرهم عبد الله، ولد سنة خمس وثلاثمائة وألف، وتوفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف، ثم محمد، ثم عبد اللطيف، ولد سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف، وتوفي سنة ست وثمانين، ثم عبد الملك، ولد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف، وتوفي سنة أربع وأربعمائة وألف، وكلهم عرف بالعلم والحلم والسداد رحمهم الله تعالى أجمعين.

تعلُّمه: كان سن الشيخ بعد أن توفي والده ثمان عشرة سنة تقريبًا، كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصغار إخوته حانيًا، ومربيًا، ومعلمًا، جد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلك السن المبكرة على طلب العلم، تنقل بين علماء بلده، ولم يكتف بواحد

منهم، بل تتبع العلماء، وأخذ علم كل عالم رآه في بلده، أخذ العلوم الشرعية الأصلية والمساندة، فأخذ عن كل شيخ من مشايخه العلوم التي يدرسها، وبالأخص ما تميز به كل شيخ من العلوم؛ لهذا برع فيما درس لبراعة مشايخه - رحمهم الله -، وذلك لما توفر فيه من حسن استعداده العلمي والفطري.

ففي التوحيد كانت للشيخ محمد ﷺ يد التحقيق العليا، فكان يجلو مسائله بعد ذلك، ويرد على أهل الشبهات، ويبين الحق، فكان لا يقف معه خصم من خصوم التوحيد وأهله، في الفقه رسخت قدمه، في الاجتهاد في العربية وعلومها صار ﷺ معها الشارح لها أحسن شرح، وهكذا في سائر العلوم.

ولا غرو أن كان كذلك؛ إذ أنه تتلمذ لمشايخ برعوا في علومهم، ومن مشايخه: والده الشيخ إبراهيم، وعمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، والشيخ النحوي الفرضي الفقيه حمد بن فارس، والشيخ المحدث الفقيه سعد بن عتيق، والشيخ الفرضي عبد الله بن راشد، والشيخ الفقيه محمد بن محمود، وهؤلاء كانوا من العلماء البارزين في وقتهم، وكان الطلاب ينهلون منهم، ولكن كان الشيخ محمد بن إبراهيم ﷺ هو أبرز التلامذة الذين قرؤوا على أولئك.

قرأ على والده أصول التوحيد - كما ذكرنا -، وقرأ على والده الفرائض، ثم توسع في الفرائض على الشيخ عبد الله بن راشد، فقرأ عليه حفظًا ألفية الفرائض، وهي موجودة مطبوعة مع شرحها، قرأ على عمه - أيضًا - كتبًا كثيرة حفظًا، منها كتب العقائد والتوحيد: ككتاب التوحيد، وكشف

الشبهات، وثلاثة الأصول، ونحوها، وبقية كتب أئمة الدعوة، وقرأ الواسطية والحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وحين يقال: قرأ في عرف المتقدمين، يعني حفظ غالبًا، وفهم ذلك وجوده؛ لأنه عند المتقدمين يقال: فلان قرأ. يعني: حفظ المتن، وقرأه على الشيخ، أما القراءة هكذا نظرًا - كما نراه في هذا الزمن -، فليست مسماة بالقراءة عند المتقدمين.

قرأ في الفقه مختصراته: أولًا على الشيخ حمد بن فارس، فحفظ متن زاد المستنقع، ثم قرأ على الشيخ محمد بن محمود - رحمهم الله تعالى -، ثم على الشيخ سعد بن عتيق - رحمهم الله تعالى -، وكان هؤلاء الثلاثة ممن برعوا في الفقه، وحققوا مسائله، وضبطوا غرائبه.

أما في الحديث، فقد حفظ بلوغ المرام، وحفظ نحوًا من نصف منتقى الأخبار الذي يشمل أكثر من خمسة آلاف من الأحاديث في الفقه للمجد أبي البركات ابن تيمية رحمه الله، وقرأها على عمه الشيخ عبد الله، وكرر قراءة بلوغ المرام على المحدث الشيخ سعد بن عتيق، وأمرَّ عليه في المصطلح ألفية العراقي، وقد أعطى الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله إجازات في الحديث متنوعة، وروى بأسانيده عددًا من الأحاديث إلى رسول الله ﷺ بسماع، لا بإجازة مطلقة.

ولولا خشية الإطالة، لسيق ذلك مفصلًا، وإجازاته في الحديث رويت عنه بالمناولة، واتصل به بإسناد بالمناولة بإجازة عدد من الكتب والأثبات رحمه الله

أما في علوم العربية، فقد حفظ من متونها ما به تثبت القدم، ويرسخ الفهم في علم العربية - أعني: نحوها وتصريفها -، فقرأ: الآجرومية،

وملحة الإعراب، وقطر الندى، وألفية ابن مالك المشهورة، قرأ هذه المتون على العلامة النحوي الحليم المتورع الفقيه الشيخ حمد بن فارس رحمه الله، وقد درس الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله هذه المتون النحوية، وشهد تلامذته ومن رآه شهد له بأنه برَز في ذلك شرحًا واستنباطًا، حتى إنه حصلت له مناقشات مع بعض الأزهريين في الرياض، كان فيها مبرزًا عليهم في النحو والأصول، فاصلًا في المشكل فيما قالوا، وكان الصواب من ذلك مع الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

تفوقه: من ذلك الحكاية المشهورة التي ذكرها لنا عدد من تلامذة الشيخ، قالوا: كان الشيخ محمد حامد الفقي، وهو العالم الشيخ المعروف في مصر، رئيس أنصار السنة المحمدية في مصر، كان مرة في مجلس الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن شلهوب يقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم بين الأذان والإقامة للعشاء، يقرأ عليه في تفسير ابن كثير، أو في تفسير ابن جرير، وصوب الشيخ محمد بن إبراهيم قراءة للشيخ عبد العزيز بن شلهوب صوب له القراءة، فرد الشيخ محمد حامد الفقي على الشيخ تصويبه، وقال: الصواب كذا. مخالفًا للشيخ، فقال الشيخ: الصواب كذا. فبين الشيخ محمد بن إبراهيم للشيخ محمد حامد الفقي وجه الصواب في ذلك، وكانت المسألة في الصرف.

من مشايخه: درس الشيخ رحمه الله أنواعًا من العلوم على مشايخه، نعم إنه بعد تلك الدراسة ظهر علمه، وظهر فضله، وظهر أثره ونبوغه؛ لأنه كان يتميز بالعلم، والعقل، والذكاء، والفطنة، والحفظ، وقلما تجتمع هذه في عالم، رأينا في الوصف المختصر فيما ذكر، مشايخ الشيخ محمد بن

إبراهيم رحمه الله متنوعون فيما منحهم الله به، فالشيخ عبد الله - عمه - جمع إلى العلم - حيث كان هو المرجع لأهل نجد في العلم -، جمع إلى العلم الدهاء، والعقل، وحسن السياسة، والقيادة، بما شهد له به أهل عصره، وكذلك الشيخ سعد بن عتيق رحمه الله جمع إلى العلم الصدع بالحق والقوة فيه، وهكذا كان الشيخ عبد الله رحمهم الله تعالى. والشيخ حمد بن فارس رحمه الله جمع إلى العلم، الحلم العجيب، والورع عن المشتبهات، والتوقف عن المزلات، وكان الشيخ حمد بن فارس هو المسؤول عن بيت المال، وكان بيت المال عنده، وكان التمر والعيش - يعني: ما يوزع من بيت المال - كان عنده، وقد بلغني عن طريق صحيحة أنه كان لا يأكل من بيت المال، فقد كان يحمل تمره في جيبه - يعني: الشيخ حمد بن فارس -، وكان يفطر عليه، وكان هو الوالي على بيت المال.

من خصاله: نعم، إن الناظر في خصال المترجم له - أعني: الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله - ليعجب من هذا التنوع، فإذا رأيت في الشيخ محمد ابن إبراهيم رحمه الله:

إذا رأيت العقل، وجدته صاحب العقل الوافر، ومن له قصب السبق في ذلك.

إذا رأيت الحلم، فقد كان حليمًا للغاية.

إذا رأيت العلم، رأيت العلم الذي صار منتهى العلم إليه.

إذا رأيت الدهاء.

إذا رأيت الصدع بالحق، ونظرت في الشيخ محمد بن إبراهيم ذلك،

وجدت أنه قد اجتمعت في الشيخ محمد بن إبراهيم الفضائل والخصال التي تميز بها كل واحد من مشايخه.

إذًا فلا عجب، ولا غرو أن نقول: إن الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ اجتمعت فيه الفضائل والمزايا، التي تبددت في غيره، وليس في هذا مبالغة، بل إن هذا قد شهد به من عرف الشيخ، وليس حديثنا عنه إلا كالقطرة من اليم. كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رقيق الطبع، محبًا لإخوانه محبة خاصة، وإخوانه كانوا مع كونهم إخوانًا له في النسب، وليس هذا بغريب أن يحب المرء إخوانًا له في النسب، لكن كان مع ذلك له معهم محبة خاصة، فيها المحبة الدينية والعلمية، ومحبة النسب أيضًا، كان رقيقًا محبًا، وكان من خاصة أحبة إخوانه له الشيخ عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان هذا الشيخ - أعني: الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ - متميزًا ببذل نفسه للناس، يخدم هذا، ويكتب لذاك، يومه وليلته للناس، وهذا أمره معروف لدى كبار السن الذين يتذكرون الشيخ العلامة النحوي عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ، محبة الشيخ محمد بن إبراهيم لأخيه ظهرت في أبيات إخوانية أرسل بها الشيخ محمد بن إبراهيم إلى الشيخ عبد اللطيف، وكان الشيخ عبد اللطيف مسافرًا في مهمة شرعية. قال الشيخ محمد بن إبراهيم لأخيه في أبيات أرسلها له مكتوبة، قال:

فَإِمَّا أَنَخْتُمْ بِالْفَنَا وَلَقِيتُمُ ... شَقِيقِي حَلِيفَ الْوُدِّ مُذْ هُوَ صَغِيرُ

فَقُولُوا لَهُ يُهْدِي السَّلَامَ مُضَاعَفًا ... إِلَيْكَ مُحِبٌّ فِي هَوَاكَ أَسِيرُ

وَيُهْدِي تَحِيَّاتٍ كَأَنَّ أَرِيجَهَا ... لَدَى النَّشْرِ يَا عَبْدَ اللَّطِيفِ عَبِيرُ

إلى آخر الأبيات...

والشيخ عبد اللطيف تولى مناصب شرعية معروفة.

أما زملاء الشيخ محمد بن إبراهيم ﵀، فأخص منهم الشيخ العلامة الزاهد الورع عبد العزيز بن صالح بن مرشد، المولود سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف، أي: ولد بعد مولد الشيخ ﵀ بسنتين، فكان الشيخ يكبر زميله بسنتين، والشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد موجود الآن حي، أمتع الله ﷻ به وأمده بالصحة والعافية، وختم له بخير، كان رفيقًا للشيخ في طفولتهما، وكان رفيقًا له في شبابهما، وفي طلبهما للعلم، طلبا العلم سويًا، وتنقلا بين المشايخ سويًا.

وقد حدثني الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد ﵀ أنه استأجر هو والشيخ محمد بن إبراهيم بيتًا صغيرًا - يعني: في شبابهما - وضعا فيه كتبهما استأجراه للتفرغ فيه للمطالعة، فكانا يأويان إليه يحفظان، ويدرسان، ويتذاكران، وكانت الأجرة إذ ذاك قريبًا من سبعة ريالات عربية - يعني: فضة -، وهذا يعني أن طالب العلم حين يتفرغ في بيت للحفظ مع زميل له، لا يتفرغ فيه لأنس أو لحديث، إنما يتفرغ بحزم وجد لعلم.

وهكذا كانت حياة الشيخ محمد بن إبراهيم، كانت حياته مذ كان صغيرًا في جد وحزم مع النفس، وهكذا الكمالات تظهر فيما بعد لمن كان حازمًا مع نفسه في النشء، وقد قال من قال من أهل الفضل: **(من كانت بداياته محرقة كانت نهاياته مشرقة)**.

الشيخ عبد العزيز بن صالح هذا ﵀ إذا جلست معه، وذكرت السلف، فرأيت الزهد، والتقوى، والعلم، والورع، والحكمة، والأخبار، وقد

حدثني رَحِمَهُ اللَّهُ بأخبار كثيرة عن الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، حدثني عن الشيخ محمد بن إبراهيم بأخبار كثيرة أودعها - إن شاء الله - في ترجمة مستقلة له، إذ هذا المقام مقام ضيق.

وصية الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف:

لما توفي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ - الشيخ الأكبر الذي طالت ملازمة الشيخ محمد بن إبراهيم له - قبل وفاته أوصى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن - رحمهما الله -، أوصى عند وفاته بالشيخ محمد بن إبراهيم، كانت سن الشيخ محمد بن إبراهيم إذ ذاك قريبًا من ثمان وعشرين سنة، ولكن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وهو الداهية السياسي المعروف، العالم الكريم الشهم، الذي فضائله متداولة عند الناس إلى هذا الزمان، كان متوسمًا في هذا الشاب الناشئ، توسم فيه العقل، توسم فيه العلم، فأوصى به رَحِمَهُ اللَّهُ، أوصى به الملك عبد العزيز، وكان من بدايات تلك الوصية أن كان ينيب الشيخ محمد بن إبراهيم - على صغر سنه - ينيبه في مسجده - مسجد الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - المعروف في دخنة بمسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، فكان ينيبه، ويصلي الشيخ محمد ابن إبراهيم الفروض عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف - رحمهما الله تعالى -، قبل الشيخ ذلك، وأوصى - يعني قبل الوكالة -، وأوصى الشيخ عبد الله الملك عبد العزيز بالشيخ محمد بن إبراهيم بهذا الشاب الناشئ.

عناية الملك عبد العزيز به: والملك عبد العزيز لحظ ذلك في الشيخ، فاعتنى به، وقبل الوصية، وكان للملك عبد العزيز الأثر البالغ في صياغة شخصية الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان للشيخ محمد في نفس

الملك عبد العزيز محبة عظيمة، فلم يكن يصبر عن لقائه وقبول مشاوراته، مما هو معروف لدى كثير من الناس.

لما توفي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، فحانت الصلاة التي هي بعد وفاته، امتنع الشيخ محمد بن إبراهيم أن يصلي بالناس، وقال: كانت صلاتي بالناس وكالة وكلني بها الإمام - إمام المسجد الذي هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف -، وأما الآن فلست بمتولٍ الصلاة؛ لأن الوكالة قد انقطعت بموت الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف؛ لأن هذه وظيفة شرعية، وكانت هذه بشهود علماء في وقته، كانت بداية لتورع وعقل وعلم وفقه في الأمر، ثم أُمرّ بالصلاة في مكانه، فكان الشيخ محمد بن إبراهيم إمامًا للمسجد إلى أن توفي - رحمهم الله تعالى - أجمعين.

ابتدأ الشيخ محمد بن إبراهيم بعد وفاة عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ابتدأ بدروسه، وكانت البدايات مختصرة جدًا، وكان مشغولًا بطلب العلم على المشايخ.

وكانت البداية الفعلية القوية في دروسه بعد سنة خمس وأربعين، وكانت دروسه على قوتها ما بين سنة خمسين وثلاثمائة وألف، إلى سنة سبعين.

وممن التحق بدروسه مبكرًا الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو العلم العلامة المعروف، صاحب التواليف المشهورة، وبعده اتصل بالشيخ وطلب العلم عليه عدد من العلماء الذين برزوا فيما بعد، منهم سماحة العلامة الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقد اتصل بالشيخ، وتتلمذ له ما بين سنة سبع وأربعين إلى سنة سبع وخمسين، يعني عشر سنين

تقريبًا، وبداية الشيخ في دروسه كانت مختصرة، ثم بدأت تتوسع، تتوسع حتى صارت قوية في فترات من الزمن.

دروسه: كان الطالب يتخرج في نحو عشر سنين، وتارة في بعض الفترات في سبع سنين، وصف الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم دروس الشيخ محمد بن إبراهيم في فترة ما - دروس الشيخ كانت متنوعة، يعني: يختلف تقسيمها الزمني في وقت عن وقت، يعني: في سنين ما بين الخمسين والستين كان لها ترتيب، وما بعد الستين كان لها ترتيب، ثم هكذا قد يكون الترتيب الذي سنسمعه الآن ليس متفقًا عليه في كل فترات الشيخ التعليمية، لكن هكذا وصف الشيخ محمد بن قاسم، وهو من تلامذة الشيخ الذين لازموه سنين طويلة - قال الشيخ محمد بن قاسم يصف دروسه: كان الشيخ محمد بن إبراهيم يجلس ثلاث جلسات منتظمة:

الأولى: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس.

الثانية: بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات.

الثالثة: بعد صلاة العصر.

وهناك جلسة رابعة، لكنها ليست مستمرة، يأتي بها حينًا، ولا يأتي بها حينًا آخر، وهي بعد صلاة الظهر.

قال الشيخ محمد بن قاسم: كان الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر، والذي أعرفه أنه كان يحضر للدروس بعد العشاء، لكن ربما كان الشيخ محمد بن قاسم يحكي فترة من الفترات، أما بعد المغرب، فقد كان يقرأ؛

كما حدثني الشيخ حسن بن مانع - وهو من تلامذة الشيخ المعروفين - بأنه كان يقرأ بعد المغرب في بعض الكتب الخاصة، ولا يحضر القراءة إلا خاصة تلامذته الذين يأذن لهم، وأما مراجعته، فكانت بعد العشاء.

المقصود أنه ربما كان ما ذكره الشيخ محمد بن قاسم في فترة من الفترات، فكان يحضر، ويطالع دروس الغد، إما بعد المغرب في فترة أو بعد العشاء في فترة أخرى، تقرأ عليه في بعض الدروس التي كان يدرسها بعد الفجر، ومن تلك الدروس: الروض المربع، سبل السلام، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، وما يعين عليها من المراجع، يعني: التي كانت تقرأ على الشيخ؛ ليحضر بها، أو ليتذكر بها ما يتصل بالدرس الذي يدرسه التلاميذ من غد.

قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد صلاة الفجر كان يدرس ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل، وزاد المستنقع مع شرح الروض المربع، وبلوغ المرام، والآجرومية، والملحة، وقطر الندى، وهذه كانت متنوعة في بعضها لصغار الطلاب، وبعضها للمتوسطين، وبعضها لكبار الطلاب، وهذه كانت في فترة متأخرة، وأما في فترة مبكرة، فقد كان يدرس بعد الفجر كتب التوحيد، ونبذ أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى -.

قال الشيخ ابن قاسم: وكان يقرأ الفجر: أصول الأحكام، والحموية، والتدمرية، ونخبة الفكر، الثلاثة الأول مستمرة - يعني: ألفية ابن مالك، والروض المربع، وشرح بلوغ المرام - وكان يقوم بتدريسها على ترتيبها المذكور، أما باقي الكتب، فالتعاقب على فترات مختلفة طيلة أيام تدريسه

بعد شروق الشمس يدرس في العقائد كتاب التوحيد، كشف الشبهات، ثلاثة الأصول، العقيدة الواسطية باستمرار، مسائل التوحيد، مسائل الجاهلية، لمعة الاعتقاد، أصول الإيمان على فترات.

وفي الحديث الأربعين النووية، وعمدة الأحكام باستمرار، وفي الفقه آداب المشي إلى الصلاة، وقد يدرس غيرها، لكنه نادر، بعد الانتهاء من هذه المختصرات تقرأ المطولات - يعني: في الفترة التي بعد ذلك - ومنها: فتح المجيد، شرح الطحاوية، شرح الأربعين النووية، صحيح البخاري، صحيح مسلم، السنن الأربعة، مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد ذكر لي سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يسمع قراءة جامع الترمذي على الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما بين فترة وفترة، وكان يقرأ عليه فيه أحد الأسرة من آل الشيخ، فقلت للشيخ: كنت تقرأ على الشيخ الترمذي، أو تواظب عليه؟ قال: لا، كنا صغارًا إذ ذاك، وكانت تلك في الفترة ما بين الخمسين والستين، وكان الشيخ إذ ذاك من طلبة الشيخ محمد بن إبراهيم المبرزين.

لكن هذا يشعر بأن الطلبة كانوا ينتبهون للتدرج في طلب العلم، وكان الواحد منهم لا يأتي لهذه الكتب العظيمة، ويقرؤها على المشايخ، وهو لم يحكم الكتب الأولى، بل إن إحكام الكتب المختصرة كانت طريقة أهل العلم؛ لهذا كان الشيخ يقرأ عليه صحيح البخاري، ويقرأ عليه صحيح مسلم والسنن، لكن كانت لخاصة من الطلبة الذين برزوا، وربما كان لكبار منهم قد قرؤوا، أو لعلماء - أيضًا - كما ذكرت لك آنفًا -، وكان يقرأ عليه - أيضًا -

في هذه الفترة مؤلفات شيخ الإسلام - يعني: هذه فترة الضحى من يومه -، شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، كذلك يقرأ عليه ابن كثير، وكل ما جدَّ من كتب السلف والمحققين من العلماء، لكنها على فترات، يتراوح ما يقرأ عليه منها في اليوم الواحد ما بين خمسة وعشرة من تلك الكتب غالبًا.

بعد صلاة الظهر يدرس في زاد المستنقع بشرحه على بعض الطلاب، وبلوغ المرام، وقد حدثني بعض المشايخ أنه كان يقرأ عليه في فترة صحيح البخاري بعد صلاة الظهر، بعد صلاة العصر يدرس في كتاب التوحيد وشرحه، وقد يقرأ في مسند الإمام أحمد، أو مصنف ابن أبي شيبة، أو في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أو نحوها. (انتهى ما وصفه الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ من القراءة).

طبعًا هذه في فترة متأخرة، هذا الوقت العظيم الذي يبذل من صلاة الفجر إلى أن تغيب الشمس كله في العلم، لا شك أن هذا هو حال أهل العلم الذين انقطعوا للعلم والتعليم، وبهذا يخرج العلماء، بهذا يستفيد الطلاب، أما القراءة - كما في وقتنا هذا - قراءة التذوق، أو الدروس التي هي كالتذوق ما بين فترة وفترة، فهي كالمكملات؛ لئلا تنقطع حلق العلم، أما تحصيل العلم، فلا يكون بهذه فقط، بل لا بد من الجد فيه ليلًا ونهارًا، ما بين تدريس ودرس وتعليم ومطالعة، وهكذا كانت أحوال المتقدمين.

نظرت، وسمعت إلى حال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من بعد صلاة الفجر، وهو يقرئ ويُقرأ عليه، هذا مع ما يتخلل تلك الفترات، يعني: بعد الفجر في قراءة، بعد طلوع الشمس في قراءة، والضحى، ثم قراءة بعد الظهر في قراءة، بعد

العصر في قراءة، بعد المغرب، ثم قراءة بعد العشاء استعدادًا. أين نصيب أهله منه؟ أين الوقت للفتاوى التي ترد عليه من كل مكان؟ كان وقته ﷾ منقطعًا ليلًا ونهارًا للعلم، بل قد حدثني بعض المشايخ في فترة متأخرة أنه كان إذا رام أحد أن يقرأ عليه كتابًا ليراجعه، إذا صنف أحد طلبة العلم كتابًا عرضه على الشيخ، يقرأ عليه هل ثم فيه من ملاحظة أو نحو ذلك؟ وهذه سنة من سنن العلماء المتقدمين، قال: واعده الشيخ قبل الفجر بساعة؛ لأنه بعد الفجر مشغول مع الطلبة، والضحى كذلك، وقبل الظهر كذلك، وبعد الظهر، وبعد العصر، وبعد المغرب، فأين الوقت؟

قال لي أحد المشايخ كان يواعدني قبل صلاة الفجر بساعة، كل يوم أمر عليه، أين وقت النوم؟ أين وقت الراحة؟ أين وقت الأهل؟ أين الوقت لأمور الإنسان؟ لم يكن ثم وقت إلا للعلم والتعليم والجهاد، ونشر الدعوة، ونفع الناس، وهكذا يكون العظماء.

هذا الوصف الذي ذكره الشيخ ابن قاسم يمثل فترة من عمر الشيخ، وهي في الغالب ما بعد الستين فيما أحسب، يعني: ما بعد سنة ألف وثلاثمائة وستين، وقد ذكر لي الشيخ العلامة حمود التويجري ﷾ أنه كان يقرأ عليه مؤلفاته؛ ليعرضها على الشيخ، هل ثم من ملاحظة عليها، أو تصحيح، أو نحو ذلك؟ وكان ذلك في الفترة ما بعد الثمانين، يعني ما بعد سنة ثمانين، يقول الشيخ حمود التويجري ﷾: كنت أقرأ عليه الكتاب، ونجلس من بعد صلاة الفجر - يعني: بعد أن انقطعت الدروس المتواصلة، يعني: بعد عامه الثمانين - نجلس جلسة واحدة ثلاث ساعات، أربع ساعات، حتى تصلنا الشمس من بعد الفجر، يقول: وأنا صاحب الكتاب الذي ألفته أمل من

القراءة، وأتعب من ذلك، وهو لا يمل، ويسمع، وهذا لاشك ينبئ عن شخصية فيها الصبر، وفيها الجلد على العلم، وفيها الرغبة في نفع الناس.

ولهذا إذا رأيت حال أولئك، وجدت العجب العجاب، إذا رأيت يوم الشيخ، كيف قسمه على أولئك، فلا تخرج منه إلا بأن الله ﷻ يبارك في أوقات من شاء من عباده، والعلم إذا بذل فيه المرء ما بذل من الوقت، بارك الله ﷻ له فيما أعطاه من الوقت، والوقت يبارك، ولهذا نجد في حياتنا الوقت ضعف، ضعفت الاستفادة منه، تنقضي الأوقات بسرعة؛ وهذا - فيما أحسب - لأجل عدم البركة في ما أعطينا من الأوقات.

وأما المتقدمون، فقد بارك الله ﷻ لهم في الأوقات، ولا شك أن هذا له أسباب، وأظن أن أعظم تلك الأسباب هو إخلاصهم لله ﷻ، وكثرة الرغب والدعاء إلى الله ﷻ بالمباركة.

هذه المنهجية التي سمعت في التدريس، هذه المنهجية في القراءة في المختصرات، في القراءة في هذه الأنواع من العلوم وفي الكتب، هذه المنهجية في العلم هي التي تخرج العلماء حفظًا للمتون بيانًا وشرحًا لها، ضبطًا للأصول، ومعرفة للأدلة، هذه الطريقة هي التي خرجت العلماء الذين ينفعون الناس.

اليوم علماؤنا تلامذة الشيخ محمد بن إبراهيم - سيأتي ذكر بعض أسمائهم - هؤلاء نفعوا الناس سنين متطاولة بعد الشيخ رحمه الله، وهل كان النفع خاصًا بالبلاد السعودية؟ لا، فنفع تلامذة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وصل الأرض من شرقها إلى غربها، وإذا تأملت نفعهم، وتأملت فتاواهم،

وتأملت رسائلهم وكتبهم، وكيف أثرت في الاتجاه الإسلامي العام في الأرض، وجدت أن الشيخ محمد بن إبراهيم - رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأجزل له المثوبة - قد أنتج مدرسة، وأنتج دعوة، وأخرج أناسًا حملوا إلى الأرض العلم النافع ولا شك، فالمتأمل يخرج بهذا بيقين، وهذا من فضل الله ﷻ علينا وعلى الناس.

ذكر لي بعضهم أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقسم الطلاب إلى ثلاث طبقات: مبتدئين، متوسطين، منتهين.

وقد ذكر لي أحد الأجلة من تلامذة الشيخ أنه إذا أتاه الآتي، وقال له: أريد أقرأ عليك يا شيخ (وأقرأ بمعنى: أحفظ عليك المتن، وتشرحه لي) قال: هل حفظت القرآن؟ فإذا أجاب بنعم، أدخله مع الطلاب، وإذا قال: لا، لم أحفظ القرآن. قال الشيخ: لا علم إلا بحفظ القرآن، اذهب فاحفظ القرآن أولًا، ثم بعد ذلك تعلم العلم. اليوم يقرأ الناس، وتجد عندهم مؤلفات، وتجد عندهم كلامًا طويلًا، وهو لا يحفظ القرآن، لا شك أن هذا من الغلط، وهذا من الأمور التي حدثت في الناس.

قال الشيخ محمد بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الشيخ يحرص جدًا على أن يحفِّظ جميع الطلاب المنتظمين المتون، ولا يرضى الشيخ بنصف حفظ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلا بعد حفظ الأول وفهمه، ولهذا كان الطالب المجد يتخرج في سبع سنوات.

وقد حدثت - أيضًا - أن بعض المتعلمين - يعني: بعض طلاب الشيخ - بدأ يقرأ عليه، فتتعتع في الحفظ مرتين، فنهره الشيخ نهرًا بالغًا، وقال: ما

هذه بقراءة، وليس هذا بحفظ مرتين، اليوم يصبر على القارئ عشر مرات يغلط، وعساه يحفظ، لكن المتقدمين يحفظون الحفظ، كأنه يحفظ الفاتحة، وهذا الذي يسمى الحفظ، أما الحفظ مع الأغلاط، فلا يسمى حفظًا، لماذا؟ لأنه لا يبقى مع المرء، أما إذا حفظ جيدًا، فسيبقى معه بعض الحفظ في فترات من عمره، وغير ذلك لا يبقى مع المرء.

عزة نفسه: مما يذكر في هذا أن أحد المشايخ - في وصف طريقة الشيخ في إعطائه للمعلومات وتركيزه للعلم - حدثني قائلًا: (**كنا نستغرب من أين يأتي الشيخ بهذه المعلومات التي يعطينا إياها في درسنا، فاجتمعنا على تحضير بعض الدروس، على مراجعة الدرس قبل أن يدرسه الشيخ - يعني في الفجر -. يقول: فسهرنا تلك الليلة، وأتينا بالكتب المطولة، وراجعنا ما فيها بتدقيق على المتن الذي سيشرحه الشيخ في الصباح، فلما أتينا صباحًا، وتكلم الشيخ، أردت أن أبين للشيخ أني على علم بالمسألة وعلى معرفة، قال: فسألته، فقلت له: يشكل علي هذا كذا. هذا الطالب غلط، وأورد إشكالًا ليس في موضعه، يعني: كان الإشكال في مسألة ستأتي فيما بعد، وأورد الإشكال في غير موضعه، فسبق، يقول: فلما أوردت الإشكال، تأمل الشيخ، ونظر، ثم بعد ذلك قال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وقام من المجلس تأديبًا للطلاب، يقول: فأخذ الطلاب يلومونني على السؤال، والشيخ قد فهم القصد أنه أراد إحراج الشيخ، أو أراد أن يبين للشيخ أنه قرأ، أو نحو ذلك، وهكذا كان الشيخ مع طلابه، لا يسمح لأحد بأن يتعدى عليه، أو أن يخطئ معه في حقه.**

مرة من المرات كان في حلقة التعليم، ثم قسم مسألة من الفرائض - يعني: أعطى تدريبًا في الفرائض -، وكانت الحلقة الواحدة فيها نحو الخمسين من الطلاب، فأعطى نصف الحلقة مسائل، للأول اقسم كذا: هلك هالك عن. . . ، وأعطاه المسألة، الثاني الذي بعده: هلك هالك عن . . . ، وأعطاه المسألة، والثالث. . . ، حتى وصل إلى نصف الحلقة - يعني: إلى نحو السادس والعشرين -، ثم لما أتم هؤلاء، قال: ارجع فرجع للأول، قال اقسم مسألتك، فقسم، فصوبه إما بصواب أو بخطأ، ثم الثاني، فلما وصل إلى العاشر، فقسم، قال: اقسم مسألتك. قال: مسألتي كذا، وكذا، وكذا. قال: كذبت ما هذه بمسألتك، هذه مسألة الذي بعدك، وغضب عليهم الشيخ، وقال: طلاب العلم يكذبون؟ هل أول العلم الكذب؟ ونحو ذلك.

فكان شديدًا مربيًا للطلاب، لا يسمح لأحد بأن يخطئ أو أن يتعدى حده؛ لهذا كانوا يحترمون الشيخ كمعلم، وشيخ، ووالد، ومؤدب، وكانوا معه على أشد الخوف من البشر، الطلاب - كما تعلمون - بعضهم يختلفون، كان الشيخ يحب تلامذته محبة بالغة، ويعطف عليهم، ينقل لهم الطعام بنفسه من البيت إلى المسجد - وخاصة الإخوان -، ويطبخ طعامهم في بيته، ويعطيهم بين الحين والآخر، إذا وجد على أحدهم أثر الحاجة أو أثر الجوع، أخذه معه في بيته، وطعم معه.

رفضه للاستهزاء بين طلبة العلم: وهكذا بعض الطلاب - كما هو المعتاد - يحصل مع البعض الآخر بينه وبينه منافسة ونحو ذلك، فكان منهم من يستهزئ بالآخر، فبلغ الشيخ أن فلانًا من الطلاب يستهزئ بفلانٍ،

ويسخر منه، فقال: خيرًا إن شاء الله. ولما حصل هذا، وأتى من الغد، نادى هذا الذي بلغه عنه الاستهزاء في وسط الحلقة، فلما قرب منه، أخذه، وضربه بكفه ضربة على وجهه، وقال له: إياك أن تستهزئ بطلبة العلم يومًا من الأيام، وفرح طبعًا من كان مظلومًا بهذا الاستهزاء.

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مرة من المرات، الطلاب - كما تعلمون - على عادة الطلاب يتكلمون في شيخهم، فلان ينقد، فلان يبين حالته، فلان يقول: هذا فيه كذا، والشيخ فيه كذا على عادة الطلاب في الكلام في أشياخهم، وهذا من العقوق أن يتكلم الطالب في شيخٍ نفعه، وبذل له وقته، فرام بعض الطلاب أن ينقل ما يقال في الشيخ للشيخ، فأتى الشيخ، وقال له: يا شيخ، فلان يقول عنك: كذا، وكذا، وكذا، فمسكه الشيخ، وضربه أمام الناس، وقال له: ما وجد الشيطان من يرسل إلا أنت، ما فرح بالكلام، ماذا يقال فيه؟ قال الناس: صحيح هذا يغير الصدور، والمؤمن مأمور بأن يصلح ذات البين، وليس المهم في حياة المرء أن يسمع ما قيل فيه؛ لأنه سيكسبه ذلك عداوة، وربما ينغص في نفسه على فلان وفلان من الناس.

المقصود أن هذه الحوادث تعطيك شخصية الشيخ في علمه، في تعليمه، في قوته، في عدم سماحه بالخطأ، في هيبة الناس منه، وخوفهم منه - أعني طلبته -، في عدم سماحه لمداخل الشيطان أن تكون بين الطلاب، في غرس المحبة والاحترام بين الإخوان بعضهم مع بعض في حلق التعليم رحمه الله رحمة واسعة.

الشيخ في التعليم خرَّج أعدادًا غفيرة من الطلاب، ففي فترة من الفترات

بلغ عدد الطلاب - كما هو موجود عندي، مدون في الكشف - أكثر من مائة وتسعين طالبًا في فترة من الفترات، كلهم طلبوا العلم، وتنوعوا، منهم من صاروا علماء بارزين، ومنهم من صاروا قضاة، ومنهم من صاروا مدرسين معلمين في الكليات أو في المعاهد، ومنهم من صاروا في الدعوة... إلى آخره.

هذه الأفواج التي تخرجت، وحملوا العلم، لا شك أنهم تخرجوا بعد اتصالهم وملازمتهم للشيخ، وكان الشيخ معهم في منهجية علمية جعلت الطلاب في قوة علمية مؤتلفة غير متشتتة، ففي التوحيد - كما ذكرت لكم - كان اهتمامه بكتبه التأسيسية التي تبين العقيدة الحقة بأدلتها، وكانت طريقته في شرح كتب الاعتقاد أن لا يذكر الخلاف بالاعتقاد، بل يذكر أدلة أهل السنة والجماعة وما قاله أئمة التوحيد في المسألة، ويبين أدلتهم، ويفصل في ذلك، ولا يذكر قول المخالفين إلا نادرًا عند الاحتياج، ويجمله: هذا قول الأشاعرة، قالت المبتدعة: كذا، قال الأشاعرة: كذا. وليس على طريقة بعض الناس أنهم يفصلون في أقوال المخالفين، وهذا إنما يكون عند الحاجة إلى ذلك، إذا اختلط الناس، أو احتاج الناس إلى ذلك، لكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن يعرج على مذاهب الخرافيين والمبتدعة وشبههم إلا إذا دعت الحاجة، بينما تجد أكثر تفصيله وتدليله على معتقد أهل السنة والجماعة، وهذا - ولا شك - يعطي قوة علمية استدلالية، ويعطي ثباتًا في موقف الحق وعدم تشويش في الأذهان بكثرة الأقوال المبتدعة، وهذا لأجل أن المبتدعة وأقوال المبتدعة لم تكن مشتهرة إذ ذاك.

أما في الفقه، فقد جعل دروسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ منبثقة من متون الفقه الحنبلي، ومتون

الفقه الحنبلي عند أهل العلم محررة مدققة، تفتق ذهن الطالب، وتقوي إدراك الطالب الفقهي، فاعتماد متن للمذهب مما جعله الشيخ طريقة له؛ وذلك لأنه خير طريقة لتحصيل الفقه، فبه يُبنى الذهن الفقهي، وبه تُؤسس قواعد التصور للمسائل الفقهية، ويأتي بعد ذلك التفريع، والتدليل، وذكر الخلاف عند الحاجة، والترجيح.

فإذًا تكون معرفة الأقوال بعد إحكام الأصول وضبط تصور المسائل، تعجب اليوم أن تجد عند بعض الناس من معرفة الأقوال والخلافات بينما صورة المسألة لا تجدها واضحة عنده، وهذا غلط علمي يذهب التقدم العلمي عند الطلاب، بل لابد أن تكون في طلبك للعلم معتمدًا على متن من المتون، في الفقه عندنا متن من متون المذهب الحنبلي - مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -، إذا ضبطت المتن، وتصورت مسائله، ودليل المذهب على شيخ، ثم بعد ذلك يعرفك الشيخ بالأقوال الأخرى شيئًا فشيئًا، حتى تكون عندك ملكة فقهية وتصور للفقه كيف يعرض، وكيف تعرض مسائله، أما هذا الشتات الذي تراه اليوم في كثير من الدروس، فإن هذا لم يكن طريقة للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرض للمتن، وهو زاد المستقنع بشرح الروض المربع، يبين عبارة الماتن بدقة، بألفاظها ومحترزاتها ومفهومها، إن كان لها مفهوم، يوضح ذلك بعبارة واضحة، ويصور المسألة تلو المسألة، بحيث لا تشتبه مع نظيراتها في ذهن الطلاب، ولا يبدأ بالاستدلال أو ذكر الخلاف - كما يفعل بعضهم اليوم في دروسهم، إما في الجامعات أو في المساجد -، بل كان هم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يحدث التصور الفقهي والملكة الفقهية في ذهن الطالب؛ لأن

المعلومات يمكن الطالب بعد حين أن يجمعها من الكتب إذا قرأ، لكن الذي ينقله المعلم للمتعلم - إذا كان حريصًا عليه - أن يكون المتعلم طالب علم على الحقيقة، ينقل له فهمه للمسائل، تصوره للمسائل؛ حتى يكون المتعلم في ذهن فقهي صحيح.

ثم يذكر الشيخ - بعد أن يصور المسألة - الدليل مع وجه الاستدلال، أو يذكر التعليل، أو إرجاع حكم المسألة إلى أصل أو قاعدة أو نحو ذلك من الحجج، أو وربما ذكر الخلاف القوي في بعض المسائل، إذا كان الخلاف مشتهرًا، أو كان هناك حاجة لبيانه.

وغالبًا ما يذكر اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويذكر هل عليها العمل على هذا الاختيار، أم ليس عليها عمل أئمة الدعوة - رحمه الله تعالى -.

أما مطولات الفقه، فلم يكن الشيخ يفصل الكلام عليها بنحو ما سلف، ولكن يذكر بعض ما يحتاج إلى إيضاحه، فقد كان يقرأ عليه في كشاف القناع، كان يقرأ عليه في المغني في بعض الفترات، ولم يكن يفصل عليها؛ لأنها كتب مطولة، هي للخاصة من الطلاب، هذه الطريقة النافعة هي التي درج عليها علماؤنا السابقون، وبها صعد في مدارج التفقه فئام من أهل العلم، نفعوا العباد والبلاد، رحم الله الأموات، ونفع بالأحياء، وأجزل مثوبة الجميع.

تلامذة الشيخ: كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - بدون مبالغة - كان أمة في قلب رجل، كان - كما يقال - جامعة متعددة الكليات، فلا غرو إذًا أن نجد بين من تخرج

عليه المحدث، والفقيه، تجد الأديب واللغوي، تجد الشاعر، والناثر، تجد القاضي، والداعي، صدروا كلهم عن رجل واحد؛ لأنه بتوفيق الله له ولهم:

أولًا: بذل علمه لهم، وليله ونهاره، وهكذا فليكن بذل الرجال الذين يرومون أن يظهر من بعدهم رجال.

لقد تتلمذ للشيخ عدد لا يحصون كثرة من الرجال، تولوا التدريس في المعاهد والكليات، تولوا القضاء، تولوا الفتيا، تولوا التوجيه والإرشاد، تولوا الدعوة والإصلاح، هؤلاء لا يمكن أن يحصوا كثرة، ولا يمكن تعدادهم جميعًا؛ إذ إنهم مئات من الناس؛ لأنه درس قرابة نصف قرن من الزمان، وإن كان قد أُحصِي كثيرٌ منهم، لكن لا يمكن أن يحصوا؛ لأجل كثرتهم وتعدادهم وتنوعهم. نذكر الآن هنا بعض أكابر طلبة الشيخ - كإشارة لا حصر - على ترتيب الشيخ ابن بسام في ترجمته للشيخ:

قال الشيخ ابن بسام ﵀ في ذكر تلامذته:

الأول: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ﵀.

الثاني: سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد.

الثالث: سماحة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﵀، هو أكبر تلامذته في ظني.

الرابع: الشيخ عبد الله القرعاوي الداعية المشهور.

الخامس: الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد.

السادس: الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، أخو الشيخ محمد.

السابع: الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ - رحمهم الله -.

الثامن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ - حفظه الله -.

التاسع: الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ﵀.

وهذا ترتيب، وذكر الشيخ ابن بسام ﵀، أذكر زيادة على ذلك:

- الشيخ صالح بن غصون ﵀.
- الشيخ صالح بن محمد اللحيدان - حفظه الله -.
- الشيخ عبد الله بن منيع.
- الشيخ عبد الرحمن بن فارس ﵀.

وجمع من الناس غير هؤلاء من العلماء، وليعذر من لم يذكر اسمه، فإنما كان المراد الإشارة، نعم تخرج بالشيخ ﵀ أعداد كبيرة لا تحصى من العلماء والمحصلين، وحسبك أن تعلم أن جل أكابر علماء المملكة اليوم هم من تلاميذ الشيخ، وهم الذين يشغلون المناصب العلمية والدينية، وينفعون الناس، وينشرون العلم والفتوى، ويقضون بين الناس في هذه الأرض، امتلأت بهم مناصب القضاء والإفتاء، وشغلوا ذلك، حتى لم يحتج أهل هذا البلد إلى أناس من غيرهم في أمر دينهم، وهذا من أعظم المكاسب.

فقد كان الشيخ ﵀ يردد على طلبته كثيرًا -إذا امتنع أحد منهم عن القضاء- يردد عليهم، ويقول: هل تريدون أن نأتي بأحد من الناس من هاهنا، وهاهنا؟ هل تريدون أن نأتي بقضاة من البلد الفلاني، ومن البلد الفلاني؟

يحثهم على ذلك، وكان الشيخ يلزم بالقضاء - رحمه الله رحمة واسعة -.

أخلاقه وشمائله وحفظه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما أخلاقه، فوصفها تلميذه الشيخ محمد بن قاسم بقوله:

أولًا: الحافظة النابغة، كان يحفظ المتن للقراءة الثالثة، يعني: يقرأ عليه مرة، مرتين، ثلاثًا، ثم يحفظه، وربما حفظه من القراءة الثانية، وكانت المعاملة الطويلة في القضاء على إشكالاتها تبلغ أحيانًا ثلاثمائة صفحة، تقرأ عليه، ثم يملي ما يراه مستحضرًا كل ما مر فيها من الجزئيات، ولم يكن غريبًا منه أن يدل القائمين الذين يقرؤون أو يستشيرونه في بعض البحوث، يدلهم على مواضع الأبحاث في كتب، ذاكرًا رقم المجلد والصفحة أحيانًا، وقد ذكر لي هذا الشيخ إسماعيل الأنصاري، وقال: كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أردت بحثًا أو أراد بحثًا، هو يذكر، يقول: في الكتاب الفلاني في المجلد والصفحة، بحثه فلان، وفلان، وفلان، فيجمعون له في المسألة أحيانًا أكثر من عشرة كتب، وأحيانًا عشرين وثلاثين كتابًا، يذكرها لهم بتفاصيلها، طبعًا هذه - لا شك - تدل على حافظة نادرة، وقد حفظ أكثر من نصف منتقى الأخبار - يعني: أكثر من ثلاثة آلاف حديث في أوائل عمره - مع أنه كان مكفوف البصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكف البصر ليس سهلًا معه الحفظ، نعم المبصر يسهل عليه أن يحفظ، لكن المكفوف يحتاج إلى من يقرأ عليه، ثم بعد ذلك يردد ما قرأ، وليس هذا بالسهل.

الذكاء والفراسة: قال الشيخ ابن قاسم: رُزق الذكاء والفراسة، فكان يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات، ويكشف ما وراءها من الدوافع

ببصيرته الفذة، ولم يكن يمر عليه كيد أو احتيال، وحياته أمثلة من هذا النوع، فلسنا بحاجة إلى ضرب الأمثلة لها، فأكثر العارفين به يدركون هذا - يعني: الفراسة الحادة، والذكاء في مرامات الناس -، يأتيه أحد الناس بعبارة جيدة، وهو يروم شيئًا آخر، يأتيه بقضية، وهو يروم أن يتوصل من تلك القضية بأشياء أخر، ويدرك هذا الشيخ ﵀ بفراسة فذة، شهد له بها تلامذته ومعارفه.

الإخلاص في العمل: قال الشيخ بن قاسم: فلم يكن طالب شهرة، ولا باحثًا عن سمعة، ولم يعرف عنه بأنه تحدث عن أعماله - على جلالتها وكثرتها -، وهذا - أيضًا - ذكر لي من أمثلته عدد من المشايخ، منها أنه كان بعض المشايخ يلومونه على عدم تكلمه في بعض الأمور، ولما أكثروا وأكثروا عليه، قال لهم: أتريدون أني كلما عملت عملًا أقوله لكم؟ تريدون أني إذا كتبت، أو ذكرت، أقول لكم: فعلت، وفعلت؟ لكن ستعرفون محمد ابن إبراهيم بعد أن يذهب.

طهارة قلبه: قال الشيخ بن قاسم ﵀: فكان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله بأذى، وله في ذلك أحوال عجيبة، كان أحد المشايخ المعروفين لما حصلت مسألة نقل مقام إبراهيم، تكلم أحد المشايخ - رحمهم الله - في الشيخ محمد بن إبراهيم، لماذا يأذن بنقله، ولم يفتِي؟ ونال من الشيخ بكلام، وبلغ الشيخ بعض ذلك، وأنه كان إذا أراد أن يذكر الشيخ يقول: ابن إبراهيم قال كذا، ابن إبراهيم قال كذا - وبالمناسبة هذه الكلمة - ابن إبراهيم - ما كان يقولها محبو الشيخ، وإنما كان في وقته يقول محبو الشيخ: الشيخ محمد، أو الشيخ محمد بن إبراهيم، أما كلمة ابن

إبراهيم، فلا يقولها محبوه، فليتنبه الناشئ أو طلبة العلم إلى هذه؛ لأنها عند استعمال بعض من يغفل عن هذا قد تدل من يعرف المصطلح الأول على بعض الأشياء التي قد لا تكون صحيحة - هذا الشيخ كان ينال من الشيخ محمد، ويقول: ابن إبراهيم يقول كذا، ابن إبراهيم، ولا يقول: الشيخ، ونحو ذلك، فكان الشيخ عبد العزيز بن مرشد - حفظه الله - ذكر لي أنه نقل للشيخ محمد بن إبراهيم، قال له: فلان الشيخ تعرف مقامه، وأنه ينشر التوحيد في مكة، وأنه. . . ، وأنه. . . ، فلا تأخذ في خاطرك من كلامه.

قال: - مصداقًا لما قال الشيخ ابن قاسم هنا عن طهارة قلبه، وأنه كان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه - قال: وماذا قال فلان؟ما بلغني عنه إلا أنه يقول: ابن إبراهيم، وأفتى ابن إبراهيم، وصدق، فأنا ابن إبراهيم، ووالله إنه لأغلى عندي من بعض أولادي؛ وذلك لما قام به ذلك العالم في مكة من تدريس ونشر للعلم والتوحيد.

لاشك أن المرء إذا سلم من الهوى، سلم من الدنيا، أهل العلم إذا سلموا من الدنيا، وسلموا من الهوى، سلموا من الرغب في المناصب، الرغب في الشهرة، الرغب في الانتصار للنفس، بارك الله ﷻ لهم وفيهم، ورزقهم القبول، أما إذا كان الهم انتصارًا للنفس، فهنا يبدأ النزول في حق من كان كذلك.

شجاعته: كان شجاعًا قوي الشكيمة، لا يتردد في إعلان الحق أيًا كان المخاطب به، وهذا له جهات، منها نصرته لطلبة العلم، نصرته لأهل العلم، فكان قوي النصرة لهم جدًا، بحيث لا يسمح أن ينال أحد من أهل

العلم بأذى؛ وذلك لأن أهل العلم كانوا يأتمرون بأمره، ولا يخرجون عن مراده، ما قال لهم، سلموا به، فكان يحميهم أشد الحماية.

ومن هذه القصص قصة حصلت للشيخ عبد الله القرعاوي الداعية المعروف: أنه رام مرة الذهاب من الرياض بالطائرة، فلما ذهب للمطار، وكان مهيئًا للحجز، فقالوا له: ليس لديكم حجز، ولا يمكن أن تذهبوا، فذهب لمدير المطار - كان مدير المطار إذ ذاك نقيبًا، نقيب يعني شرطي نقيب، هذا الكلام له الآن أكثر من أربعين سنة أو نحو ذلك - فدخل عليه الشيخ عبد الله القرعاوي، ومعه مجموعة من الذي كانوا يريدون السفر، ولم يمكنوا منه، فقال له: الأمر كيت، وكيت، فقال بعبارته التي نقلت لي: وهل أنتم كفء للسفر حتى نساعدكم؟! أو نحو هذه العبارة، يعني: أنتم كفء؟! يعني مجرد طلبة علم!! يعني: كفء إنكم تروحون وترجعون؟ فالشيخ عبد الله القرعاوي بلغت هذه في نفسه مبلغها، وذهب، فرجع إلى الرياض، وأخبر الشيخ محمد بن إبراهيم بالحادثة، فقال الشيخ لمن عنده: اتصلوا بمدير المطار، وقولوا له: يحضر، فاتصلوا بمدير المطار، وقالوا له: الشيخ محمد يقول: يأتيني الآن، فأتى مدير المطار الذي هو النقيب للشيخ محمد، ولما حضر، قال: نعم، أمركم سيدي.

فقال الشيخ: يقول المشايخ: أنهم أتوك، وقلت لهم: كذا، وكذا، وكذا فهل هذا صحيح؟

قال: نعم، لكن...

قال: هو صحيح، أم لا؟ أجب بنعم أو لا.

قال: نعم، صحيح . . .، فاقترب منه الشيخ، فلما اقترب كان عليه الزي العسكري، فلما اقترب من الشيخ مسكه الشيخ بتلابيبه وضربه ضربة، يعني: صفعه صفعة على وجهه قوية طار منها رأسه أمام طلبة العلم.

وهذا - كما ذكر - شجاعة وقوة شكيمة، وعدم السماح بأن ينال أحد من أهل العلم عنده بأذى، والشيخ عبد الله القرعاوي كان له عند الشيخ مكانة، وكان الشيخ عبد الله دائم الصلة، يستشير الشيخ بما يكون من نشر الدعوة في جنوب الجزيرة، كان الشيخ رحمه الله يكره المتملقين والمتزلفين، وله في ذلك مواقف يحفظها التاريخ، ربما بعض الحوادث في ذلك لا يحسن ذكرها.

هيبته: كانت له الهيبة العظيمة في نفوس الناس، يحسب محدثه الحساب الدقيق؛ حتى لا يزل في كلمة، أو يخطئ في فكر، الواحد من طلبة العلم أو حتى من الأمراء إذا أراد أن يذهب للشيخ، يقول بعضهم: كان بطني ينغصني قبل أن أذهب له، ما يدري ماذا يريد منه الشيخ، إذا قال: الشيخ فلان يأتيني، كان يحسب لهذا أشد الحساب، وكان يخاف جدًا من الشيخ، لا يدري ماذا يريد، كلمة الشيخ في التأنيب الواحدة يتزلزل لها المؤنب؛ ولهذا استدعى الشيخ بعض طلبة العلم، فما نام ذلك المستدعَى تلك الليلة، ما يدري ما المسألة، وكانت المسألة عن مقال له، كان كتبه، وهو يخشى أن المقال الذي كتبه - وهو من طلبة العلم - فيه كلام من جراء ذلك، فيقول: ما نمت تلك الليلة، فحضرت، فلما أتيت كان الأمر أسهل مما كنت أظن.

المقصود من ذلك أن الهيبة كانت عظيمة في نفسه، بل ربما كان يحضره الناس الكثير، ويسكت المجلس الطويل الساعة الكاملة يسكتون،

ولا يستطيع أحد أن يتحدث معه هيبةً له، وخشية من أن يكون المتكلم يقول غلطًا، أو يذكر هجرًا، لا شك أن هذه الشخصية القوية حكمت الناس، وجعلتهم لا يخرجون عن ما عليه البلاد، وهذه الحماية حمت هذه البلاد من التفكك في أمر الدين وفي أمر الفتوى وفي الرأي زمنًا طويلًا.

لا يغتاب أحدًا: كان الشيخ رحمه الله متنزهًا عن الغيبة، عرف بذلك - كما يقول الشيخ محمد بن قاسم رحمه الله - منذ حداثة سنه، حتى فارق الدنيا، لم يعرف أنه ذكر أحدًا في مجلسه بغير الخير، ولم يعرف أنه تحدث بمثالب أحد أو بنقيصة في أحد، بل كان يزجر من يحاول ذلك أو يبتدئ فيه؛ لأن المجالس العامة ليست مجالًا لذلك، وقد يؤذن في الغيبة في مواضع، وهذه المجالس العامة؛ كما عند كثير من طلبة العلم اليوم، تجد مجالسهم غيبة ونميمة، حتى في أهل العلم - نسأل الله عز وجل السلامة والعافية -.

العفة والورع: مما لا يعرفه كثيرون عما يتصف به الشيخ رحمه الله من العفة والورع حوادث كثيرة في ذلك، والشيخ رحمه الله كان في أمر المال عفيفًا ورعًا؛ كما شهد له بذلك تلامذته والمقربون له، كان لا يأخذ شيئًا فيه شبهة.

ظل إلى بعد تولي الملك فيصل بسنة ليس له راتب شهري، وإنما كان له رزق يخرج له مرتين أو ربما أكثر في السنة على طريقة القضاة والعلماء المتقدمين، ولم يكن له راتب شهري، يأخذه في كل شهر إلا بعد أن تولى الملك فيصل رحمه الله.

ومما حدثت به في ذلك أن الملك سعود رحمه الله دعا دعوة في الدرعية... دعوة كبيرة، وكان من عادة الملك سعود إذ ذاك أنه يعطي من يدعوه، فلما

دعاه، أرسل الملك سعود بعطية جزلة للشيخ، قدرها أظن مائة ألف ريال في ذلك الوقت، والناس منهم من تكلم، وقالوا: الشيخ دُعِيَ من الملك سعود، وسيعطيه الملك سعود، وسنرى ما يفعل، ولم يعلم أحد ما صنع الشيخ بذلك المال حتى توفي، وذكر أحد المعروفين في الدرعية أن الشيخ أعطاه المال، ووكله على صرفه في إعمار ما خرب أو احتاج إلى إعمار من مساجد الدرعية.

لاشك أن مثل هذا لو فعله فاعل من اليوم، حتى كثير من أهل العلم صار يتحدث به سنة لأجل الحال، لكن المعامل مع الله ﷻ ينشر الله ﷻ فضائله؛ لأن الله ﷻ إذا أحب عبدًا، وضع له القبول في الأرض.

كان من أهل الخشية: من كلام ابن قاسم رحمه الله: كثيرًا ما يلهج بذكر الله والاستغفار، وتغرورق عيناه بالدموع حين يكون مناجيًا لله، ويسمع بعض ما يحرك القلوب، ولقد كان ذلك يتجلى كثيرًا فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره، يقول الشيخ ابن قاسم: وقد صحبته زمنا طويلًا، وهو يقوم في الليل ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل، لا يترك ذلك، وهذا مع كثرة الأعمال والدروس وقلة وقت النوم ينبِّئك عن أمور كثيرة، والتوفيق بيد الله ﷻ.

هكذا كان أهل العلم، ليس العلم لفظًا باللسان، إنما العلم معه عمل، معه تقوى، معه صلاح، معه خشية، إنابة، وكان صلبًا رحمه الله في الظاهر، ولكنه في الباطن كان رقيقًا جدًا، دمعته تنحدر من أدنى موعظة، أو إذا مات أحد من الناس أو نحو ذلك، كان قريب الدمعة، كثير الوجل رحمه الله وأعقبه، ورفع منازله في جنات النعيم.

مؤلفاته : كتب الشيخ رحمه الله رسائل وفتاوى متنوعة، وكانت حياته مليئة بالتعليم والدعوة، والمهمات الكبار التي أنيطت به من فتوى، ومتابعة القضاء، وتمييز الأحكام، ونشر العلم والتعليم في جل اليوم، ومراجعة الكتب، ومزاولة الأعمال التي أنيطت به، وهي أكثر من ست عشرة مسؤولية كان يليها ولاية مباشرة، مع هذا فقد كان له رحمه الله آثار علمية، منها :

- فتاواه التي طبعت مع رسائله في ثلاثة عشر جزءًا، قام بجمعها وإعدادها للطبع، وترتيبها الشيخ محمد بن قاسم أثابه الله، وأقوم أنا بالتعليق عليها وتحقيقها تحقيقًا مناسبًا وسطًا، وستطبع قريبًا - إن شاء الله -، أظن في السنة القادمة إن شاء الله تعالى.

- رسائل متنوعة طبعت في حياته، وأدرجها ابن قاسم في مجموعة فتاواه ورسائله، ومنها : الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم، في الرد على قول السيوطي في الإتقان أن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ.

- رسالة نشرها في أحد المجلات، ثم طبعت مستقلة باسم تحكيم القوانين.

- رسالة باسم نصيحة الإخوان في الرد على الشيخ ابن حمدان.

- رسالة الجواب المستقيم في نقل مقام إبراهيم.

- رسالة باسم الجواب المشكور، وقد طبعت بدون اسم الشيخ عليها، وقد حدثني الشيخ إسماعيل الأنصاري أن الشيخ هو الذي ألفها، ويؤيد ذلك، وقد طبعها مؤخرًا الشيخ الأخ طالب العلم الموفق عبد السلام بن

برجس آل العبد الكريم رحمه الله، طبعها بهذا الاسم الجواب المشكور، بدون اسم الشيخ محمد بن إبراهيم عليها؛ لأنها في طبعته الأولى لم تكن كذلك، وإنما كان موضوعًا عليها أصدرتها دار الإفتاء، ولكن الشيخ إسماعيل الأنصاري - وهو خبير بالشيخ - يقول: هي من تأليف الشيخ، ويدل لذلك أنه ذكر في خطبتها بعد قوله: أما بعد، قال: فقد رفع إلي الملك سعود، والملك سعود إنما يرفع إلى الشيخ محمد بن إبراهيم، لا إلى من دونه.

- كتاب له في الحديث اسمه: تحفة الحفاظ ومرجع القضاة والمفتين والوعاظ، وهو كتاب في الحديث، جمع فيه المفتي رحمه الله ما يقرب من ألف حديث، قال رحمه الله في مقدمته: هذا مختصر يحتوي على ألف حديث صحاح، اقتصرت فيه على ما خرجه الشيخان أو أحدهما، عدا أحاديث صحيحة يسيرة جدًا خرجها غيرهما، وقد أتى بحمد الله على عامة أبواب الدين من أصول وفروع، ودعوات وأذكار، ومواعظ وحكم وآداب، وغير ذلك مما ستقف عليه في مواضعه. ا.هـ.

والكتاب في مجلد متوسط، ولم يطبع بعد، وأسأل الله عز وجل أن ييسر طباعته، وهذا الكتاب متميز عن غيره من كتب المتون في الحديث بمميزات، وقد ظهر فيه فقه الشيخ وانتقاؤه للأحاديث التي ينبني عليها الاستنباط باستنباطات لا يفهمها إلا المجتهدون من أهل العلم، وليس هذا موضع بسط ذلك، والكتاب مخطوط إلى الآن، جاء في خاتمته: وقع الفراغ من تأليف هذا الكتاب المبارك خامس شهر ذي الحجة سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف، ووقع الفراغ من تبييضه آخر ذي القعدة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة - زادها

الله تشريفًا وتكريمًا - على يد جامعه الفقير إلى عفو ربه محمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف آل الشيخ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. ا.هـ.

- نظم العلم لمقدمة كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل للمرداوي، وهو من كتب المذهب الحنبلي المشتهرة الجيدة، جاء مؤلفه في أوله باصطلاحات، بذكر للكتب التي نقل منها، ونظم رحمه الله جل المقدمة، قال فيها - يعني: نظمها الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله - جل المقدمة قال فيها:

حَمْدًا لِمَنْ فَقَّهَنَا مُصَلِّيَا   عَلَى مُحَمَّدً وَبَعْدُ فَادْرِيَا

مَرَاجِعَ الْإِنْصَافِ مِنَ مِتْنٍ وَمِنْ   شَرْحٍ مَعَ مُؤَلِّفِيهَا وَاسْتَبِنْ

وَبَعْضُهَا نَوَاقِصُ اعْرَضْتُ   عَنْ ذِكْرِ نَقْصِهِنَّ وَاخْتَصَرْتُ

نَظَمْتُهَا مِنْ خُطْبَةِ الْمُؤَلِّفِ   مُقَدِّمًا ذِكْرَ الْمُتُونِ فَاعْرِفِ

مِنْهُنَّ مَتْنُ الْخِرَقِي مَا أَجْمَلَهْ   شَافِي أَبِي بِكْرٍ مَعَ التَّنْبِيه لَهْ

تَهْذِيبُ ابْنِ حَامِدِ لِلْأَجْوِبَةْ   وَابْنِ أَبِي مُوسَى لِلْإِرْشَادِ انْتَبِهْ

إلى آخر أبياته، وهي موجودة عندي، ولي عليها - إن شاء الله - تعليقة ضافية تبين المخطوط منها والمطبوع، ومنزلة المطبوع منها من حيث التصحيح.

حياته العملية ومناصبه: تولى الشيخ رحمه الله مناصب كثيرة متنوعة،

وكان يعد الدخول في الوظائف الشرعية من التعاون على البر والتقوى، والتعاون متعين؛ لهذا كان الشيخ ذا مناصب كثيرة، أقضت مضجعه، وأقلت راحته، يعرف ذلك من كان قريبًا منه؛ لأن الوظيفة الشرعية ليست بزينة وجاه، وإنما هي تكليف وأمانة، والسؤال عنها غدًا عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعلى العموم، كانت الأمور الشرعية، والإدارات الدينية تابعة له، وكان هو رحمه الله المشرف عليها، المسؤول عنها في الداخل والخارج، فمن الوظائف الشرعية التي كان هو المرجع فيها والرئيس لها:

- رئاسة دار الإفتاء.
- رئاسة القضاة، وهي وزارة العدل حاليًا.
- رئاسة هيئة التمييز.
- رئاسة الكليات والمعاهد العلمية.
- رئاسة الجامعة الإسلامية.
- رئاسة تعليم البنات.
- رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي.
- رئاسة المعهد العالي للقضاء.
- رئاسة دور الأيتام.
- رئاسة الإشراف على نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا.

- خطابة الجامع الكبير والعيدين.

- إمامة مسجد الشيخ عبد الله.

رئاسة مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، ومؤسسة الدعوة التي يخرج عنها مجلة الدعوة المعروفة، والشيخ أسسها لتكون مؤسسة للدعوة، والمجلة أحد نشاطاتها، لكنها بعد وفاة الشيخ قصرت على بعض أنشطتها.

وغير ذلك من الوظائف والأعمال الدينية التي حملها بعده بضعة عشر رجلًا، وما أبلوا بلاءه فيها، رحم الله الميت، وأسأل الله أن يرفع ويوفق الحي.

الكلام عن الدوائر الشرعية ودور الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تأسيسها يطول، وكذلك دوره في الإفتاء.

جهاده في الدعوة:

أولًا: نذكر بعض جهاد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الدعوة إلى الله وبذله في ذلك، فنقول - على وجه الاختصار -: ابتدأ الشيخ رحلته في الدعوة إلى الله وسفره أن أرسله الملك عبد العزيز إلى الغطغط، وكانت مجمعًا للإخوان الذين جاهدوا مع الملك عبد العزيز، صار عندهم اجتهادات، خالفوا فيها العلماء، ونظرات تجاوزوا فيها، وكانوا يعتدون برأيهم، ولم يهتدوا بهدي العلماء، فكان من الحق الذي لهم - يعني أولئك الفئة - أن يبعث إليهم عالمًا داعية يحسن الدعوة، وقدمه راسخة في العلم، لعل الحجة تنفع، ولعل الدعوة تنجح، كانت رحلة دعوية إرشادية قضائية، وذلك سنة خمس وأربعين للهجرة، يعني كان عمره إذ ذاك نحوًا من أربع وثلاثين سنة.

فمكث عندهم ستة أشهر، صاحبه فيها أخوه الأصغر الشيخ عبد الملك ابن إبراهيم رحمه الله كاتبًا ومرافقًا، وحمل معه كتبًا للمطالعة والمراجعة، فشرح للإخوان هناك أصول التوحيد، وضوابط التكفير، وبين لهم عبارات أئمة الدعوة، وفسرها، واحتج لهم بالنصوص الشرعية، وقعد لهم ذلك، ودلل وشرح لهم الآيات والأحاديث، وأفادهم في ذلك علمًا وعقلًا، وقد استفاد منه هناك مجموعة رجعوا عن أمرهم، ولكن - ولله الأمر - بثت فيهم روح الشقاق وعدم القناعة بكلام أهل العلم، فعلم الشيخ أنهم يكيدون له، وأنهم يرومون قتله؛ كما أتاه مخبر منهم، فأمر بتجهيز مطيته، وحمل عليها كتبه ليلًا وما خف من متاعه، ثم تركهم عائدًا إلى الرياض.

ثانيًا: كان الشيخ شديد الحرص على العناية بالدعاة، فمن أبرز تلامذته من الدعاة الشيخ عبد الله القرعاوي، كان داعية عديم النظير في جنوب الجزيرة، انتقل إلى المنطقة الجنوبية، فأثر فيها وفي أهلها، فجعلهم متعلمين، وجعلهم أكثر استقامة واهتداء، وبث فيهم منارات العلم، وهي مدارس القرآن، وكان الشيخ رحمه الله سندًا للشيخ القرعاوي في ذلك عند الحكومة، حتى إنه يسلم المال المخصص للمدارس - يعني: الميزانية -، يأخذه الشيخ محمد بن إبراهيم بيده من ولاة الأمر، ويسلمه للشيخ عبد الله القرعاوي بيده - أيضًا -، بدون وثائق، وبدون إثباتات لذلك، ولا يراجع فيه، وليس ثم إثباتات بنوع المصروفات، وبهذه الثقة التي منبعها الاستقامة والدين انطلق الداعية الشيخ عبد الله القرعاوي، وكان يختلف بين الحين والآخر إلى الرياض، شارحًا للشيخ محمد بن إبراهيم ما قام به من عمل هناك، وما تم من إنجاز، مبينًا أحوال أهل الجنوب، وقربهم إلى

الخير وسرعة انتشار الدعوة فيهم، وهذه النهضة في الجنوب اليوم من آثار تلك الدعوة، وهذه المسألة - وهي جهد الشيخ محمد بن إبراهيم في هذه الدعوة التي انتشرت في الجنوب - قل من يعرفها.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان هو السند الأول من الناس للشيخ عبد الله القرعاوي، وكان يذلل له الصعاب، ويبين له كيف تكون مرحلية الدعوة، وكيف يؤثر فيهم، وماذا يقرئ، وماذا ينشئ من المدارس، حتى حصل ما حصل من الخير.

ثالثًا: من أمور الدعوة عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يحرص على لقاء الدعاة من الأقطار الإسلامية المختلفة في مواسم الحج، واستضافة بعضهم ومتابعة نشاطاتهم، وكان يحرص على دعاة التوحيد والسنة خاصة، ويتعاهدهم بتوجيهه ورأيه فيما ينبغي أن يعملوه أو يخططوه لمستقبل الدعوة السلفية.

رابعًا: اهتمامه برابطة العالم الإسلامي، وكان رئيسًا لمجلسها الأعلى، وما ينبغي أن توجه جهود علماء المسلمين إليه في اجتماعات الرابطة، وذكر هذا في رسالة بين فيها الأمور التي يجب عقد المجالس والاجتماعات لها؛ لأن مثل هذه الاجتماعات قد تكون رسمية بحتة، وقد تكون نافعة مع كونها رسمية، قال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة له يبين ما يجب أن تكون عليه الاجتماعات واللقاءات الرسمية منتقدًا الرابطة؛ حيث طلبت الرابطة أن يعقد مؤتمر تتبناه رابطة العالم الإسلامي في توحيد الأهلة - يعني: في توحيد نظر المسلمين في الهلال -، أن يتفقوا على أن يدخلوا شهر رمضان في يوم واحد، وأن لا يكون خلاف في ذلك، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهم: المهم هو النظر في الأصول العظام التي الإخلال بها هادم للدين من أساسه، وذلك

مسائل توحيد الله ﷻ بإثبات ما أثبته لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وكذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وكذلك توحيد الاتباع، والحكم بين الناس عند النزاع، بأن لا يحاكم إلا إلى الكتاب والسنة، ولا يحكم إلا بهما، وهذا هو مضمون الشهادتين اللتين هما أساس الملة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، بأن لا يعبد إلا الله، ولا يعبد إلا بما شرعه رسول الله ﷺ، وأن لا يحكم عند النزاع إلا ما جاء به رسول الله ﷺ، هذا هو الحقيق بأن يهتم به، وبأن تعقد المجالس والمجتمعات لتحقيقه وتطبيقه، انتهى المراد من تلك الرسالة.

خامسًا: كان الشيخ رحمه الله رئيسًا للمعهد الإسلامي في نيجيريا، وكان هو المشرف على نشر الدعوة في إفريقيا.

سادسًا: كانت المراكز الإسلامية في أوروبا ترسل إليه بمشاكلها، وهو يتابع الأنشطة هناك، فمما جاء في ذلك، مما ضمته فتاوى الشيخ رحمه الله فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد. . .

فقد اتصل بي الحاج السيد جواد مقدس رئيس جمعية مسلمي بريستول بانجلترا، ومعه كتاب من سكرتير الجمعية يعرف فيه بالسيد جواد المذكور، وقد شرح لي نشاط الجمعية المذكورة في الدعوة الإسلامية، وطلب مني إعطاءه بعض الكتب، وقد أعطيناه بعض الكتب الإسلامية والسلفية، كما طلب أيضًا الإذن له في تعليم القرآن ونشر العلم في تلك الربوع، وأذنا له

في ذلك - أيضًا -، سائلًا الله لي وله التوفيق والسداد، التوقيع: مفتي المملكة العربية السعودية.

سابعًا: إنشاء مؤسسة صحفية تقوم بواجب الدعوة إلى الله، وقد أصدر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا مؤرخًا في سنة أربعة وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية، جاء فيه: نظرًا لحالة المسلمين الحاضرة وحاجة الأمة إلى الدعوة الإسلامية قد قمنا بتأسيس مؤسسة للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لتأخذ بأيدي الشباب المسلم عن الوقوع في شراك المبادئ الهدامة والأفكار الضالة المسمومة، ولتبين للناس محاسن الإسلام وصلاحيته لمعالجة جميع المشاكل البشرية في كل زمان ومكان، ولما كانت الصحافة لها أثرها الكبير في عصرنا الحاضر، فقد تقرر أن يصدر عن هذه المؤسسة الصحفية صحيفة يومية تصدر أسبوعيًا مؤقتًا، ومجلة شهرية، علاوة على ما نؤمله في المستقبل القريب - إن شاء الله - من قيام هذه المؤسسة بإرسال الدعاة إلى الله في أنحاء العالم، ولما كان وجود أصحاب السماحة والفضيلة أعضاء المجلس التأسيسي بمكة فرصة نادرة بالنسبة للدعوة الإسلامية، أحببت أن أخبرهم عن هذه المؤسسة وأهدافها، راجيًا منهم مساعدتها بإرسال المقالات النافعة والآراء السديدة نحو هذه المؤسسة، وسوف يصدر العدد الأول من الصحيفة قريبًا بإذن الله. ا. هـ.

كان الشيخ يروم أن تكون صحيفة يومية إسلامية في هذه البلاد، ولكن كانت - كما ذكر - أسبوعية مؤقتةً، وهي التي استمر عليها الأمر إلى وقتنا الحاضر، ثم غيرت من كونها صحيفة أسبوعية إلى مجلة أسبوعية.

لقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في دعوته إلى الله متبعًا أصول دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: من تأصيل التوحيد في النفوس، والنهي عن الشرك، والحث على الالتزام بالسنة، ونبذ البدع، والدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية في جميع الشؤون، وإلى تربية النفوس وتزكيتها بالعمل الصالح، والاتباع لسلف الأمة.

وكان ديدنه في ذلك ديدن سلف هذه الأمة وأئمة الإسلام العظام، ولم يكن مبتدعًا في الدعوة، ولم يأت لهذه البلاد بأمور ليس عليها علماء هذه البلاد، وليست مما ورثه أئمة الدعوة لهذه البلاد، إذ إنما تصلح هذه البلاد، بل إنما يصلح المسلمون جميعًا بالأخذ بالدعوة السلفية الصحيحة، إذا فقهوا ذلك، وعرفوا معالمه وحدوده.

ثناء العلماء والأدباء والمثقفين عليه: لقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مجمعًا على الثناء عليه فيما أعلم، وائتلفت القلوب على محبته، وأذكر هنا بعض ما وقفت عليه من ثناء العلماء عليه مما لا أعلمه قد نشر من قبل، فهناك أشياء نشرت في الكتب وفي تراجم الشيخ، لكن أذكر أشياء لم تنشر من قبل في هذا المقام:

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة له خاصة في ترجمة موجزة للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لقد أكرمني الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتفضل علي، وله الحمد والمنة - بأن كنت من أخص تلاميذ شيخنا المذكور، لازمته نحو عشر سنين من عام سبعة وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية، إلى عام سبعة وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، ثم تعينت في القضاء بعد ذلك، ولكني لم أنقطع عن الاتصال

به وسؤاله عن كل ما يشكل، والاستفادة من علومه وتوجيهاته إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد حضرت له مواقف مشرفة، وشاهدت منه أعمالًا موفقة في نفع المسلمين والغيرة على الإسلام والرد على خصومه، أجزل الله له المثوبة، وكان يوصي الطلبة كثيرًا بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وكان واسع العلم، كثير الخوف من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، دقيق الفهم، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًا. انتهى كلام الشيخ عبد العزيز بن باز.

- وقال الشيخ العلامة ذو الفنون محمد بن الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة خاصة، ترجم فيها للشيخ محمد بن إبراهيم، قال فيه الشيخ الشنقيطي: عرفنا فيه وفور العلم، ووفور العقل، وتمام الحكمة والصبر المنقطع النظير، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فيما أعتقد وأجزم به، وإن كنت لا أزكي على الله أحدًا - من نوادر الرجال الذين عرفناهم علمًا، وحكمًا، وعقلًا وحكمة، فنرجو الله أن يتقبل منه صالح عمله، وأن يجزيه كل خير، ويعلي درجته في الآخرة؛ كما أعلاها في الدنيا، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ انتهى كلامه.

- وقال الشيخ سعدي ياسين العلامة الداعية المعروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما سماحة مفتينا الفقيه - تغمده الله برحمته -، فقد سلك مسلك أئمتنا الأعلام من علماء السلف، فكنت وأنا أسمع فتواه تلك كأني أستمع إلى سفيان بن عيينة، أو ابن علية، أو ابن أبي ذئب، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متين الحفظ، مستحضرًا الآيات، لا يكاد يشتبه عليه شيء من ذلك، ولقد رأيته عن كثب بعبادته وأذكاره في ليله

ونهاره، وحرصه على حضور الجمعة والجماعة، وإخباته قبل الفجر وبعده مما حببه إلي، وأكبره في نظري إلى آخره. . .،

- وقد تكلم عنه في رسالة خاصة العلامة الدكتور الداعية السلفي المعروف تقي الدين الهلالي رحمه الله بقوله في مقدمة ترجمته له في تلك الرسالة الخاصة، قال عنه: هو الإمام العلامة، بقية السلف، وعمدة الخلف، ناصر السنة، الأستاذ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. وبالمناسبة الشيخ تقي الدين الهلالي قرأ على الشيخ كتاب التوحيد في مكة، فيعد من تلامذة الشيخ الذين قرؤوا عليه التوحيد، والشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله قرأ على الشيخ تقي الدين الهلالي البلاغة لما كان في مكة، فكان الشيخ تقي الدين الهلالي يقرأ على الشيخ أولًا التوحيد، ويشرح الشيخ محمد بن إبراهيم للشيخ تقي الدين الهلالي ذلك في نحو الأربعينات أو أوائل الخمسينات الهجرية بعد الثلاثمائة وألف، وبعد ذلك يقرأ الشيخ حفظًا شيئًا من البلاغة من متن في البلاغة لا أستحضره الآن، ويشرحه الشيخ تقي الدين الهلالي.

وفاته: أما وفاة الشيخ رحمه الله، فتُوُفِّيَ رحمه الله عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة، وفي أوائل ذلك العام أو في أواخر الذي قبله بدأ بالشيخ رحمه الله مرض عضال - كَفَّر الله به عنه من خطاياه -، فسافر للاستشفاء إلى لندن، ولم ينتفع بالعلاج هناك، وكانت مدته هناك قصيرة، وقد حدثني بعض من رافقه هناك أنه في آخر أيامه في المستشفى قبل رجوعه إلى الرياض كره الطعام، فقدم له كأس لبن، فطعمه ثم تركه، فقال له من أعطاه الكأس: إنه طيب.

فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ له: نعم صحيح، ولكن ليس بجيد للميت.

رجع إلى الرياض، فلازم الفراش، ولسانه يلهج بذكر الله، والثناء عليه، لا يفتر عن ذلك، حتى تم أجله، وانتقلت روحه، وفارقت بدنه في صبيحة يوم الأربعاء من اليوم الرابع والعشرين رمضان سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة، وكان المصاب به عظيمًا، هوى له أحد، وانهد ثكلان، صلى عليه ظهر ذلك اليوم رَحِمَهُ اللَّهُ أمم من الخلق، لا يحصيهم محصٍ، كان إمام المسلمين في الصلاة عليه تلميذه وخاصته سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، تسامع الناس بالخبر، فتصدعت الأفئدة، ونكست الأذقان، فكم من دمعة ترقرقت، وكم من حزن قضى على أصحابه، وكم دام بالناس من الحزن، ولكن قال الناس في مصيبتهم: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما سير بجنازته، تذكر الناس بعد ذلك جنازة أحمد بن حنبل، أو تذكروا جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية، من ذوي الجنائز المشهودة المعروفة في التاريخ، فلا تحصى الألسنة المترحمة عليه إذ ذاك، كيف لا، وما من أحد إلا وهو شاهد بفضله، شاهد بما قدمه للناس عمره كله الذي زاد عن سبعين من السنين.

والنبي ﷺ يقول: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ**»(١) تتابع ذوو الأقلام يَرْثون إمام وقته وشيخ الإسلام في زمانه، فكم من عالم نثر رثاءه، وكم من عالم نظم رثاءه، وكم من مثقف كتب، وكم من عاقل سطر.

والعجز عن وصف المشاعر سمة الجميع، فجزاهم الله خيرًا عنه، ورفع

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله درجات الشيخ محمد بن إبراهيم، وأجزل له المثوبة، وألحقه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وأعقبه في ذريته وذريتهم خيرًا.

هذا مقام عَجِل - كما ترى -، وأحداث الشيخ ومدارسه المختلفة كثيرة لا تحصى، ولكن هذه عجالة، أسأل الله ﷻ أن يرحمه، وأن يرفع درجته في عليين، وأن يغفر لنا ذنوبنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاضرة من معين أقوال السلف ١٤٢٧/٩/١١هـ
بجامع خادم الحرمين الشريف بجدة
الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد لله مجيب مَنْ سأله، ومجيب مَنْ علق به رجاءه وأمله، الكريم الذي مَنْ أقبل عليه قبله، ومَنْ أعرض عنه، أرداه وخذله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله البررة وصحبه الخيرة، ومَنْ على دربه سار واقتفى أثره، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: ففي هذه الليلة ليلة الأربعاء الحادي عشر من شهر رمضان من العام السابع والعشرين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية المباركة يطيب لنا في هذا الجامع المبارك جامع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ اللَّهُ في محافظة جدة أن نرحب جميعًا بصاحب المعالي الشيخ/

صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ - حفظه الله تعالى -

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

في محاضرة ضمن البرنامج الرمضاني الذي تقيمه اللجنة الدعوية في هذا الجامع المبارك، وعنوان محاضرة معالي الشيخ (**من معين أقوال السلف**).

نسأل الله ﷿ أن يكتب مسعاه في موازين حسناته، وأن يوفقه، ويسدده، توفيق وتسديد الصالحين، وأن ينفعنا بما يقول، إنه ولي ذلك والقادر عليه، فليتفضل مأجورًا مشكورًا.

الحمد لله رب العالمين أتم النعمة، ومنَّ على الأمة ببعثة محمد ﷺ، فهي تتقلب في خير إلى قيام الساعة، أحمده سبحانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فيا أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله ﷿ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أُعطي شكر، وإذا أُبتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، كما أسأله في هذا الشهر الكريم أن يمنَّ علينا، وعلى والدينا، وعلى من له حق علينا بالمغفرة، والرحمة، والتجاوز عن الآثام، والقبول لقليل الصالحات؛ إنه سبحانه جواد كريم.

كما إني أشكر للجنة الدعوية في جامع خادم الحرمين الشريفين دعوتها لي بأن أشارك في مجموع المحاضرات والدروس التي تقيمها في هذا الجامع المبارك في شهر رمضان، ولاشك أن المحاضرات والدروس من أشد ما تكون الحاجة إليه في هذا الزمن؛ لأنها سلاح يتسلح به المؤمن في خضم هذه الفتن، وخضم هذه التقلبات، لاسيما أن أغلى شيء عند أهل الإسلام هو دينهم، وأغلى شيء عندهم في هذه الدنيا هو إيمانهم، فالحرص عليه

بالسلاح المناسب الإيماني وبالدواء النافع من أهم المطالب وأعظم ما يُحرص عليه؛ فلذلك هذه المحاضرات وغيرها مما ينبغي للشباب وللناس بعامة رجالًا ونساءً أن يحرصوا عليها؛ لأن المؤمن إذا استفاد، لاشك أنه سيفيد غيره من أهل بيته، أو ممن يخالطه، أو ممن يكون معه، هذه المحاضرة ليس لها عنوان يتضح معه المقصود منها، لكنها بعنوان:

مِنْ مَعِينِ أَقْوَالِ السَّلَفِ

والسبب في الاختيار أن أقوال السلف - رحمهم الله تعالى -، وهم من سبقنا من أهل العلم الراسخ، وأهل الاستقامة على المنهج الحق، فإن هؤلاء لهم من الدروس والأقوال وما أثر عنهم ما يكون إمامًا للناس، يفهمون به مقاصد كلام الله وكلام رسوله ﷺ ومقاصد الإسلام بعامة، ولذلك كان حرص المؤمن:

أولًا، على كلام الله تعالى وهو الذي لا يعدله شيء القرآن العظيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، هو الحق الذي لا محيد عنه، وهو الفصل، وهو الذي تأنس له القلوب، وتقوم له الناس؛ لذلك كان من اللوازم أن يُهتم بـ:

- القرآن منهجًا، وعلمًا، وعملًا.
- ثم سنة النبي ﷺ.
- ثم ما عليه الصحابة رضي الله عنهم.

- ثم ما يكون من أقوال أهل العلم الذين رسخت قدمهم، وشهدت لهم الأمة؛ فإن في كلامهم ما يكون نبراسًا لأهل الإيمان؛ ولذلك قال الحافظ العلامة ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في كلام السلف:

(كلام السلف قليل، كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير، قليل الفائدة)[(١)]، وكلام السلف - على قلته - فهو محفوظ؛ لأنه كلمات قليلة تُستوعب، وتُروى، وتُذكر، وتتناقلها الأمة، لكن الكلام الكثير تجد أنه لا يُنقل عن صاحبه - مع كثرة كلامه -، لا يُنقل عنه إلا الشيء النادر من الكلام الذي يبقى، يبقى التأثير العام، لكن كلام السلف فيه نفع عظيم في التأثير وفي الحفظ، ويمكن أن ينطلق منه طالب العلم، ينطلق منه الداعي، ينطلق منه المربي في بيته، في مدرسته؛ ليكون ميدانًا للبيان والشرح، وتعليق الناس بهذا الكلام العظيم.

لذلك كان من المهم أن نلفت انتباه المهتمين بالديانة من جميع الطبقات، والمهتمين بالعلم، والمهتمين بشأن الإسلام إلى الالتفات إلى ما كان عليه السلف الصالح من الفهم والإدراك والعمل؛ فإن فيهم المقتدى بهم، وفيهم الإمام في أقواله وأعماله.

وأقوال السلف كثيرة متنوعة، لكني سآخذ بعض ما تيسر منها، وهذه الأقوال التي سأوردها ليست من جمعي، وإنما كانت مراسلات عبر الهاتف الجوال بيني وبين بعض الإخوة الخاصين الذين لي بهم صلة دائمة، وهذه من المهمات، فإن هذه الوسائل الحديثة مثل: الرسائل عبر الجوال، لابد أن

(١) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف (ص٣٣).

يُستفاد منها في الدعوة إلى الله تعالى، والاستفادة منها في التثبيت، وفي تعليق الناس بالمنهج الصحيح، وفي ربطهم بما كان عليه أهل العلم، وما كان عليه السلف الصالح.

كثير من الإخوة يهتم في هذه المراسلات عبر الجهاز الجوال بالدعاء، سيما في بعض المواسم أو في يوم الجمعة، أو في آخر الليل، وهذا حسن، والدعاء طيب، لكن الكلام الذي يُنتقى لا شك أنه يكون له تأثير إذا كان معزوًا لأحد من أهل العلم، هذا أساسها؛ ولذلك هي ليست اختيارًا مني، ولكنها مجموعة، ولها دلالتها، ومن هذه الأقوال:

١ - قال ابن القيم رحمه الله: **(كم مِنْ حزازة في نفوس كثير مِنْ الناس مِنْ كثير مِنْ النصوص! وبودهم أن لو لم ترد تلك النصوص، وكم مِنْ حرارة في أكبادهم منها! وكم مِنْ شجن في حلوقهم منها!)**[1]، الرسالة التبوكية لابن القيم رحمه الله، ماذا يقول في هذا الكلام العظيم؟ كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ هي التي يُعبر عنها أهل العلم بـ(**النصوص**)، ولا يقصدون بالنص المصطلح الأصولي، وهو: اللفظ الذي لا يقبل الاحتمال أو التأويل، يقابلون النص بالظاهر... إلى آخره، لا، يقصدون بالنص: كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ أو الخبر الذي جاء في القرآن أو في السنة الواجب في الأخبار التسليم، الإيمان بها والتسليم، واعتقاد مقتضاها،

(١) انظر: الرسالة التبوكية أو زاد المهاجر إلى ربه (ص٢٥).

وفي الأوامر والنواهي: «**فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١).

فإذًا هذه النصوص هي حياة المسلم، يأخذها، ويعمل بها، ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ استعرض حال كثير من الناس في هذه الأمة ممن ألفوا أو ممن لهم شأن، قال: (**كم مِنْ حزازة في نفوس كثير مِنْ الناس مِنْ كثير مِنْ النصوص!**) لماذا؟ هل حق الله عَزَّ وَجَلَّ وحق رسوله ﷺ أن يكون في القلب حزازة من النص من الدليل؟ هذا أمر عظيم، لكن هنا لا بد من معالجة السبب؛ لأن هذا أمر عظيم أن يكون في القلب شيء من ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

اليوم في أعظم المسائل - مسائل التوحيد والعقيدة - إذا أتيت فيها بالنصوص الدالة على الاعتقاد الصحيح: على الإخلاص، وعلى التوحيد، وعلى الشرك، وما أشبه ذلك، تجد أن بعضًا من الناس الذين أُشربوا هواهم في أشياء بودهم أن هذا النص لا يورد، بل هناك أغرب من ذلك ذكره بعض المنتسبين - مع الأسف - للعلم قال:

(إنني إذا أتيت إلى جزء (عم) وأتيت إلى سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] لا أقرؤها)، وهذه ذكرها في مجلة من المجلات مقال بها، لماذا؟

قال: (**لأنها في عم النبي ﷺ**)، وهذا من الشأن العظيم، هذا يُسبب بلاءً عظيمًا في اعتقاد المرء وفي عقيدته وفي صلته بالله عَزَّ وَجَلَّ، النص جاء ليُتبع،

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحجة على العباد في القرآن وفي السنة، كلام الله الذي يُوحى، الذي يُتلى، وأُوحي للنبي ﷺ، هو الحجة؛ لذلك لابد من التسليم له، فكيف يجد بعض المسلمين حرارة - كما يقول ابن القيم - في أكبادهم من تلك النصوص؟ بوده أن لا تذكر له هذا النص، هكذا في مسائل كثيرة، اليوم في مسائل عظيمة تحكيم الشريعة في بلاد الإسلام وفي المسلمين، تحكيم الشريعة واجب، إذا أتيت إليهم في خطبة أو في مقالة أو في مناسبة، وقلت ما قال الله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، بودهم أنك لم تذكر هذه الآية.

ويأتي أناس كثيرون الذين يناهضون حجاب المرأة، ويناهضون الاستقامة، ويريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، أو إذا أتيت، وذكرت لهم النصوص الدالة على هذا الأمر، وعلى ستر المرأة، وعلى عدم جواز الفتنة بها، وما أشبه ذلك، يودون أنك لا تورد هذه النصوص.

وهذه مصيبة عظيمة في أن مسلمًا يتمنى أنه لم يسمع نصًا، ما السبب في ذلك؟ السبب في ذلك الهوى، أن له هوى في شيءٍ معين، ولا يريد أن يكون الدليل ضده، والواجب التسليم، الواجب أن لا يكون في نفس المؤمن حرج مما قضى الله ﷻ، أو قضى رسوله ﷺ، بل الواجب أن يتبع الدليل كلام الله وكلام رسوله، والدال هو النبي ﷺ؛ ولذلك ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، النبي ﷺ نذير، وهو السراج المنير، لماذا؟ ينذرنا عن أشياء، ويفتح لنا الطريق في نور وبصيرة ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ

وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وهو النبي ﷺ؛ ولذلك تجد اليوم فيما يُنشر من مساجلات ومن حوارات، فيما يدعون اليوم ساعة في الزمن ما يسمى (**الحوار**)، شاع في الناس، سواء في الصحف أو في بعض القنوات الفضائية (**الحوار**)، وهو في الحقيقة هم لا يريدون به الحوار للاستفادة، ولمعرفة الحق، ولمعرفة النص، ولمعرفة الدليل، وللاتباع وللنجاة يوم العرض على الله ﷻ، هم يريدون من الحوار خلخلة الثوابت والمبادئ التي علمناها، فتأتي الحوارات في قنوات فضائية، والأصل أنه إذا أتى النص - كما قال ابن القيم هنا - تسلم الناس، لكن هنا يأتون له بطريق، وطريق، وتأويل، وتأويل، بغير حجة ولا بيان، خاصة فيما يتعلق بالأهداف التي يريدونها في تغيير المجتمع، هذه لفتة دل عليها كلام ابن القيم رحمه الله.

٢- قال الإمام محمد بن علي بن الحسين رحمه الله: (**جميع التعايش والتناصف والتعاشر في مكيال، ثلثاه فطنة وثلثه تغافل**)(١).

التعايش، والتعاشر مع الناس هذا لا ينفك عنه أحد، الإنسان - كما يقولون - مدني بطبعه، يحتاج إلى أنه يعاشر من في بيته، وأهل بيته، يعاشر إخوانه وأهله، يعاشر زملاءه في العمل، من في منطقته، في حارته، في مسجده. . . إلى آخره، هذا التعاشر لابد، لا ينفك منه أحد؛ ولذلك الله ﷻ أدب المؤمنين بآداب التعاشر فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] والنبي ﷺ قال: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢).

---

(١) انظر: أدب الكاتب (١/ ١٠٤).
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

محمد بن علي بن الحسين ماذا قال؟ قال: التعايش والتعاشر في مكيال، هذا المكيال ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل، ما معنى ذلك؟ يقول: إنك تحتاج في التعاشر مع الناس والتعايش معهم لكي تكون مخالقًا للناس بخلق حسن، تكون معك صفتان؛ حتى تنجح، هاتان الصفتان: ثلث صفة، وثلثان صفة، الفطنة والتغافل، التغافل ما معناه؟

التغافل: هو عدم تقصي الأمور بحثًا وتنقيبًا، ربما يقول لك واحد كلمة تعرف أنه غير صادق فيها، ما تأتي تناقشه، حتى تثبت أنه غير صادق، يأتي يقول شيئًا من هواه، ما تأتي تثبت له أنه خطأ، لابد من الفطنة؛ حتى تدرك الأمور في تعاشرك وتعاملك، لكن لابد من التغافل، ما يكون المرء مصادمًا.

التعاشر مع الناس يحتاج إلى مَنْ هو فطن ومتغافل، فطن حتى لا يُلعب عليه، حتى لا يُضحك عليه، حتى لا يأتي أشياء يظن معها أن المؤمن أو الرجل الصالح أنه لا يفهم شيئًا، هو فطن، ولكنه لا يتقصى الأمور إلى نهايتها، يتغافل؛ ولذلك قال أحد علماء الحديث، (**الخير تسعة أعشاره في التغافل**)، فنُقلت للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال الإمام أحمد: (**قصَّر**) - يعني: لم يأتِ بالصواب كاملًا - (**الخير كله في التغافل**)[1]؛ لذلك تأتي هنا، ففي التعاشر لابد لك من التغافل، وهذه وصية؛ لكي نحصل على أعظم ما يوضع في الميزان يوم القيامة، وهو الخُلق الحسن، أعظم ما يوضع في

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣٣٠)، عن عثمان بن زائدة قال: (**العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل قال: فحدثت به أحمد بن حنبل فقال: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل**).

الميزان يوم القيامة الخُلق الحسن، لكن الخُلق الحسن ليس دروشة غفلة، بمعنى: عدم انتباه وعدم فطنة، لا، فطن، ولكنه مربٍ يفهم، ويتغافل، وهذه تكون في كثير من الأحيان أعظم تأثيرًا في المقابل، إذا علم أن الذي يتعامل معه فطن، ولكنه يتغافل، فيكون أكثر وأكثر في ذلك.

الإمام أحمد قيل له: (**إن فلانًا - من أئمة الحديث، أو من رواة الأحاديث - مريض، وله عشرة أيام لم يخرج من بيته، قال**: (**نذهب لزيارته، فإن من حق المسلم على المسلم أن يعوده إذا مرض**)، فذهب هو وأصحابه، وكان هذا الذي يروي الحديث أو من علماء الحديث كان يتأول شيئًا، يعني: لا يُشترط في العالم أو في الراوية أن يكون كاملًا، ربما له تأويل في مسائل من مسائل العلم، يراها هكذا، ولا يوافقه عليها غيره، فكان له تأويل في بعض المشروبات، مما لم يُجمع العلماء على حرمته، فدخل الإمام أحمد لزيارته، فلما دخل وجد بعض هذه الأشربة، وهو يعرف مذهبه، وجد بعض هذه الأشربة في مكان، فجلس وجعلها خلفه، جلس الإمام أحمد لزيارة المريض، وجعل تلك الأشربة خلفه، ومعه عدد من طلابه، فزاره وخرج، لما خرج قال له بعض تلامذته: يا أبا عبد الله ألم تر الشراب؟ قال: (**لم أرَ شيئًا**) قال: لقد كان وراء ظهرك. قال: (**وهل يرى الإنسان ما وراء ظهره؟**) هذا تغافل فيه حكمة، أتت الجارية لهذا الراوية، وقالت: لقد أتاك أبو عبد الله، ولم تنزع الشراب، فقال: (**إذا كنت لا أستحي من الله، فكيف أستحي من أبي عبد الله؟! ولكني أتركه من الآن، أريقي تلك القوارير**). الموقف له تأثيره، ولكن لكل مقام مقال.

هنا قال محمد بن علي بن الحسين: فطنة وتغافل، المؤمن فطن، كيس فطن، يدرك الأمور، ويعرفها، ولكن لا يُقَصِّي الأمور إلى نهايتها، في بيتك أنت ترى أشياء: يتصرف ابنك، يتصرف أخوك، يتصرف صديقك في أشياء، لابد فيها من التغافل، يقول كلمة لا تعجبك، تمررها؛ لذلك قال بعض السلف: **(الكلمة التي تؤذيك طأطئ لها رأسك، فإنها تتخطاك)**، إذا أتى كلام يؤذيك، تقول: فلان يقصدني، هذا يقصدني، لا تعتبر أنه يقصدك، ولا تكن أنت المراد به، لكن إذا واجهت الكلام، أصبح عليك، وأصبح، وأصبح، وزاد، ولذلك هناك كثير من الخلافات تزيد بمواجهات؛ لأنه بدأ بالمواجهة، لكن لو مررها المسلم، وكان فطنًا فيها، ولكنه تغافل عنها، نجح كثيرًا في ذلك.

٣ - قال مجاهد بن جبر التابعي الإمام المشهور: **(ما أدري أي النعمتين عليَّ أعظم: أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء؟)**[١] لماذا؟

لأن عنده أنه لم يصح له إسلامه إلا بالسلامة من تلك الأهواء، فهو يتنازع، يرى منَّة الله عليه بالسلامة من تلك الأهواء، ويرى منَّة الله عليه بالإسلام، فيرى أن هذه تتمم هذه، بالإسلام الصحيح والفقه في دين الله والعلم النافع واتباع السبيل المتيقن الذي لا اشتباه فيه، سلم - وفقه الله - للسلامة من تلك الأهواء، وبحرصه على السلامة من تلك الأهواء سلم له إيمانه، وسلم له دينه؛ لذلك المؤمن حريص، ويجب أن يحرص دائمًا على السلامة من تلك الأهواء، إذا وجدت الأهواء والأقوال، اذهب إلى المتيقن

---

(١) أخرجه: الدارمي (٣٠٩)، والبيهقي في الشعب(٤/ ١٢١).

تسلم، لا تذهب إلى طريق تخاطر فيه بدينك، المرء التزم بدين الله، وحرص على الدين، وحرص على الخير، لماذا؟

لكي يفوز برضا الله ﷻ والجنة، فلا يخاطر بشيء مظنون، الآن في أمور التجارة يقول: هذا مخاطرته عالية، هم - مثلًا - يقولون: الأسهم مخاطرتها عالية جدًا، يقول: هذا فيه مخاطرة، لا تدخل فيه؛ لأن العاقل لا يأتي، ويقدم ماله في شيء مخاطرته عالية، يقول: اتركه يروح.

الناس حريصون على أموالهم، ويأنفون، ويمرضون، ويصيبهم ما يصيبهم إذا فقدوا هذه الأموال؛ لأن المال عصب الحياة، فكيف إذا خاطر بمنهجه، وخاطر بدينه؟ فالمسألة عظيمة؛ لذلك يجب على المسلم أن يتنبه إلى أن لا يخاطر بشيء هو من تلك الأهواء، أي شيء لابد يرجع إلى الأصل، يرجع إلى الديانة الأصلية.

٤ - الفضيل بن عياض رحمه الله من العلماء المعروفين، والزهاد المشهورين، كان مربيًا في العبادة والزهد، وكان -أيضًا- مربيًا في التعامل والتعاشر، الفضيل بن عياض يعاشر مَنْ؟ هو من الزهاد العباد يعاشر مَنْ؟ أكثر مَنْ يعاشر العباد، فرأى في العباد شيئًا فوجه لهم تلك الكلمة.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (**إن الفاسق إذا كان حسن الخُلق عاش بعقله، وخف على الناس، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق، ثقل على الناس، ومقتوه**)[1] كما ذكرنا آنفًا: الله ﷻ أمر بقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) انظر: روضة العقلاء لابن حبان (ص٦٤).

وقال ﷺ: (**وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**)[١]، فلو كان واحد عابد وصالح وبإذن الله يأتي الفرائض، وبإذن الله ينتهي عن المحرمات، هل هذا يكفي أن يكون صاحب خُلق حسن؟ لا، قد يكون رجل يرتكب بعض المنهيات، أو يفرط في بعض الواجبات أحسن خُلقًا منه، فيثقل ميزانه من تلك الجهة، قال الفضيل: (**إن الفاسق إذا كان حسن الخُلق عاش بعقله، وخف على الناس، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق، ثقل على الناس، ومقتوه**).

يرشد إلى أن الأكمل أن تكون صالحًا مستقيمًا على دين الله، ومعك عقل يكون فيه حُسن الخلق، كاد حُسن الخُلق أن يذهب بخيري الدنيا والآخرة؛ لذلك حسن الخلق يكون محبوبًا، ولو كان غير سالمٍ من الذنوب، ومَنْ يسلم من الذنوب؟ ولكن باعتبار الأغلب.

٥ - علي بن سهل بن الأظهر رحمه الله قال كلمة توقفت عندها لما جاءتني الرسالة طويلًا متأملًا، وحركت فيَّ أشياء كثيرة جدًا، وهي تصلح إلى أن تناقش في محاضرة مستقلة، قال: (**من لم تصح مبادئ إرادته، لا يسلم في منتهى عواقبه**)[٢] أول ما يدخل في هذه الكلمة - وعلي بن سهل من الحكماء - أول ما يدخل فيها الإخلاص لله ﷻ، أول صحة مبادئ الإرادة الإخلاص لله تعالى، والإخلاص: أن تخلص نفسك في أعمالك من رؤية شيء من الدنيا، أن تعامل الله ﷻ، الواحد يعمل شيئًا يقصد به وجه الله ﷻ؛

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٠٧).

(٢) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٥٨).

كما قال ابن القيم[١] رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَلِوَاحِدٍ كُن وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أعني سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

(فلواحدٍ) وهو الله ﷻ، (كنْ واحدًا) في إرادتك وقصدك، (في واحدٍ) في سبيل واحد، فالله واحد، ولا بد من قصد وإرادة واحدة، وهو الإخلاص في سبيل واحد: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، هنا يأتي أثر الإخلاص، الإخلاص والصدق مع الله ﷻ في مبادئ الإرادات في أي عمل يسلم لك عاقبة الأمر، إذا أردت في أمر دينك، انتبه لأساس الإرادة، هل هو الدين لله ﷻ، أو أردت أن تتميز، أو أردت أن تُذكر، أو أردت أن يكون لك شأن بين أهلك وأقرانك؟

شخص أراد أن يحفظ القرآن؛ لأنه تأثر بمقرئ، وأراد أن يكون إمام مسجد يُقصد أو مقرئًا، آخر طلب العلم، أراد أن يتصدر، آخر طلب المال؛ ليكون أكثر من فلان، فهذا أراد الدنيا، وآخر طلب الشفاعة للناس، يشفع، ويذهب مع هذا، يريد الذكر، وآخر يعطي من المال، يريد الذكر... وهكذا، هذه أنواع من المقاصد.

والواجب أن يوطن المؤمن نفسه أن تسلم له مقاصد إرادته بالإخلاص فيها، كيف يكون الإخلاص؟ الإخلاص أن تكون فيها مريدًا وجه الله ﷻ، أي عمل تقول: هذا لله، ولكن لا يعني أن لا يكون لك فيه نصيب من الدنيا، لكن القصد فيه هو الله ﷻ، إذا كان من العبادات الخالصة، فإنه لا يجوز

---

(١) انظر: النونية لابن القيم (٢/ ٢٥٨) مع شرحها لابن عيسى.

أن يكون فيه قصد من الدنيا، إذا كان أمر فيه وفيه، فإن العلماء اختلفوا: هل ما كان للمرء فيه محبة له أن يقصده، أو ليس له أن يقصده؟ على قولين لأهل العلم، أصحهما ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية من قوله:

(إذا كان العمل لله ﷻ، ورتب الشرع عليه ثوابه في الدنيا، فإنه لا بأس بقصده) مثل: قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١) واحد يريد صلة الرحم، يذهب ويصل رحمه، ويحرص عليها، قصده وجه الله ﷻ والرغبة فيما عند الله، والله هو الذي أمر بذلك، لكن في داخله - أيضًا - يريد أن يُبسط له في رزقه، ويريد الطول في العمر، نقول: لا بأس بذلك؛ لأن الشرع حث على العمل بذكر هذه المثوبات، وهذه ذكرها ابن تيمية في قاعدة مهمة له، وهي: قاعدة في المحبة فيما كان للعبد فيه محبة، وهو عبادة.

الكرم: واحد كريم بطبعه، يأنس، ويتصدق، ويعطي، وينفع، ويريد بذلك وجه الله، ولكنه يجد في نفسه سرورًا إذا فعل هذه الأشياء، قال: لا بأس بذلك؛ لأن هذه من عاجل بشرى المؤمن.

كذلك قال أهل العلم: من دعا الناس لئلا يُتهم بالبخل، وهو ما يرغب، يعمل وليمة، أو شيء يجد في نفسه ثقلًا لأنه يعملها، لكن البخل صفة مذمومة، البخل: عدم الإنفاق فيما الإنفاق فيه واجب أو مستحب، قد يكون محرمًا، وقد يكون مكروهًا بحسب الحال، ولكنه لا يريد أن يوصف بالبخل فيعمل عملًا هو لا يريد أن يدعو ويصل ويجمع الناس، ويكونوا عنده

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٧٧٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

على خير، ولكن يريد أن لا يُقال عنه: بخيل، قال أهل العلم: يؤجر على ذلك؛ لأن عمله للتخلص من صفة مذمومة؛ لذلك قال هنا علي بن سهل بن الأظهر: (**من لم تصح مبادئ إرادته، لا يسلم في منتهى عواقبه**) لا يسلم من جهة الإثم، ولا يسلم في منتهى عواقبه - أيضًا -، ليس هناك ذكر في الدنيا؛ لذلك مبادئ الإرادات مهمة جدًا.

ولذلك قال أحد الزهاد وهو عطاء الله السكندري في كلمة مشابهة لذلك في بعض المعاني قال: (**من كانت بداياته محرقة، كانت نهايته مشرقة**) بداياتك تكون محرقة قوية تشرق، يعني لابد من قوة، حتى تشرق عملًا صالحًا في الدنيا، يريد أن يحفظ القرآن وهو ليس عنده همة ما يمكن، يريد أن يكون قويًا في بدنه، وهو لا يكون حريصًا على نفسه، لا يمكن، إذا كنت قويًا في إرادتك، سلمت لك العواقب.

٦ - قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله:

- في كلام له وهذا يصلح - أيضًا - لكل ما نقوله -: (**الكلام الحسن حسن، ولكن أحسن منه معناه، وأحسن من معناه استعماله**)(١)، صار عندنا ثلاث طبقات، أنت تسمع كلامًا حسنًا، وتقول: ما شاء الله، هذا الكلام جميل، لكن لازم تغوص فيه، تتدبر وتتأمل فيه، لكن تسمعه، وتستلذ له؛ كالواحد يرى وردة من بعيد، ولا يشمها، صحيح رأيت، ولكن هنا (**وأحسن من الكلام معناه**) هنا لما تتأمل في الكلام، وتتفحص في معناه هذا أحسن، أعظم الكلام حسنًا كلام الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٩)، والخطيب في تاريخه (١٤/ ٢٠٩).

مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣]، استماعك له، تلاوتك عبادة، لكن أفضل من ذلك أن تكون متدبرًا عالمًا به ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فالقرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، فهنا القمة أن يكون علمًا وعملًا، القرآن معك، وتعلم ما فيه، وتعمل بما فيه بحسب الاستطاعة.

قال: **(وأحسن منه معناه)** لم؟ لأنك إذا تأملت في الكلام، وفصلته درسته، وجدت أنه تنشأ منه أنواع الرياحين وأنواع المعاني التي تأنس لها، الشعراء يقولون شعرًا استلذاذ الناس له يختلف، واحد يقول: هذا شعر عظيم، وواحد يقول: لا، هذا هنا بحسب ماذا؟ بحسب القدرة على فهم المعاني.

كذلك كلام الحكماء، كلام الحكماء عظيم بليغ، إدراك معانيه يحتاج إلى عقل وعلم لإدراكات، وبعد ما قالوا، لكن أحسن من هذا كله ماذا؟ قال: **(وأحسن من معناه استعماله)** إذا استعملت الكلام الحسن قرَّ أولًا، ثانيًا: شعرت بحسنه، وانشرح له صدرك، ثالثًا: إذا استعملته، رأيت أثره والانتفاع به، ولذلك إذا سمعنا كلامًا حسنًا، نتوقف عنده؛ لنأنس به، ثم ننتقل إلى فهم معناه، ثم بعد ذلك استعماله، وهكذا كلام السلف - رحمهم الله تعالى - السلف كان كلامهم قليلًا، لكن فيه المعاني الغزيرة.

٧ - قال أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ماذا قال؟ رأوه يكثر السجود، يكثر الصلاة، ويحب من الصلاة السجود، قالوا له: الآن تنقطع عن أشياء وتسجد؟

قال: (أدخر كثرة السجود ليوم القيامة)[١] أخذها من قول النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه: «**أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[٢]، النفوس إذا كانت عالية، ما تقتصر على شيء قليل، وتقول: أديت الواجب، وفقط.

فالهمم العالية لا يقنعها إلا المنازل العالية، واحد يؤدي الصلوات الخمس خير، قال: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»[٣] قال: يا رسول الله - لما قال أخبرني عن كذا، وأمره بالصلوات... إلى آخره -، قال: والله لا أزيد على هذا، ولا أنقص، قال النبي ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»، وفي رواية قال: «**دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**»[٤]، فدخول الجنة مطلب عظيم، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهلها، وأن يسلمنا من النار، وأن يعيذنا منها ومن طرقها، لكن المنازل العالية تحتاج إلى إخبات، إخبات في القلب وصدق، وأعظم ما يؤدي إلى ذلك الصلة بالله عز وجل الخاصة الصادقة.

وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فرجع الأمر إلى أن السجود فيه سر عظيم، تشعر وأنت ساجد كأنك تحوم حول العرش في بعض الأحيان، لا يُقال: إن الرجل أو المرأة أو الإنسان في صلاته يكون دائمًا على حال واحدة، فهذا غير معقول، تأتيك أحيانًا من النفحات، ومن الصدق ومن كرم الله عز وجل وإكرامه لك، ما يجعلك وأنت ساجد تبكي وتبكي، وتبكي، وأنت لا تدري، حتى إذا انفتح عليك البكاء لم ينقطع، تريد أن

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢٧/ ٢٠٥)، (أدخر كثرة السجود ليوم القيامة).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩)، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٩١).

تكف نفسك لا تستطيع، هذه منحة من الله لك، فاستفد منها:

إِذا هَبَّت رِياحُكَ فَاغتَنِمها فَعُقبى كُلِّ خافِقَةٍ سُكونُ

إذا هبت الرياح - رياح الخير رياح الإيمان - لا تقل: أنا مشغول، هبت رياح فيها خير لك: في طاعة، في صدقة، انفتح لك باب دعوة، باب خير، باب عمل صالح مما هو موافق للكتاب والسنة، لا تتأخر؛ لأنها قد لا تأتي مرة ثانية، وكذلك شعورك في ليلة صليت ركعتين مثلًا: بعض الناس يصلي ركعتين، ثم الشفع والوتر - يعني: خمسًا -، صليت ركعتين، وشعرت تلك الليلة بانشراح الصدر؛ لأنك خشعت، لا تنقطع، لا تقل: أنا مثل العادة أصلي ركعتين. صلِّ صلاة الليل؛ لأنها قد لا تأتيك مرة ثانية، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: **(لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم واحد لم يكن غائب أحب إلى من الموت أتدري ممن يتقبل الله** ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][(١)] لذلك هنا **(أدخر كثرة السجود ليوم القيامة يوم الفزع الأكبر)** هذه يجب أن نتنبه، ونقف عندها، ندخر، تشعر وأنت تعمل العمل الصالح، تدخره ليوم القيامة، هذا يعطيك عدة معانٍ:

أولًا: ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، **(أنا أدخره ليوم القيامة)**، وهذا الإنسان يعمل العمل، ويقول: أنا أديت الواجب. ولكن ما يأتي في باله أنه يدخره ليوم القيامة، أنه يعمل ليوم العرض، يعمل لأجل الموازين حين تُنصب، يعمل للقاء الله ﷻ، هذا معنى زائد يقوي ركن الإيمان الخامس، وهو الإيمان باليوم الآخر، ركن الإيمان باليوم الآخر يأتي بما تعود نفسك

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٦).

عليه، هناك كثيرون يطيعون الله ﷻ، ويعملون صالحًا، لكن استحضار - وهو يعمل - ما يكون لليوم الآخر، فهذا قلة.

لذلك قال بعض التابعين، أو تبع التابعين للحسن البصري رحمه الله قالوا له - وقد أدركوا بعض الصحابة رضي الله عنهم -: لقد رأينا التابعين أكثر عبادة من الصحابة رضي الله عنهم، فبم سبقهم الصحابة رضي الله عنهم؟ قال الحسن رحمه الله: **(هؤلاء يتعبدون والدنيا في قلوبهم، والصحابة تعبدوا، والآخرة في قلوبهم، فهذا الذي رفع أولئك)** يعني: فرق، واحد يصلي، ويتصدق، وفي قلبه الآخرة، ورجاء الله، وحب الله، والخوف من الله، وآخر يعمل المأمور به، أنا أصلي، أروح المسجد، وأصلي، ولكن الشيء الذي في النفس هذا يرفع المنازل، لذلك كلمة أبي مسلم لها الكثير من المعاني.

٨ - قال ابن رجب رحمه الله: **(قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام)**[1] هذه الكلمة فيها أبعاد كثيرة، لكن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر - قواهم الله، وزادهم قوة وبصيرة - عندهم كل يوم عشرون حالة، أو ثلاثون حالة، أو أكثر في كل يوم، ما سمعنا بالحالات، صحيح؟ نادر أن يسمع إنسان أنه حصل كذا، إلا إذا كان انتشر من قرابته، أو من أهله، أو ممن حصل منهم.

---

(١) انظر: الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(ص٤١٨)، قال: الوزير ابن هبيرة: **(اجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام وأولى الأمور ستر العيوب)**.

لكن اليوم هناك من لا يستر هذه الأشياء، ويشيعها، وهي بعض الصحف بعض الصحف اليوم إذا أتت في نقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قالت: فيهم وفيهم، وفي الصحف يقول: رجل أتى ابنته، رجل وقع على أخته، هذا في الصحف عندنا في المملكة، هذا الذي فعلوه، وهذا الذي نشروه من أعظم الفضيحة؛ لأنها نشر علني، يقرؤها مليون أو مليونان، وهذا عيب في أهل الإسلام، وقدح في المروءة، وقدح في الشيمة، أهل الإسلام وبلد القرآن إذا صار فيه حالة رجل في مخدرات أو رجل معتوه، ووقعت منه، تُنشر في الصحف بالخطوط العريضة! فلان وقع على أمه، فلان وقع على أخته... إلى آخره؛ ولذلك الذين يصبون في إفساد المجتمعات اليوم هم الذين ينشرون الفاحشة.

ونشر الفاحشة يكون بأنواع منها: عدم الستر، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ [النور: ١٩]، وهذا العذاب بماذا؟ لأنهم أحبوا أن تشيع الفاحشة. الأصل الستر، الأصل أن الذنب يقع من الإنسان، وقعت الذنوب في عهد من؟ في عهد النبي ﷺ، هذا وقع، وهذا زنا، قليلة، ولكنها وقعت باعتبار البشرية، ما الواجب؟ الواجب أن لا تذكر، وأن لا تذكر في المجالس، وأن لا تنشر، أما أن تُنشر في أعظم الوسائل، وهي الصحف، فهذا عظيم؛ كذلك بعض القنوات الفضائية يأتون بمثل هذه الأحداث، يقولون: هذا وقع على هذا، وهذا تحرش فيها، وحاول فيها، ويأتون باللقاءات علانية، لماذا عملتم هذا؟ وهي موجودة في بعض البلدان الكافرة: في أمريكا، وفي أوروبا في برامج، ولكن أن يقلدهم أهل الإسلام

ويأتوا بأناس يقولون: أنت فعلت كذا وكذا، يقول هنا: (**هذا عيب في أهل الإسلام**) إذًا ما المقصود من نشر هذه؟ المقصود منها معالجة القضية؟

هي حالة واحدة، لماذا تنشر صحيفة أخبار مثل هذه على الملأ؟ ما السبب؟ هل هي قضية شائعة دائرة حتى تُناقش؟ وإذا أتى أهل الخير في خطبة، وعرضوا بواحد، قام أهل الصحف، وكتبوا المقالات: هذا ذكر، والخطيب ذكر فلانًا، ولماذا يذكره؟ والنبي ﷺ قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ**»(١) وهم في نفس الصحف يأتون مثل هذا، يقولون: وقع فلان، وزوجته وجدت مع هذا، وراح ذاك، وقتلها... إلى آخره.

مثل هذه يجب أن لا تتعدى الولاة - ولاة الأمر - والقضاء والشُرط والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الهيئات لا تتعداهم، حتى المرء المسلم إذا سمع بشيء من ذلك لا يجوز أن يذكر ذلك، لا يجوز له؛ لأنه يجب على المؤمن أن يستر أخاه، وقد قال ﷺ: «**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢)، والحديث في ذلك ذو شجون.

٩ - قال سفيان الثوري رحمه الله، وهو من طبقة تبع التابعين، ومن الزهاد العباد، إمام في الحديث، وقال بعضهم: أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري، وكان عابدًا زاهدًا، مَرض مرض الموت، فأوتي بطبيب، ففحصه الطبيب، وقال: أريد أن أرى بوله. فرآه، وهو يتبول، قال: هذا رجل قطع الخوف قلبه، يأتي للإنسان غلبة حال يقطع الخوف قلبه: الخوف من الله عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦)، ومسلم (١٥٠٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم(٢٥٨٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

من الحساب، من الدار الآخرة، فقال هنا كلمة، قال: (**يعجبني أن يكون صاحب الحديث - فهو يعاشر أصحاب الحديث - مكفيًا؛ لأن الآفات إليهم أسرع، وألسنة الناس إليهم أشرع**)[١] ماذا يقصد بـ(مكفي)؟ يعني: عنده مال يكفيه، لم؟ قال: (**الآفات إليهم أسرع**) يُخشى عليه أن يحتاج، أن يكون يعمل شيئًا، ثم ينصرف عن القوة التي هو فيها، (**وألسنة الناس إليهم أشرع**) لم؟ يقولون: انظر إلى هذا كيف، وهو يدعي أنه على علم؟ لو كان العلم نافعًا له، كان ربي يرزقه، . . . إلى آخره، يقول: (**يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفيًا**).

وقال - أيضًا - في معنى المال كلمة أخرى: (**كان المال فيما مضى يُكره، أما اليوم، فهو تُرس المؤمن**)[٢]، قامت الدولة العباسية، فتغيرت الأمور، واختلفت، لم يصبح الناس في تواد وتراحم كما كانوا من قبل، الناس لا يقرضون بعضًا، أصبح الناس لا يسعى بعضهم في حاجة بعض، القوة ضعفت . . . إلى آخره، سفيان الثوري تأمل هذه الحالة، فقال هاتين الكلمتين، قال: (**يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفيًا**)، وقال الكلمة الأخرى، قال: (**كان المال فيما مضى يُكره**) يعني: التوسع في المال أو الرغبة فيه، أو أن يكون المال يُكره، قال: (**أما اليوم، فهو ترس المؤمن**) كيف ترس المؤمن؟ يعني: يتقي به آفات الدنيا، يتقي به ما يكون، حتى لا يكون أمثولة في ذلك. الناس في هذا مقامات؛ لذلك هنا تكلم أهل العلم في الزهد: ما هو؟ فقال بعضهم: (**هو ترك الدنيا**)، وقال بعضهم (**هو ترك**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٨١).

الحرام)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن استعرض هذه الأقوال، ونظر فيها: **(الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة)**[(١)]، بمعنى أنه يأتيك شيء يمكن أن ينفعك في الآخرة، وتتركه زهدًا، فليس هذا من الزهد، فلذلك قال هنا: **(ولذلك قبل طائفة من السلف الولايات)**، لماذا؟ لأنه يرى بحسب ما يظهر من حاله أن الولاية التي تولاها تعينه في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي الآخرة بحسب حاله ما استطاع، في المال قال: **(كان المال فيما مضى يكره، أما اليوم، فهو ترس المؤمن)**.

فلذلك ليس من الحسن أن يذم المال مطلقًا، وإنما يذم المال إذا كان مشغلًا عن العلم النافع، عن الآخرة، عن الصلاة، عن نفع المسلمين، أما إذا كان يستخدمه فيما ينفع في الآخرة، فهو محمود، نعم حسابه في الآخرة أشد، والفقير حسابه أقل، ولذلك يدخل الفقراء يوم القيامة الجنة قبل أغنياء هذه الأمة بخمسمائة سنة، لماذا؟ المال يحتاج إلى حساب، لكن إذا كان ينفع، فالصحابة رضي الله عنهم كان منهم من عنده مال كثير، أبو بكر رضي الله عنه كان من أغنى الصحابة رضي الله عنهم، عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كان من أغنى الصحابة، عثمان بن عفان رضي الله عنه كان من أغنى الصحابة، كان من الصحابة أصحاب أموال كثيرة، عثمان بن عفان رضي الله عنه جهز جيش العسرة بمئات بل بآلاف، فقال النبي ﷺ في شأنه: **«ما ضَرَّ عُثْمَانَ ما عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ»**[(٢)]؛ لأن العمل الصالح يكون نافعًا للمؤمن بقية حياته.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥)، ومدارج السالكين (٢/ ١٠)، وعدة الصابرين (٢٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

لذلك قال النبي ﷺ عن أهل بدر: «**لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١)، لا يقال في أهل بدر: أنهم ينتكسون، ولكن إذا حصل من أحدهم شيء، فتلك الحسنة العظيمة يغفر لهم بسببها ما كان بعد ذلك.

١٠- سئل ابن تيمية رحمه الله**، فقال السائل له: أيهما أنفع للعبد - مقالات** السلف والتنقل فيها أنا لا أمل منه، ولكن ما أدري عنكم، لكن أنا لا أمل منها، لماذا؟ لأن كل واحد منهم بحر، تجد في كلامه أنواعًا من العلوم، شيئًا في السلوك، شيئًا في العقيدة، شيئًا في الروحانيات، أشياء في التعامل، ونستفيد منها كثيرًا، ونفعوا بتلك الكلمات - ابن تيمية رحمه الله سئل: أيهما أنفع للعبد: التسبيح أم الاستغفار؟ فقال: (**إذا كان الثوب نقيًا، فالعطور والورد أنفع، وإذا كان الثوب متسخًا، فالصابون والماء الحار أنفع**).

الآن الذي يسأله طبعًا ليس بطالب علم، فلما نبحث مع طلاب العلم: أيهما أنفع التسبيح، أم الاستغفار؟ بحث آخر يبحث فيه في معاني التسبيح، والمشتملة عليه من جهة تعلقه بالله ﷻ، وفيه التوحيد، والاستغفار طلب المغفرة من الله ﷻ، البحث آخر حسب حال السائل، فالذي ينفع الكثيرين ينفعنا جميعًا.

قال: (**أيهما أنفع للعبد التسبيح أم الاستغفار؟ قال: إذا كان الثوب نقيًا، فالعطور والورد أنفع**)، يعني أن العبد إذا كان يعاهد نفسه بنظافة ثوبه،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

كلما أذنب استغفر، ما يبقى على شيء، يستمر دائمًا ينظف قلبه، يعمل الصالحات: ذهاب للمسجد، عمرة مكفرة، صدقات مكفرة، حج، صيام، دائمًا ينقي قلبه، قال: إذا كان الثوب نقيًا - يعني: أنت حريص على نقاء ثوبك دائمًا، فالتسبيح أنفع؛ لأنه يرفع الدرجات، أما إذا كان الثوب متسخًا، فالصابون والماء الحار أنفع، وهذا ما نحتاجه فعلًا، فالسلوك في درجتين:

الأولى: أن العبد يحمد إذا كان متنظفًا في ثيابه، الواحد يغضب من أهل بيته: ثوبي لماذا لم تنظفوه؟ لماذا لم تكووه؟ لماذا لم تفعلوا هذا؟ لماذا؟ لأن الظاهر مطلوب، لكن جمال الباطن أهم، سلامة القلب أنفع، صلاح القلب أنفع، لذلك قال ﷺ في الصلوات الخمس في مثلها: «**أَرَأَيْتُمْ لو أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ قالوا لَا يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ قال فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو الله بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[1] إذا كان عندك نهر جار نظيف، تغتسل منه، وتنظف ظاهرك، كذلك الصلوات الخمس، العبد قد يقول كلمة يغلط فيها، يقول كلمة، فيعاهد نفسه دائمًا على نقاء ثوبه الداخلي، على نقاء روحه، نقاء قلبه بالاستغفار، بالصلوات، بالمكفرات، بالعلم النافع، بالصدقة، بالدعوة، بالإعانة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنواع من العمل الصالح، لكن إذا كان يعرف نفسه أنه مذنب، فما حاله؟ لابد أن ينتبه لنفسه، يكثر من الاستغفار؛ كما كان النبي ﷺ يعلم الأمة؛ حيث كان ﷺ: «**يستغفر في**

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المجلس الواحد أكثر من مائة مرة»[١]، في المجلس يستغفر الله، استغفر الله، استغفر الله، وفي لفظ: «**والله إني لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إليه في الْيَوْمِ أَكْثَرَ من سَبْعِينَ مَرَّةً**»[٢] (سبعين) في لغة العرب إذا أطلقت لا يراد بها الحصر يعني: كثير، فلفظ السبعين في لغة العرب لا يراد به العدد، وإنما يراد به الكثير؛ كما قال ﷻ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ليست سبعين، بل ثمانين، تسعين، فلفظ سبعين يعني: كثيرًا جدًا.

فأنت تتعاهد نفسك بالاستغفار، يعني: وأنت ماشٍ بالسيارة، وأنت في بيتك تستغفر، إذا مللت، تستغفر، الآن حتى الطفل الصغير ثلاث سنين أربع سنين يقول: أنا مملت. يعلم ويدرب حتى ينفع إذا كبر، فلابد أن يعلم، حتى الإنسان الكبير يعلم، ويعود، وهذا شيء سهل.

١١- آخر شيء في كلمات اليوم: قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فتشت عن الورع، فلم أجده في شيء أقل من اللسان)**[٣]، الواحد يقدر يمسك نفسه عن أشياء كثيرة، ما يسمع ملاهي، ما يفعل شيئًا، لكن أصعب شيء اللسان؛ لذلك قال ﷺ فيما صح عنه: «**من يَضْمَنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ له الْجَنَّةَ**»[٤].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٢٧٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦١) من حديث أبي بردة عن رجل من المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: طبقات الحفاظ (١/ ٩٩)، وتهذيب الكمال (٦/ ١٩٠)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث المعروف قال: «**وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فقال ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ الناس في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ أو على مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(١).

فاللسان صغير الجَرْم، لكنه عظيم الجُرْم.

اللسان له أشياء حسنة، يوحد الله ﷻ، يثني على الله، يذكره، يتلو القرآن، يخاطب من يخاطب، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، أبواب كثيرة للسان، مابين واجب ومباح، لكن له أبواب أخرى، مثل: الكذب، النميمة، الغيبة، لمز، وغيرها من الأشياء، فاللسان خطير، تجد بعض الناس يترك الخمر والسرقة والزنا، لكن تجده في غير ذلك، وأحيانًا يصف الناس بشيء غير متأكد منه، ويدخل ذلك في البهتان.

مثل الذين يكتبون في الانترنت: فلان عمل كذا وكذا، وليس لكلامه أساس من الصحة، وإنما سمع شيئًا، فظن ظنًا، وحوله إلى قول ونشره، والناس إذا أتاهم كلام لم يسبق له شيء، يصدقونه، واحد يقول: كذا، وفلان كذا وكذا، صار كلامه مسلمًا مصدقًا، لكن لا يقول كلامًا يطعن به في المسلم، فالأصل في المسلم أنه إذا رأى خيرًا ينشره، وإذا رأى غير ذلك كتمه؛ لأن ذلك أطيب، وإذا بحثنا عن كبائر اللسان: من قذف، وسب، وشتم، . . . إلى آخره.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (١١٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩).

الآن يقولون: أمانة الكلمة، هذه كلمة جميلة؛ لأن الإنسان مؤتمن، وهذه الكلمة تخرج من أين؟ من لسانه، واليوم ينشر في الصحف، وبعض الكتاب الذين يكتبون في الصحف، وينشرون بعض الكتابات التي لا تكون إلا في خدمة سبيل الشيطان، إما قدح في أئمة الإسلام في صحفهم، فضلًا عن غيرها، وقعوا في كثير من أهل العلم، وتكلموا في السلف الصالح، ووقعوا في الدعوة السلفية، ووقعوا، ووقعوا، . . . إلى آخره، أيضًا وقعوا في أهل العلم المعاصرين، وأصبحوا يشنعون بهم بأشياء وأمور، ووقعوا في السلف الصالح وفي الدعاة، أمانة الكلمة وصون اللسان تغيب عن كثير منهم؛ لأن هذا الكلام يصبح وبالًا على صاحبه، والمقصود منه إضعاف الدين والخير في هذه البلاد، ولذلك حفظ اللسان وأمانة الكلمة، فكل إنسان مؤمن يخاف الله ﷻ يجب عليه أن يخاف من كبائر اللسان؛ لأنها موبقة، والإنسان ما يسلم.

الصلوات الخمس مكفرة إذا اجتنبت الكبائر، لكن الواحد لا بد أن ينتبه لنفسه، ما ذكره المقدسي في كتابه منهاج القاصدين - وهو كتاب جيد في السلوك، ملخص من كتب قبله - ذكر قصة فيه عن رجل أراد أن يشتري عبدًا رقيقًا، فأعجبه، فقال: ما مواصفاته؟ قال: مواصفاته كذا وكذا، ويكتب ويعرف الحساب، ويعرف الآلة، ويعرف للدواب ومدحه، ولكن براءة للذمة فيه عيب واحد، قال: ما هو هذا العيب؟ قال: له يوم في السنة يكذب فيه. قال: لا يضرني ذلك اليوم. فأخذه، مشت الأيام، فرح به جدًا، جاء يوم السنة الذي يكذب فيه، قال للزوجة - زوجة سيده -: بلغني أن زوجك يريد أن يتزوج، وأنه متعلق بامرأة، والحل سهل، أنا جربت فيما قبل،

والحل سهل، قالت: ما هو؟

قال: إذا نام في الليل، تأتين بسكين أو مقص، وتقصين شعرات لحيته المتدلية على حلقه.

قالت: هذا فقط؟ قال: هو ثقيل النوم، أنا أعلم هذا. لما جاء الزوج قال له: يا سيدي أنا لك ناصح أمين، زوجتك لها عشيق، وبلغني أنها تريد أن تقتلك الليلة، فلا تسلم لها، فتناوم، فتغطى، وجاءت المرأة بالسكين، فأمسكها، وقتل المرأة، لما سمع الصياح العبد، طار إلى أهل الزوجة، وقال لهم: سيدي ذبح ابنتكم. أتوا، فذبحوه، قال: يكذب مرة واحدة، ما يضر، لكن هذا كذب ضر في الدنيا، لكن ربما كذب كذبة واحدة، تقولها لا تلقي لها بالًا، تذهب عمرك يمشي، تهوي بك في النار سبعين خريفًا؛ فلذلك تحرص على النقاء نقاء اللسان، ليس شيء أحق بالحبس من اللسان، تكلم بما ينفع، ولا تتكلم بما يضر، قال ﷻ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

أسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم لما فيه الرشد والسداد، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمن له حق علينا، اللهم وفق ولاة أمورنا لما فيه الخير والسداد، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يُعز فيه أهل الطاعة، ويُهدى فيه أهل المعصية، ويُخذل فيه من أراد بنا سوءًا؛ إنك على كل شيء قدير، اللهم واغفر للملك فهد بن عبد العزيز، وأسكنه فسيح جناتك، وأجزه عن الإسلام والدعوة خيرًا، واغفر لآبائنا

وأمهاتنا ولجميع المسلمين والمسلمات، إنك على كل شيء قدير، اللهم اجعلنا من المقبولين في هذا الشهر الكريم، نعوذ بك أن نزل أو نُزل، أو نضل أو نُضل، أو نجهل أو يُجهل علينا، اللهم آمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
محاضرة: عهد ابن أم عبد رضي الله عنه (الأولى)	**٥**
كَلامُ السَّلَفِ وَكَلامُ الخَلَفِ	٦
أَقْرَأُ الصَّحَابَةِ	٧
وَصِيَّةُ الرَّسُول ﷺ بِابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه	٨
فَاتِحَةُ الكَلِمَاتِ: لَوْ تَعْلَمُونَ ذُنُوبِي	٩
تَحْتَ جَبَلٍ أَمْ عَلَى أَنْفِكَ ذُبَابٌ؟	١٣
الصَّدِيقُ مِرْآةُ صَدِيقِهِ	١٩
قِلَّةُ العُلَمَاءِ وكَثْرَةُ الخُطَبَاءِ	٢١
لا تَكُنْ رَأْسًا فِي الضَّلالَةِ	٢٤
محاضرة: عهد ابن أم عبد رضي الله عنه (الثانية)	**٣٠**
هَذِهِ القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ	٣١
اللهُ يُنَادِيكَ	٣٥
اسْتَمِرَّ فِي القَرْعِ ولا تَمَلَّ	٣٧
العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ	٤١
ذِكْرُ الحَدِيثِ حَيَاتُهُ	٤٤
لا تَأْخُذِ العِلْمَ مِنَ الأَشْرَارِ	٤٥

اتَّبع الحَقَّ ٤٨
أَنْتُمْ جِلاءُ قَلْبِي ٥٢
من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه ٥٥
تَعْرِيفٌ بِأَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه ٥٦
أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الحِلَق لإقْرَاءِ القُرْآنِ في المَسَاجِدِ ٥٩
رَأْيُهُ فِي القَضَاءِ ٦١
حكيمُ هذه الأمةِ ٦٢
أَبُو الدَّرْدَاءِ وَسَلْمَان ٦٣
ثَلاثُ وَصَايَا لأَبِي الدَّرْدَاء ٦٦
قال العلماء: الذكر له مراتب ثلاث ٦٧
اسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ تفرقةِ القَلْبِ ٧٤
تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ ٧٥
العُلَمَاءُ يَذْهَبُون ٧٨
مُرْ وَلَوْ لَمْ تَفْعَلْ ٨١
بُغضُ اللهِ وَبُغْضُ العِبَادِ ٨٣
آخِرُ وَصِيَّةٍ الأَذَان ٨٩
محاضرة: من معين الإمام أحمد ٩٣
إِمَامُ هُدَى ٩٤
آثَارُ النُّسُكِ ٩٥
مَشْغُولٌ بِالرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ عَنِ الزَّوَاجِ ٩٥
صَاحِبُ الحَدِيثِ لا يَتْرُكُ قِيَامَ اللَّيلِ ٩٦

إِذَا ذُكِرَ العِلْمُ تَكَلَّمَ ٩٨
كَانَ يَخَافُ مِنَ الاسْتِدْرَاجِ ١٠٠
مَا أَنْكَرَتْهُ العُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَهُوَ مُنْكَرٌ ١٠٢
حُبُّ أَهْلِ السُّنَّةِ ١٠٤
ظَهَرَتِ البِدَعُ فَأَيْنَ طُلاَّبُ الحَدِيثِ؟ ١٠٧
. . . . وَلَكِنْ لا تُصَاحِبْهُمْ ١٠٨
ضَوَابِط البدعة ١١٠
القُرْآنُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ١١٥
مَعَ المَحْبَرَةِ إِلَى المَقْبَرَةِ ١١٧
اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيَّ بِحِفْظِ القُرْآنِ فِي عَافِيَةٍ ١١٩
سِمَاتُ كِتَابَةِ العَالِمِ ١٢١
لا تُكْثِرْ مِنْ تتبع الأَئِمَةِ في الطرقات ١٢٢
لماذا يكره الإمام أن يتبعه أحد؟ ١٢٢
محاضرة: الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١٢٥
سِيرَةُ الأَئِمَّةِ تُنْعِشُ النُّفُوسَ ١٢٨
مَوْلِدُ الإِمَامِ وَبِدَايَاتُه ١٢٩
رِحْلاتُهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ ١٢٩
مُوَافَقَةُ العُلَمَاءِ لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ ١٣٣
لُطْفُهُ فِي الدَّعْوَةِ ١٣٤
أَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ ١٣٥
مَلامِحُ دعوته ١٣٥

أول ما تميزت به الدعوة هو : ١٣٦
التَّوْحِيدُ وَالإِخْلاُص مِفْتَاحُ القَبُولِ ١٣٧
عَدَمُ الحُكْمِ عَلَى النَّاسِ دُونَ مُحَاوَرَتِهِم ١٣٩
التَّرْكِيزُ عَلَى العَقِيدَةِ العَامَّةِ فِي الدَّعْوَةِ ١٤٠
تَحْرِيرُ النَّاسِ مِنَ التَّقْلِيدِ ١٤٣
التَّفْرِيقُ بَيْنَ الفَتْوَى وَالقَضَاءِ ١٤٧
سبب التفريق ما بين الفتوى وما بين القضاء ١٤٧
تَرْتِيبُهُ لأَهْلِ الحِسْبَةِ ١٤٨
ضَوَابِطُ فِي النَّهْيِ عَنْ المنْكَرِ ١٤٩
تَرْتِيبُ الوَضْعِ الإِدَارِيِّ للإِمَارَاتِ فِي نَجْد ١٥٠
الدَّعْوَةُ قَامَتْ بِالجِهَادِ ١٥١
قَنَابِلُ ابْنِ تَيْمِيَةَ فَجَّرَهَا ابن عبد الوَهَّابِ ١٥٢
افْتِرَاءَات عَلَى الدّعْوَةِ ١٥٣
دَعْوَةٌ نَاصَرَتْهَا دَوْلَةٌ ١٥٥
أَثَرُ الدَّعْوَةِ فِي أَمْصَارٍ كَثِيرَةٍ ١٥٦
الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ ١٥٧
محاضرة: معالم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وشبهات المناوئين لها ١٦٠
الوَهَّابِيَّةُ لَيسَتْ فِرْقَةً جَدِيدَةً ١٦٦
مَعَالِمُ الدَّعْوَةِ ١٦٧

شُبُهَاتُ المُنَاوِئِين ١٧٩
محاضرة: دروس وعبر من سيرة إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ ١٨٨
مَعْنَى إِمَامِ الدَّعْوَةِ ١٨٩
العِلْمُ هُوَ القَاعِدَةُ الأُولَى ١٨٩
مُتَابَعَتُهُ للنَّبِيِّ ﷺ ١٩٤
تَرْتِيبُ الأَوْلَوِيَّاتِ ١٩٥
مَا فَهِمُوا التَّوْحِيدَ ١٩٧
حَرِّكْ تَرَى ١٩٩
مَا طَلَبَ الإِمَارَةَ ٢٠٠
ثَلاثُ رَكَائِزَ ٢٠١
مُرَاعَاةُ الحِكْمَةِ فِي أُمُورِهِ ٢٠٤
وَسَائِلُ الدَّعْوَةِ ٢٠٦
محاضرة: منهج الإمام المجدد في العقيدة ٢١٢
بَيْنَ الغُلاةِ وَالجُفَاةِ ٢١٣
تَحْذِيرٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ٢١٤
النَّجَاةُ فِي اتِّبَاعِ السَّلَفِ ٢١٥
العَقِيدَةُ وَالتَّوْحِيدُ ٢١٨
معالم هذا المنهج ٢١٩
المعلم الأول: لا تُؤْخَذُ العَقِيدَةُ إلا مِنْ كِتَابِ اللهِ ٢٢٠
العَقْلُ لا يُقَدَّمُ عَلَى الدَّلِيلِ ٢٢١

قولهم افتراءً: الإِمَامُ لا يُطْنِبُ ٢٢٣
المعلم الثاني: تقرير التوحيد والعقيدة بعامة هو أولى وأول المهمات ٢٢٤
المعلم الثالث: أن الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ لم يفرق في دعوته بين أصناف
الناس ٢٢٨
المعلم الرابع: عدم القدح في المعظمين للناس فيما مضى ٢٣١
المعلم الخامس: حمل العقيدة حملًا كاملًا على منهج السلف الصالح ٢٣٥
المعلم السادس: تقرير التوحيد عند الإمام رَحِمَهُ اللهُ في الدعوة إلى الاتباع
السنة ٢٣٧
المعلم السابع: عنايته بالرد التفصيلي على من خالف العقيدة ٢٤٢
محاضرة: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ دعوته وحياته ٢٤٨
مولده ونشأته وأسرته ٢٥٢
وفاة والده ٢٥٥
تعلُّمه ٢٥٥
قراءته في الفقه ٢٥٧
قراءته في الحديث ٢٥٧
قراءته في علوم العربية ٢٥٧
تفوقه ٢٥٨
مشايخه ٢٥٨
خصاله ٢٥٩
وصية الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ٢٦٢
عناية الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ به ٢٦٢

دروسه ٢٦٤
عزة نفسه ٢٧١
رفضه للاستهزاء بين طلبة العلم ٢٧٢
تلامذة الشيخ ٢٧٦
أخلاقه وشمائله وحفظه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٢٧٩
الذكاء والفراسة ٢٧٩
الإخلاص في العمل ٢٨٠
طهارة قلبه ٢٨٠
شجاعته ٢٨١
هيبته ٢٨٢
لا يغتاب أحدًا ٢٨٤
العفة والورع ٢٨٤
كان من أهل الخشية ٢٨٥
مؤلفاته وآثاره العلمية ٢٨٦
حياته العملية ومناصبه ٢٨٨
جهاده في الدعوة ٢٩٠
ثناء العلماء والأدباء والمثقفين عليه ٢٩٥
وفاته ٢٩٧
محاضرة: من معين أقوال السلف ٣٠٠
١ - قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كم مِنْ حزازة في نفوس كثير . . .) ٣٠٤

٢ - قال الإمام محمد بن علي بن الحسين رحمه الله: (**جميع التعايش والتناصف . . .**) ٣٠٧

٣ - قال مجاهد بن جبر التابعي الإمام المشهور: (**ما أدري أي النعمتين عليَّ أعظم . . .**) ٣١٠

٤ - قال الفضيل بن عياض رحمه الله: (**إن الفاسق إذا كان حسن الخُلق . . .**) ٣١١

٥ - قال علي بن سهل بن الأظهر رحمه الله: (**من لم تصح مبادئ إرادته، لا يسلم في منتهى عواقبه**) ٣١٢

٦ - قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: (**الكلام الحسن حسن، ولكن أحسن منه معناه . . .**) ٣١٥

٧ - قال أبو مسلم الخولاني رحمه الله: (**أدخر كثرة السجود ليوم القيامة**) ٣١٦

٨ - قال ابن رجب رحمه الله: (**اجتهد أن تستر العصاة . . .**) ٣١٩

٩ - قال سفيان الثوري رحمه الله: (**يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفيًا . . .**) ٣٢٢

١٠- سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أيهما أنفع للعبد التسبيح أم الاستغفار؟ ٣٢٤

١١ - قال الحسن رحمه الله: (**فتشت عن الورع . . .**) ٣٢٦

فهرس الموضوعات ٣٣١